

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

# هيميان الزاد إلى دار المعاد

للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الإباضي المصعبي

## الجزء السادس

## القسم الثاني

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

## بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

## سورة الأعراف

مكية إلا « واسألهم عن القرية » الآية قاله قتادة ، وقيل إلا ثمانى آيات : « واسألهم عن القرية » إلى « وإذ نتقنا » وقيل إلا « واسألهم عن القرية » إلى « وإذ أخذ ربك » خمس آيات وهو قول مقاتل ، ورواية عن ابن عباس ، وقال الضحاك : كلها مكية وهو المختار عند بعض .

وآيها مائتان وست ، وقيل مائتان وخمس ، وكلمها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون ، وحروفها أربعة عشر ألفا وثلاثمائة وعشرة .

وعن أبى بن كعب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً » وكان آدم شفيعا له يوم القيامة .

## بسم الله الرحمن الرحيم

( المص ) كان الحسن يقول : لا أدرى ما تفسير المص والمر ، والر ونحو ذلك ، وعنه : معناه أنا الله أفضل ، وكذا عن زيد ابن على ، وقال ابن عباس : معناه أنا الله أعلم وأفصل .

وقال السدى : بعض اسمه المصور ، وعن قتادة : اسم من أسماء القرآن ، وفى رواية عن الحسن : اسم السورة ، وفى رواية عن ابن

عباس : اسم من أسمائه تعالى أقسم به ، وقال أبو العالية : الهمزة من الله ، واللام من لطيف ، والميم من مجيد ، والصاد من صادق ، وقيل : حروف اسمه الأعظم .

وقوله سبحانه : « المص » إلى « قليلا ما تذكرون » لولاة الأمور وأصحاب الأتباع ومن له رغبة فى القضاء بنقش فى صفيحة من فضة خالصة ، وتجعل تحت فص خاتم ، فمن لبس هذا الخاتم وفق للصواب ، وحسنت سيرته ، ووفق فى أقواله وأفعاله ، وتجرى مصالح الناس على يديه ، ومن كتبه فى ذهب مربع أو نحاس مربع أحمر ، أو مربع من ذهب ونحاس أحمر ، وهو أولى ، والطالع برج الحمل والشمس فى درجة شرفها ، وبخره بالزعفران والمقل الأزرق ، ولفه فى خرقة حرير أصفر نظيفة ، وحمله نال عزاً ورفعة وشرفا وجاها ، وولاية ضخمة وسخر له الأشراف والملوك ، ولا يراه أحد إلا عظمه وقضى حاجته وتيسر له كل عسير .

( كِتابٌ ) مبتدأ ونكر للتعظيم ، وصح الابتداء بالنكرة للتعظيم .

( أنزلَ إليكَ ) خبر وجملة المبتدأ والخبر جواب القسم ، إذا جعلنا المص اسما لله أو للسورة أو للقرآن وجعلنا قسما ، ويجوز جعله مبتدأ إذا كان اسما للقرآن وللسورة خبره كتاب ، وعليه فأنزل إليك نعت لكتاب ، والمراد بالكتاب القرآن ، وإن قلت : فكيف يخبر به عن السورة ؟

قلت : على جهة المجاز ، فإنها بعضه ، فكأنه قيل : بعض كتاب أو على المبالغة أو على إرادة أنها كلام مكتوب فى اللوح المحفوظ ، وقيل : كتاب خبر لمحذوف ، أى أو هو هذا كتاب ، وأنزل إليك صفة .

( فَلا يَكُنْ فى صَدْرِكَ حَرَجٌ ) أى ضيق ( مِنهُ ) أى من تبليغه مخافة أن تكذب فيه ، أو من القيام بحقه مخافة التقصير فيه ، فإنه برهان لا يكذبه أحد إلا عناداً وجحوداً ، وأنا موفقك على القيام به ، أو الحرج الشك ، فإن الشاك حرج الصدر ، والضيق لازم الشك ، وعلى هذا فالنهى عن الشك تأكيداً أى دم على ما أنت عليه غير شاك ، ومراد به غيره صلى الله عليه وسلم ، وإلا فهو بمعزل عن الشك ، فإنه موقن أنه من الله تعالى ، والفاء للاستئناف ، فإن الجملة المعترضة مستأنفة أو لعطف الطلب الفعلى على الإخبار الاسمى ، إذا جعلنا العطف على الجملة الاسمية ، أو على الإخبار الفعلى إذا جعلنا العطف على أنزل إليك ، أو لربط جواب شرط محذوف ، أى إذا أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، واعلم أن الأصل توجيه النهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم مثلا بأن يقال : لا تحرج منه ، ولكن وجه إلى الحرج تأكيدا كقولهم : لا أرينك هاهنا ، الأصل لا تكن هاهنا .

( لتُنْذر بهِ ) اللام متعلق بأنزل ، فالجملة معترضة ، والأصل أنزل إليك لتنذر به ( وذِكْرى للمؤمنِينَ ) فلا يكن فى صدرك حرج منه ، وإذا جعلت جملة فلا يكن فى صدرك حرج منه جوابا لمحذوف ، فجموع أداة الشرط والشرط والجزاء معترضة أيضا ، أو متعلق بلا الناهية لا بهاء بمعنى الترك والانتفاء ، فإنه إذا لم يخف تكذيبهم ، أو علم أنه موفق للقيام به تبليغه ، أو أيقن أنه من الله شجعه ذلك على الإنذار ، ولا سيما اليقين ، فإن صاحبه جسور متوكل على ربه ، وذكرى بمعنى التذكير معطوف على مصدر تنذر ، فهو مجرور بفتحة مقدرة على الألف وهى ألف مقصورة ، ومفعول مطلق لمحذوف ، أى ولتذكر به ذكرى ، أو معطوف على كتاب مبالغة حيث جعل القرآن نفس تذكير أو خبر لمحذوف مبالغة أيضا ، أى هو ذكرى ، وعلى هذا الأخير يصح كون الجملة معطوفة

أو حالا ، فجملة فلا يكن فى صدرك الخ معترضة على ما مر ، وكونها مستأنفة فجملة فلا يكن الخ غير معترضة بالنسبة إليها ، فإن محلها على هذا بين قوله : « لتنذر به » وبين قوله : « وذكرى » وللمؤمنين نعت لذكرى .

وإن جعلت ذكرى مفعولا مطلقا صح أن يكون نعتا لذكرى ، بقطع النظر عن العامل المقدر ، وأن يكون مفعولا لذكرى لنيابته عن العامل المقدر ، وأن يكون مفعولا للعامل المقدر ، واللام زائدة على هذين الوجهين مقوية ، وإن قلت : تقويتها بالنظر إلى المفعولية لذكرى واضحة ، لأنه ليس فعلا ، فما وجه تقويتها بالنظر إلى المفعولية للعامل المقدر ؟

قلت : وجهها أن العامل المقدر قد لحقه ضعف بالحذف ، والاكتفاء عنه بذكرى ، ومفعول تنذر محذوف للتعميم ، أو تقديره أى لتنذر به المشركين والمنافقين ، فالإنذار لهم والتذكير للمؤمنين ، فإنه بعد نزول بعضه قد وجد المؤمن والمشرك والمنافق ، فما نزل بعد ذلك فإنذار لهما وتذكير للمؤمن ، لكن النفاق لم يوجد إلا بعد الهجرة ، أو تقديره لتنذر به المؤمنين ، وخصوا به لأنهم المنتفعون على حد « لتنذر من كان حياً » .

( اتَّبِعوا ما أنزِلَ إليكُم مِن ربِّكم ) هو القرآن والسنة ، بناء على أنها وحى نزل « وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى » والخطاب من الله سبحانه ، وقيل : من النبى صلى الله عليه وسلم على تقدير القول ، أى قل لهم اتبعوا كما ذكره الطبرى ، أو لتنذر به فتقول اتبعوا ، أو مفعول لتنذر ، أو ذكرى لتضمن ذلك معنى القول ، والخطاب لجميع الناس عند الحسن والزجاج ، قال الحسن : يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله ، وسنة محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ما نزلت آية

إلا وجب أن تعلم فيما أنزلت وما معناها ، وقالت فرقة : الخطاب للنبى والمؤمنين وقيل : للمشركين ، وقرأ الجحدرى : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم بتقديم الموحدة وإسكانها وبالغين المعجمة .

( ولا تتَّبعُوا ) وقرأ مالك بن دينار رحمه الله ومجاهد : ولا تبتغوا بتوسيط الوحدة بين المثناتين وبالغين المعجمة ( مِنْ دُونه ) أى من دون ربكم ( أولياءَ ) شياطين الجن والإنس فيحملوكم على التكذيب ، وعبادة الأوثان ، وقيل : المراد بالأولياء كلما عبد من دون الله ، كالأصنام والأحبار ، والكهان والنار والكواكب ، وقيل : الهاء فيمن دونه عائدة إلى ما ، واختاره بعض ، وقيل : إلى الكتاب ، وما ذكرته أظهر .

( قليلا ) أى تذكيراً قليلا ، أو زماناً قليلا ، فإنه إذا قل التذكر الزمان الواقع فيه التذكير قليلا ، وعلى كل حال فناصبه تذكرون ما صلة لتأكيد القلة ، ويجوز كون قليلا ظرفا أى زمانا قليلا منصوب على الاستقرار الخبرى ، وما مصدرية ، وعليه فالمصدر من قوله : ( تذكَّرُون ) مبتدأ أى تذكركم ثابت فى زمان قليلا ، وأصل تذكرون تتذكرون ، أبدلت التاء الثانية ذالا وأدغمت الذال فى الذال ، وذلك قراءة نافع ، وقرأ ابن عامر فى رواية : تتذكرون بتائين دون إدغام ، وعنه : يتذكرون وهو مشهور عنه بياء فتاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم فى رواية حفص : تذكرون بتخفيف الذال وتشديد الكاف ، على أن الأصل تتذكرون ، حذفت إحدى التائين ، وقيل : المشهور عن ابن عامر يذكرون بياء فذال مشددة كالكاف ، والأصل يتذكرون ، أبدلت التاء ذالا وأدغمت فى الذال ، وهذا على أن هذا كلام منه صلى الله عليه وسلم أو مستأنف من الله ، والمراد بالتذكر تذكير دين الله .

( وكَم ) خبرية بمعنى كثير وهى مبتدأ أو مفعول على الاشتغال ،

ويؤيده عطف الفعلية فى قوله : « فجاءها بأسنا » كذا قيل ، ويرده أنه لا يؤيده ذلك ، لأن الخبر جملة فعلية فيجوز العطف عليه ( مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ) أردنا إهلاكها أى خرابها ، وأردنا إهلاك أهلها ، وتقدير بعضهم : كم من أهل قرية غير مقبول ، لأنه لا يناسبه قوله أهلكناها إلا إن أراد أن الأصل وكم من أهل قرية أهلكناهم ، فلما حذف المضاف جىء بما يناسب المضاف إليه ، وقرأ ابن أبى عبلة : وكم من قرية أهلكناهم فجاءهم ، الخ بمراعاة المضاف بعد حذفه ، وجملة أهلكناها خبر .

( فجاءَها بأسُنا ) عذابنا ، والفاء للترتيب والاتصال على أصلها ، لأن أهلكناها بمعنى أردنا إهلاكها كما مر ، أو حكمنا بإهلاكها ، وهما إرادة وحكم متصلان بمجىء البأس بعدهما غير الأزليين ، مطلقان للأزليين ، أو لأن المعنى أهلكنا أهلها بالخذلان وعدم التوفيق أو ذلك من باب القلب مبالغة فى تعلق البأس بهم ، وهو مرجوح كما قال ابن هشام ، والفاء للتعقيب الذكرى ، وقيل هى هنا لغير الترتيب كالواو ، وقال الفراء والطبرى : إهلاك ومجىء البأس واحد ، فإذا جاء أيهما قدم ، والفاء لتفصيل المجمل بلا عطف ، وقيل : زائد فى خبر المبتدأ وأهلكناها صفة .

( بَيَاتاً ) مصدر وقع حالا مبالغة أو يأول ببائتين أو بتقدير مضاف أى ذوى بيات ، أو مصدر نائب عن الزمان فيكون ظرفا متعلقا بمحذوف حال ، أى كائنين وقت بيات ، والبيات السكون ليلا ، وذلك لقوم لوط أهلكوا ليلا سحراً ( أو ) للتنويع ( هُم قائلون ) الجملة معطوفة على الحال الذى هو بياتا ، أو كائنين ، فهى حال معطوفة ، والرابط الضمير ، وقيل : الربط بالضمير وحده فى باب الحال غير فصيح ، وأن الأصل أو وهم قائلون بواو الحال ، فيكون الربط بالواو والضمير ، لكن حذف

الواو وهو واو الحال لكراهة اجتماع عاطفين ، فإن واو الحال هى واو العطف استعيرت للوصل ، وعن بعض أن هذا تكلف ، والذى فى التصريح أن الحال المعطوفة لا تكون بواو أصلا .

ومعنى قائلون مستريحون نصف النهار ، سواء كانوا نائمين أو غير نائمين ، وذلك كقوم شعيب أهلكهم الله تعالى نصف النهار ، وخص الوقتان الليل والقائلة لأنهما وقتا غفلة وأمن من العذاب واستراحة ، فجىء العذاب فيهما أقطع وذلك تهديد وزجر لكفار قريش وغيرهم ، وتخويف أن يصيبهم لكفرهم هذا العذاب المفاجىء على غفلة وأمن منه من غير تقدم أمارة عليه ، كما أصاب من اغتر قبلهم بالأمن والراحة .

( فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ) خبر كان ( إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلا أَن قَالُوا ) اسم كان ، ويجوز العكس ، كما قرىء بنصب حجة ورفعه فى « ما كان حجتهم إلا أن قالوا » ( إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ) أنفسنا بالشرك والتكذيب ، والدعوى بمعنى الدعاء والاستغاثة ، قال الخليل وسيبويه : تقول العرب : اللهم أشركنا فى صالح دعوى المسلمين ، ومنه « دعواهم فيها سبحانك اللهم » كما يكون بمعنى الادعاء ، أى ما كان استغاثتهم إلا اعترافهم بالظلم ، إذ لا يستغاث من الله لغيره ، أو ما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم حينئذ ، فلا يزيدون على ذم أنفسهم ، أو ما كان ما يدعونه من دينهم الفاسد إلا اعترافهم ببطلانه ، أى ما تحصلوا إلا على بطلانه ، ويصح أن تكون الدعوى بمعنى الادعاء ، فإن من شأن من ناله مكروه أن يدعى معاذير تحسن حاله ، والمعنى على هذا أنه إن كان لهم ادعاء يعذرون به فهو اعترافهم بالظلم ، فهذا تهكم به ، وعن ابن مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » وقد فسر عبد الملك ابن ميسرة هذا الحديث بهذه الآية .

( فَلَنَسأَلنَّ الَّذينَ أُرسِلَ إلَيْهِم ) نائب أرسل هو المجرور بواسطة الجار ، والأصل فلنسألن الذين أرسل إليهم الرسل ، ولما حذف المفعول الصريح وهو الرسل ناب المجرور ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس : فلنسألن الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا ، والمراد سؤال توبيخ وتقريع لا استعلام ، يسألهم عما أجابوا به الرسل ، وعن أعمالهم .

( ولنسألنَّ المرسلين ) سؤال تقرير ، هل بلغوا الرسالة ؟ وسؤالهم توبيخ وتقريع وتكذيب لأممهم أيضا ، فإنهم ينكرون التبليغ ، فتكذبهم الأنبياء والملائكة وجوارحهم ، فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم ، ويعقب ذلك كرامة للمرسلين .

( فلنقُصَّنَّ عَلَيْهم ) أى لنخبرنهم بما أظهروا وما أبطنوا قصة قصة ، والهاء للمرسلين أو لهم وللمرسل إليهم ( بعِلمٍ ) متعلق بمحذوف حال ، أى كائنين بعلم ظاهرهم وباطنهم ، أو علم بمعنى معلوم فيتعلق بنقصَّ أى لنقصن عليهم بمعلومنا ، وقيل : لنقصن عليهم بحقيقة ويقين ، وقد تقول الرسل لشدة هول ذلك اليوم : لا علم لنا ، فيقص الله عليهم بلسان ملك أو بصحائف . قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كانوا يعملون ، وتكلم الكتاب بذلك هو تضمنه له ، واشتماله عليه .

( ومَا كنَّا غَائبينَ ) ولو فى أقل من لحظة عن قلوبهم وجوارحهم ، فلا يخفى علينا شىء منهم ، ولا نزيد عليهم شيئا ولا ننقص ، كالوزن المحكم ، ويجازى على ذلك .

( والوزْنُ ) وزنُ الأعمال وهو الجزاء عليها ، والإخبار بكميتها وأعيانها ، أو المراد القضاء والحكم ( يَوْمئذٍ ) أى يوم نسأل الذين

أرسل إليهم والمرسلين وهو متعلق بالوزن ( الحقّ ) خبرا ، ويوم متعلق بمحذوف خبرا أى ثابت وظاهر يومئذ ، والحق نعت للوزن ، والأول أولى لسلامته من الفصل بين النعت والمنعوت بالخبر ، وقرىء والوزن يومئذ القسـط .

وقال جمهور المخالفين : إن الميزان ميزان كفـة وعمود ولسـان ، فقيل : توزن فيه صحف الأعمال وهو الصحيح عندهم ، ونسب للأكثر ، وقول تتجسم الحسنات صورا بيضـا ، والسيئات سـوداً ، فتوزن ، ونسبوه لابن عبـاس ، وقيل : يخلق الله الثقل والخفة فى الحسـنات والسيئات بدون أن يردها أجساما ، كما أن جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل بالوحى فى وقت الوحى ، حتى إن ناقته لتبرك بـه عجزاً .

وعن زيد بن ثابت : كنت أكتب حتى نزل : « غـير أولى الضرر » وفخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عـلى فخذى حتى كـادت ترض فخذى ، وبذلك قال أبو المعالى ورجح ، واستدل القائلون بأن الميزان ميزان كفة وعمود ولسان ، بأن ذلك هو ظاهر القرآن والحديث ، والحمل على الظاهر والحقيقة أولى ، بل متعين ما لم يكن مانع ولا مانع هنا ، وبأنه صلى الله عليه وسلم قال لبعض الصحابة لما قال له أين أجدك : « اطلبنى عند الحوض وان لم تجدنى فعند الميزان » وكذا قال لفاطمة رضى الله عنها ، وخاطبها بخطاب الأنثى ، ولو لم يكن الميزان محسوسا لما أحال على الطلب عنده .

والجواب : أن حمل الميزان على التمييز والجزاء ولو كان مجازاً أولى ، لأنه أسهل فى فهم العقل وأفصح وأسلم من رد العرض جسما ،

ولو كان الله على كل شىء قديراً ، أو لا دليل فى الحديث لجواز أن يقول : اطلبنى عند محل إظهار الجزاء والتمييز ، وقالوا : أراد الله أن يظهر لعباده تحرير النظر وغاية العدل بأمر قد عرفوه فى الدنيا وهو الميزان ، تأكيدا للحجة ، وقطعا للمعذرة ، وانظر سورة الأنبياء ، وذلك كما استنتج الأعمال واستنطق الجوارح بها ، واستشهد عليها مع علمه الذى لا يزول .

وعن بعضهم : توزن الأشخاص لقوله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليأتى الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وليس بشىء » لأن المراد الإعلام بأن المعتبر يوم القيامة الأعمال الحسنة لا عظم الجسم وحسنه ، وليس القول بشىء من تلك الأقوال بمكفر نفاقا ولا شركا ، ولكن الذى نعتقده ما ذكرته أولا ، لكن لما لم يعرف البشر شيئا أكثر تحريرا من الوزن ، عبر به وهو موجود فى كلامهم قال أبو طالب :

بميزان قسط لا يبخس شعيرة
له حاكم من نفسه غير عائل

وبه قال مجاهد والضحاك ، وعليه فالخفة والثقل مستعاران لكثرة الحساب والجزاء والأعمال ، وقلة ذلك .

( فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُه ) جمع موزون ، والمراد الحسنات وهو قول مجاهد ، أو جمع ميزان وعليه فإنما جمع تعظيما ، أو باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن ، كما تجمع الشمس باعتبار الأيام ، فجمع الميزان تنبيها على تعدد الموزونات وكثرتها مبالغة ، وقيل : جمع لاشتماله

على الكفتين والشاهون واللسان ، ولا يتم الوزن إلا بذلك كله ، فلكل منه نصيب فى الوزن ، فكان كل واحد منه ميزان ، وعن الحسن : لكل عبد يوم القيامة ميزان على حدة ، قال بعضهم : وهو مردود ، وقيل : جمع تعظيماً ، وقيل : لكل أحد موازين كل نوع من العمل بميزان ، وصاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام فيما نسبوه لحذيفة بن اليمان رضى الله عنه •

( فأُولئِكَ هُمُ المفْلحُون ) المدركون لبغيتهم ، الفائزون بثواب الله ، الناجون مما يحذرون •

( ومَنْ خَفَّت مَوازينُه ) حسناته أو ما توزن بـه كالذى قبله ( فأولئكَ الّذين خَسِروا أنفسَهم ) غبنوها بتضييع الإيمان الذى يولد عليه كل مولود ، ففاتهم الثواب الجزيل ، وأبدلوه بالعذاب العظيم ( بمَا ) مصدرية ( كانُوا بآياتنا ) بسببها ( يَظْلمُون ) أنفسهم وغيرهم إذ لم يصدقوا بها وكذبوا من أتى بها •

قال الحسـن : حق لميزان توضع فيه الحسـنات أن يثقل وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف ، قال أبو بكر حين حضرته الوفـاة لعمر رضى الله عنهما : إنما يثقل الميزان يوم القيامة باتباع صاحبه الحق ، وثقله عليه فى الدنيـا ، وحق لميزان يوضع فيـه الحق أن يثقل ويخف الميزان باتباع الباطل وخفته ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يخف ، ومن خف ميزانه فلن يدخل الجنة أبدا موحدا أو مشركا •

وقال المخالفون : تخف موازين الموحد العاصى الشقى ، فيدخل النار لأن توحيده غـير مخلص ، فلم يغلب سيئاته ، فإذا عـذب بقدرها خرج وقد بقى له توحيده خالصا راجحا يدخل به الجنة ، ومنع بعضهم

تسميته بالشقى ، وقالت طائفة منهم : توزن أعماله وحـدها فتخف فيدخلها ، وإذا خرج وزن توحيده فيدخل الجنة •

ودلت الآية بظاهرها أن الناس قسمان : قسم ثقلت موازينه وهو من رجحت حسناته على سيئاته ولو بحسنة واحدة ، وقسم بالعكس ، وزاد بعضهم ثالثا وهو من استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وفسر بهم أهل الأعراف ، وكأنـه أراد أنهم أتعبوا أنفسـهم بالطاعة بقدر ما أراحوها بالمعصية لا أكثر ولا أقل ، وماتوا تائبين وإلا فإن ماتوا تائبين فلا بقاء لسيئاتهم ، فضلا عن أن تساوى حسناتهم أو غير تائبين فلا بقاء لحسناتهم كذلك •

ودلت الآية أيضا أن الموزون لكل أحد حسناته وسيئاته لا سيئات غيره ، وما روى أن الظالم إذا فنيت حسناته أخذ من سيئات المظلوم غير صحيح عندنا ، وثبت من دليل خارج أنه يوزن للإنسان ما عمل لـه من خير كصدقة عليه ، وقراءة قرآن عليه كما يأتى فى النجم إن شاء الله •

( ولَقَد مَكنَّاكُم فى الأرْض ) جعلنا لكم فيها مكانا وملكناكم إياها ، وأسكناكم فيها ، وأقدرناكم على زرعها ، والتصرف فيها ، والخطاب للناس ، وأن المعنى جعلناكم خلائف عمن قبلكم ، وعن الحسن : إنـه للمشركين •

( وجَعَلنا لَكُم فِيها مَعايِشَ ) بالياء فى الرواية المشهورة عن نافع كما قال المرادى ، ولم تقلب همزة مع أنها فى المفرد وهو معيشة مد ثالث ، لأنها غير زائدة ، بل عين الكلمة الأصل معيشة بسكون العين وكسر الياء ، نقل كسرها لثقله عليها إلى العين فهى فى الحقيقة متحركة ، فهى غير مد أيضا بالنظر للأصل ، فلا تقلب •

وروى عن نافع وابن عامر والأعرج : معائش بالهمزة وهو شاذ تشبيها بنحو : قليدة وقلائد ، مما المد الثالث فيه زائد ، والذى روى ذلك عن نافع خارجة ، وهو من رواة نافع ، وروى عنه ورش معائش بإسكان الياء ، وأجاز سيبويه فى معيشة أن يكون أصله ما مر ، وأن يكون أصله معيشة بإسكان العين وضم الياء حذف ضمها لثقله ، وكسرت العين فهى أيضا متحركة فى الأصل ، وغير مد .

وعن الفراء : الأصل معيشة بإسكان العين وفتح الياء ، حذف الفتح وكسرت العين ، ويرده أنه لا تخفيف فى هذا فيرتكب ، وأنه لو كان كذلك لقيل معاشة كمهابة ، كما قيل فى الواوى : مخافة ومقالة بنقل فتح حرف العلة لما قبله وقلبه ألفا ، والمعيشة مصدر ميمى بمعنى العيش ، أى الحياة ، ولا تكون حياة الآدمى إلا بالطعام والشراب وغيرهما من المنافع ، وفقد المضار المؤذية المهلكة ، ويجوز أن ينقل عن ذلك المعنى ، ويراد به ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرهما ، أو ما يتوصل به إلى ذلك كالمكاسب والزراعات والصنايع ، هذه الآية لتكثير الرزق يكتب يوم الجمعة بعد فراغ الناس من صلاتها وتجعل فى البيت والحانوت أو مكان يسكن يكثر رزقه .

( قليلاً ما تشْكُرونَ ) فيه ما مر فى قليلا ما تذكرون ، والقلة على ظاهرها ، فإنه قد يصدر التذكر والشكر ، ولو من منافق ومشرك مثبت لله ، فإن من الشكر ذكر النعمة ، وأنها من الله تعظيما له تعالى ، ولو كان لا ينفعهما ، وإن قلنا الخطاب للناس فغير خفى أن الشاكرين قليل ، فالشكر قليل ، ولك أن تقول : القلة بمعنى النفى ، وأن الخطاب للمشركين والمنافقين ، وأن الشكر المنفى والشكر التام وهو استعمال القلب والجوارح فى الطاعة وصرفها عن المعصية .

( ولَقَدْ خَلَقْنَاكُم ثمَّ صوَّرْنَاكُم ) أى خلقناكم فى آدم ، ثم صورناكم فى بطون الأمهات ، أو حكمنا بخلقكم ثم صورناكم فى البطون ، أو صورناكم بمعنى أوجدناكم ، وكل جسم يستلزم صورته ، أو خلقنا آباءكم أولا ، ثم صورناكم ثانيا ، وبه قال ابن عباس وقتادة والضحاك والربيع بن أنس ، وثم فى ذلك كله للترتيب والمهلة ، أو خلقناكم فى البطون ، أو صورناكم فيها فهى على أصلها من الترتيب والمهلة إذا أريد بالتصوير تصوير الأعضاء ، وإلا فهى بمعنى الواو أو ترتيب الأخبار بلا مهلة .

( ثم قُلْنَا للملائِكة اسْجدُوا لآدَم ) ثم هذه لترتيب الأخبار بلا مهلة ، ويجوز أن يكون فى الموضعين لترتيب الأخبار مع مهلة معنوية ، فإن التصوير بصور حسان ، وتفضيل آدم على الملائكة بالإسجاد له ، أمران عاليان علو شأن ، أو خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ، ثم صورناه فحذف المضاف من الأول ، ولم يراع فى الثانى ، ولو روعى لقيل ثم صورناه ، أو جعل خلقه وتصويره خلقا وتصويرا لنا ، لأنه مشتمل علينا ، أو ابتدأنا خلقكم ، ثم تصويركم بخلق آدم وتصويره ، فثم على هذه الأوجه على أصلها من الترتيب والمهلة .

وعن مجاهد : خلقناكم فى صلب آدم ، ثم صورناكم أمثال الذر ، وبعد ذلك أمر بالسجود ، فثم على أصلها ، وقال الأخفش : ثم فى هذه الآية بمعنى الواو ، وقال عكرمة : خلقناكم فى ظهور الآباء ، وصورناكم فى بطون الأمهات ، فثم الأولى على أصلها والثانية بمعنى الواو ، أو لترتيب الأخبار ، وهذا السجود بمعنى التعظيم والتحية ، وقيل : سجود حقيق لله كان إلى جهة آدم تعظيما له كالكعبة ، وقيل : سجود حقيق لآدم كان بأمر الله ، وأمر به جميع الملائكة ، وقيل : بعضهم ، وقرأ أبو

جعفر بن القعقاع : بضم تاء الملائكة ، ووجهها عنـدى التبعية لجيم اسجدوا ، وأن السين كأنه غير فاصل لسكونه ، كما قرأ بعض الحمد لله بكسر الدال تبعا للام ، ومعنى التبعية هنا جعل الأول موافقا للثانى ، وقيل وجهها نقل ضمة همزة اسجدوا إلى التاء ، ويرده أنها همزة وصل لا تثبت فى الدرج فضلا عن أن تحرك وتنقل حركتها .

( فسَجدُوا إلا إبليسَ ) اسـتثناء منقطع ، فإن إبليس ليس ملك ، ولكن قد أمر بالسجود ، وقد زعم بعض أصحابنا أن من قال إبليس مَلكاً أشرك ، وعن بعض أن الاستثناء متصل ، والإلزام أنه لـم يؤمر بالسجود ، وأجيب بأنه أمر بغير اسجدوا المذكور ، ووجه كونه متصلا أنه مَلَك عند هذا البعض ، أو أنه مقدر الذكر قبل ، فالأصل : وإذ قلنا للملائكة وإبليس ، أو أنه كأنه منهم لكونـه معمورا فيهم متعبدا بمـا تعبدوا فيه فشمله الأمر ، ولو لم يكن فيهم فإنه من نار وهم من نور ، وقيل : هو ملك من ملائكة تسمى الجن وقوله : ( لم يكُن مِنَ السَّاجِدينَ ) تأكيد لعدم سجوده وزيادة ذم له .

( قَالَ ) الله بواسطة ملك أو خلق كلاما ( مَا مَنَعك ) استفهام توبيخ ، ويترتب عليه إظهار عناده وكفره وكبره ، وافتخاره بأصله إذ أجاب ( ألا تَسْجد ) لا صلة منبهة على أن السجود متأكد عليه ومتحقق ، فكأنه قيل : ما منعك أن تحقق السجود ، وقد كان عليك حقا لازما ؟ وأن الموبخ عليه ترك السجود ، ويقدر حرف الجر قبل أن ، أى مِنْ أن لا تسجد ، أو عن لا تسجد ، أو لا يقدر لأن منع قد يتعدى لاثنين ، فمصدر تسجد هو الثانى ، وقيل : ضمن منع معنى اضطر فتقدر إلى ، وتكون لا نافية ، أى ما اضطرك إلى أن لا تسجد ، وقيل : تقدر ما منعك من السجود وأحوجك إلى أن لا تسجد ، أو اضطرك إلى أن لا تسجد ،

أو حملك على أن لا تسجد ، أو نحو ذلك ، وقيل : ضمن ما منعك معنى من أمرك ، ويوضح زيادتها إساقطها فيما منعك أن تسجد .

( إذ أمرْتُكَ ) بالسجود متعلق بمنع أو بتسجد ، والآيــة دليل واضح على أن الأمر للوجوب والفور ما لم تصرفه قرينة ، وذلك أنــه سبحانه وتعالى قطع عذره ــ أبعده الله ــ بعدم امتثال مجرد الأمر ، ولولا أنه للوجوب ما قطع عذره حتى يخبره بالوجوب ، إلا إن قيل : أما التوبيخ فيكون لترك ما ينبغى ، كما يكون لترك الواجب ، وأما الطرد والإبعاد واللعنة والإهباط فى الآية وغيرها فلاستكباره ، لا لمجرد عدم امتثاله ، ثم تعين هذا عندى بالفاء ، ولو كان السجود عليه واجبا لدليل خارج ، وأيضا قد علم الله منه إباءه من السجود فى الفور والتراخى ، هذا أوضح ما ظهر لى أن يجيب به من قال : ليس الأمر للوجوب والفور .

( قالَ أنا خَيرٌ منْهُ ) جواب لم يطابق أسلوب السؤال ، والذى يطابقه أن يقول مثلا : منعنى أنى خير منه ، أو المانع أنى خير منه ، وعدل عن ذلك إلى ما قال ميلا عن التصريح فى الجواب إلى الكناية عنه بأن استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم ، وعلى علة الفضل ، فيعلم الجواب وزيادة وهى استبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثل آدم وإنما يكون ذلك طبقا لسؤال أيكما أخير من صاحبه ، وقد قيل : إنه جواب أحمق .

( خَلقْتَنى مِن نارٍ وخَلقْتَهُ مِنْ طينٍ ) بيان لعلة خيريته ، وذلك أن النار أقوى من الطين ، وأنها مضيئة وصاعدة خفيفة متحركة ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه قال : لا أسجد ، قال : أنا خير منه ، وأكبر سنا ، وأقوى خلقا ، وليس مجرد كبر السن بموجب فضلا ،

وخفى عنه ، أبعده الله ، أن النار والتراب سواء ، فإنهما مخلوقان لله تعالى لا عقل لهما ، قيل : وهما جمادان ، وإطلاق الجماد على النار بمعنى أنها غير حيوان ، وإلا فهى تنمو كالنبات وتتحرك .

وهو أول من سن التكبر ، وأول من قال بالحسن والقبح العقليين ، والحق أنه لا تحسين ولا تقبيح للعقل مع ورود الشرع ، وأول من قاس قياسا فاسدا رأى الفضل كله باعتبار الأصل المخلوق منه ، وغفل عما يكون باعتبار الخالق ، فإن الله خلق بيده أى بلا واسطة ، وعما يكون باعتبار الصورة كما قال : « ونفخت فيه من روحى » وقصر نظره على المبدأ ولم يدر ما تصير إليه الغاية ، فإنه يكون أعلم من الملائكة كما قال الله سبحانه ، وله خواص ليست لغيره ومعتمد إلا من خواتمه مع أن قياسه فاسد ، فإن الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع التى هى من طبع النار مرجوحة ناقصة ، وبها وقع فى الهلاك بخلاف الثقل والثبات والتواضع التى هى من طبع التراب فإنها راجحة حسنة ، وبها فاز آدم فثبت للتوبة والرجوع إلى الحق وسؤال المغفرة ومن تواضع لله رفعه الله ومن لم يتواضع خفضه الله والفضل إنما هو بالطاعة .

قال الحسن وابن سيرين : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس ، قال الطبرى : يعنيان القياس الفاسد ، ولم ينكر القياس ، قيل : ذهب عنه ، لعنه الله ، أن الروح الذى نفخ فى آدم ليس من طين ، قلت فيه : إنه خلق فيه الروح كما خلقه فى آدم ، نعم الروح الذى فى آدم روح شريف كما أضافه الله عز وجل لنفسه تعظيما له ، بخلاف روح إبليس فإنها خبيثة ، وغفل عما فى النار من الأضرار ، فإنها محرقة مفسدة ، فترى طبع الشياطين الفساد ، وكفر إبليس قيل : كان جهلا لسلب العلم عنه فى ذلك الوقت ، وقيل : كان عنادا وهو الصحيح عندى .

وقال الثلاثى : إنه بعيد ولو كان جائزا ، والآية دليل حدوث الوجود ، ودليل فساد الموجود ، أعنى فساده بالفناء والعدم ، ودليل على وجود الشياطين والجن ، وأنها أجسام ، ففيها رد على الزنادقة المنكرة لوجودهم ، وإضافة الإنسان إلى الطين ، والشيطان إلى النار ، باعتبار الجــزء الغالب ، وإلا فقد تركبا من الطبائع الأربع ، وتركب آدم عليه السلام من نفس الماء •

( قالَ فاهْبِطْ مِنْها ) من الجنة أو من السماء ، وكلٌ منهما مكان للمطيعين المتواضعين إلى الأرض التى هى مقر العاصين ، وذلك إمــا أن يكون فى الجنة بعد الامتناع من السجود ، فأمر بالهبوط إلى الأرض ، أو فى السماء ، فأمر كذلك ، أو كان فيها فأهبط إلى السماء ، وعلى كل حال كان بعد ذلك يدخل السموات ، ولذلك توصل إلى دخول الجنة فى فم الحية حتى وسوس حواء وآدم ، وعلى أنه هبط منها إلى السماء قد أهبط من السماء أيضا إلى الأرض ، قيل : ولم يمنع دخول السماء حتى بعث نبينا صلى الله عليــه وســلم ، وهــذه الفاء كالنص فى أن موجب الإهباط كبره وجوابه بأنه أفضل •

( فَما يكُون لكَ أنْ تَتكبَّر فيها ) وهذه الفاء مؤكدة للأولى فى السببية الموجبة للإهباط ، أو الأولى لمجرد العطف والترتيب ، والثانية للسببية المذكورة والتكبر ، كما لا يصح له فيها لا يصح فى غيرها ، لكنه فيها قبح ولم يخلقها لسكون المتكبر بخلاف الأرض ، فخلقها ليســكنها المتكبر والمتواضع ، فلم يصح له أن يكون فيها على كبره •

( فاخْرُجْ ) لتكبرك ( إنَّكَ مِنَ الصَّاغرينَ ) أهل الهوان والذل عند الله وأوليائه ، وهذه الفاء سببية لتكبره المفيد له ما قبلها ، كأنه قال :

فما يكون لك أن تتكبر فيها وقد تكبرت فاخرج ، وجملة إنك الخ تعليل أى لأنك من الصاغرين لتكبرك ، أو مستأنفة ذماً لـه لكبره ، استكبر فابتلى بالذل ، وهذه سنة الله فى خلقه على طول الدهور أن يذل المتكبر ، ومع مشاهدة ذلك لم يزدجر عنه الناس ، قيل : كان لـه ملك الأرض فأخرج منها إلى البحر المحيط ، فهو فى جزائره ، وقيل : فى مائه لا يدخل الأرض إلا خائفا كهيئة السارق عليه ثياب رثة يروع حتى يخرج ، وأما الشيطان فى نحو : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فجنس الشياطين ، ولكل إنسان شيطان ، يضله أو المراد إبليس أى من كيده ، فإن الكيد منه ، ولو جاء بواسطة شيطان أو غيره .

( قالَ أنْظِرنى ) أخرّنى لأتمنى ( إلى يَوم يُبعثُون ) يبعث الناس من قبورهم ، طمع أن لا يموت إذ علم أن الموت ينقطع بعد البعث ، وقد علم أن لا بقاء لأحد ، ولكنه كره الموت وأراد كثرة الإغواء للناس ، وخاف تعجيل العقوبة ، ويحتمل أن يريد بيوم يبعثون الوقت الواسع الذى أوله نفخة الموت ، وهو يوم لا انتهاء له ، يموت الخلق أوله ثم يبعثون فيه ، فلما كان البعث فيه قال : « يوم يبعثون » فيكون سأل الإنظار إلى تلك النفخة ، وجملة يبعثون نعت يوم ، والعائد محذوف ، أى فيه ، ومضاف إليها إن لم ينون يوم .

( قالَ إنَّك مِنَ المنْظَرينَ ) المؤخّرين إلى يوم الوقت المعلوم وهو النفخة الأولى ، وقد علم إبليس ذلك ، وقيل : لم يعلم ، تركه الله فى عماء الجهل ليغم ما عاش ، وقيل : الوقت المعلوم يوم بدر ، فإن الملائكة قتلته فيه ، وروى فى هذا أثر ضعيف ، والصحيح الأول ، وعليه الأكثر ، وإنما أجابه إلى الإنظار ابتلاء للعباد ، وتعريضا للثواب بمخالفته ، وإن قلت : ما وجه قوله : « من المنظرين » ولا أحد ينظر سواه ؟

قلت : وجهه أن الملائكة وعيسى وإدريس والخضر وإلياس ينظرون ، وأن المعنى من الذين أطيلت أعمارهم كنوح ولقمان وغيرهما ، ولو تفاوت الطول والآخر ، أو أن المعنى من مطلق المؤخرين إلى النفخة المذكورة وهم من ينفخ عليه ممن يخلق آخر الزمان ويحضر النفخة .

( قالَ فَبِما أغْويتَنِي ) الباء للقسم والجواب ( لأقعُدنّ لهم ) للناس ، وما مصدرية ، أى فبإغوائك إياى ، او اسم موصول واقعة على الإغواء ، فبالإغواء الذى أغويتنيه ، وإنما أقسم بالإغواء ، لأنه تكليف ، والتكليف من أحسن أفعال الله لكونه تعريضا لسعادة الأبد ، فكان جديراً بأن يقسم به ، أو الباء للتعليل متعلقة بفعل القسم المحذوف مع المقسم به ، أى أقسم الله لإغوائك إياى أو للإغواء الذى أغويته ، وإنما لم تعلق بأقعد لأن للام جواب القسم الصدر .

والمراد أنى أجتهد فى إغوائهم لإغوائك إياى بواسطتهم حتى يفسدوا كما فسدت ، ويسموا غواة كما سميت غاوياً لارتكابهم الغى ، وأزينه لهم ، وألزمهم بفعل ما غويت لأجله وهو المعصية والكبر ، فيفسدوا بى كما فسدت بهم ، وقيل ما استفهامية ثبت ألفها مع حرف الجر شذوذاً ، بل على لغة ضعيفة ، فيعلق بأغويتنى ، فقوله : « لأقعدن » مستأنف بقسمة المقدر ، والإغواء الإضلال مطلقا ، وفسره الحسن باللعن ، وبعض بالتخييب ، وبعضهم بالإهلاك ، وأصل الغواية الفساد ، يقال غوى الفصيل إذا بشم ، والبشم فساد ، وغوى انقطع عنه اللبن فمات ، وغوى فلان مرض .

( صِراطَكَ المسْتقِيمَ ) النصب على الظرفية أى فى صراطك المستقيم ، لأنه غير مخصص فهو مبهم ، لأن المراد به أنواع الخير

كالإيمان والصلاة والصوم والزكاة ، أو منصوب على نزع فى ، ويحتمل الوجهين قوله :

لدن بهز الكف يعسل متنه
فيه كما عسل الطريق الثعلب

أى هو رمح لدن أى لين يعسل أى يضطرب بهز الكف متنه ، أى ظهر ذلك الرمح فيه أى فى الكف مذكر كما يؤنث ، وتأنيثه أولى ، كما عسل أى اضطرب الثعلب فى الطريق ، ويحتمل الأوجه قولهم : ضرب زيد الظهر والبطن بنصب الظهر والبطن والباء للمفعول ، وقيل : الآية على تقدير على أى على صراطك المستقيم ، وإنما سمى أنواع الخير صراطاً أى طريقا لأنها توصل إلى الجنة ورضا الله ، فكان يقعد لهم يصدهم عنها بالوسوسة وتزيين المعصية والشهاوى ، قال الحسن : ليس من هذا الخلق شىء إلا وقد توجه حيث وجه ، ولولا قعود الشيطان لابن آدم على الطريق لتوجه كما توجه سائر الخلق .

وقيل الصراط المستقيم التوحيد ، وقيل : طريق مكة يمنعهم من الهجرة ، وبه قال عون بن عبد الله ووصفه بالاستقامة ، لأن الهجرة سبب الفلاح ، وقيل : طريق الحج والصحيح التعميم وفى الحديث : « يقول الشيطان للإنسان أتسلم وتذر دين آبائك فيعصيه ويسلم فيقول لتهاجر وتذر أرضك ، » وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول ، يعنى ما يتحمل إلا ما يتحمل الفرس فى شوط ثم يعجز ويندم فيعصيه ، فيهاجر ويقول : أتجاهد بنفس ومال فتقتل وتنكح المرأة ، ويقسم المال فيجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان

حقا على الله أن يدخله الجنة » وفى رواية : « لتهاجر فتدع أهلك وبلدك وتجاهد فتقتل وتترك ولدك » •

**حكاية** : ذكرت المجبرة عن طاووس أنه كان فى المسجد الحرام ، فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمى بالقدر ، فجلس إليه ، قال له طاووس : تقوم أو نقوم ، فقام الرجل فقيل له : أتقول هذا لرجل فقيه ؟ فقال : إبليس أفقه منه ، قال : « رب بما أغويتنى » وهذا يقول : أنا أغـوى نفسى ، يعنى فيما قالت المجبرة تصويب قول إبليس أن الله أغواه وأنه أجبره على الغواية ، وتخطئة الرجل فى قوله : إنى أغوى نفسى ، وليس بشىء لجواز أن يريد إبليس أن الله أغواه باختياره لا جبراً وهو الحق ، وإن يريد الرجل أغوى نفسى باكتسابى واختيارى ، وخالق الغواية الله وهو الحق ، وعن محمد بن كعب القرظى فيما حكى الطبرى : قاتل الله القدرية لإبليس أعلم بالله منهم ، يريد أنه علم أن الله يهدى ويضل •

( ثـُم لآتينـَّهم مِن بين أيدِيهم ومِنْ خَلفِهم وعَنْ أيمانِهِم وعَنْ شـَمائِلهِم ) الذى عندى أنه ليس المراد بجهة من هذه الجهات شىء مخصوص ، وأن ذلك مجاز مركب ويسمى استعارة تمثيلية ، شبه الشيطان فى اجتهاده فى الإغواء من أى وجه أمكن ، بإتيان العدو مـن الجهات الأربع التى يأتى منها فى الغالب ، فلـم يذكر الفـوق والتحت لندور إتيان العدو منهما ، ولأن الإتيان من تحت موحش ، وعن ابن عباس وقتادة : لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ، ولم يجعل الله له سبيلا ، إلى أن يحول بينه وبين رحمة الله وعفوه ومنّه •

وعدى أتى إلى بين أيديهم وإلى خلف بمن ، لأن من أتى من قدام أو خلف مبتدأ المجىء من قدام أو خلف متوجه إلى مأتيه ، وعـداه إلى

الإيمان والشمائل بعن ، لأن من أتى عن يمين وشمال كمتجاوز مأتيه منحرفا عنه .

وقال ابن عباس وقتادة : من بين أيديهم : من قبل الآخرة أصدهم عنها ، وأشككهم فيها ، وعبر عنها بذلك لأنهم متوجهون إليها ، ومن خلفهم : من قبل الدنيا يرغبم فيها ، وعبر عنها بذلك ، لأنهم منقلبون عنها إلى الآخرة فهى مخلفة وراء الظهر ، وعن أيمانهم : من حسناتهم ، وعن شمائلهم : من سيئاتهم كيف تثابون ذلك الثواب العظيم على هذه الأفعال اليسيرة ، ويعاقبون ذلك العقاب العظيم على هذه الأفعال الهينة ، ويصدهم عن الحسنات ، ويغريهم بالسيئات ، وعنه : عن أيمانهم الحق ، وعن شمائلهم الباطل ، ومن بين أيديهم وخلفهم ما مر عنه .

وروى عنه من بين أيديهم من قبل الآخرة يشككهم فيها ، ومن خلفهم الدنيا يرغب فيها ، وعن أيمانهم يشبه عليهم أمر دينهم ، وعن شمائلهم يشهى لهم المعاصى ، وعنه : من بين أيديهم من الدنيا بالتريين وعبر عنها بذلك لأنها حاضرة يسعى فيها ، ومن خلفهم من الآخرة يقول : لا بعث ولا جنة ولا نار ، وعبر عنها بذلك لأنها غائبة كالشىء خلف الظهر ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم حسناتهم وسيئاتهم .

وقال مجاهد : من بين أيديهم وعن أيمانهم حيث يبصرون ، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون ، ويجوز أن يكون من بين أيديهم من حيث يعلمون ، ويقدرون على التحرز ، ومن خلفهم حيث لا يعلمون ولا يقدرون ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ، لكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم ، وقيل : من بين أيديهم فيما بقى من أعمارهم ولا يطيعون فيه ، ومن خلفهم ما مضى

منها فلا يتوبون مما فعلوا ، وعن أيمانهم مـن الغنى فلا ينفقـون ولا يشكرون ، وعن شمائلهم من الفقر يخوفهم به فيأخذون من غير حل ويمنعون بغير حل .

قال شقيق البلخى : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد : من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، أما من بين يدى فيقول : لا تخف فان الله غفور رحيم ، فأقرأ : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً » وأما من خلفى فيخوفنى الفقر فى أولادى فأقرأ : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » وأما من يمينى ، فيأتينى من قبل الثناء فأقرأ : « والعاقبة للمتقين » وأما من شمالى فيأتينى من قبل الشـهوات فأقرأ : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » حكـاه جار الله .

( ولا تَجِدُ أكثَرهُم شاكِرينَ ) لنعمك بالإيمان والطاعة ، وقال ابن عباس : لا تجد أكثرهم مؤمنين ، وإنما يسـتكمل المؤمن ، وعنـه موحدين ، وإنما قال إبليس ذلك ظنا كما قال الله سبحانه : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه » وذلك أنه رآى فيهم ميل الشر متعدداً وهو الشيطان والنفس والهوى ، وميل الخير واحداً وهو ملك الإلهام أو رآى خلقته من أشياء مختلفة ، فعلم أنهم تكون لهم شيم تمنع الشكر كالغل والحسد والشهوات ، وقيل : سمع ذلك من الملائكة ، وقيل : رآه فى اللوح المحفوظ فقاله على القطع ، وقد كان الأمر كذلك كما جاء فى الحديث : « أن واحداً من الألف إلى الجنة والباقى إلى النار » وتحسب فى ذلك الأمم كلها كيأجوج ومأجوج وهن كثيرة جداً ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم بالأمم إلا كشعرة بيضاء فى الثور الأسود » والمراد شعرة واحدة ، فالأمة مثلها ، وباقى الأمم مثل باقى الشعر ، وقيل هذا بعيد ، والمناسب جنس

الشعرة البيضاء أى هم كشعر بيض قليل متفرق فى الثور الأسود ؛ لأن كل مسلم بتسعمائة وتسعة وتسعين كافراً . ويحتمل أن يريد لمعة شعر أبيض فى ثور أسود وهو بعيد .

( قال اخْرُجْ مِنها مَذْءوماً ) أى مذموما أو مطرودا أو مخزيا من ذامه بهمزة مفتوحة فى الماضى والمضارع أى ذمه وطرده وخزاه ، وقيل مذءوماً معيبا ومنه المثل : « لن تعدم الحسناء ذأماً » أى عيبا ، وقيل : الذأم أشد العيب ، وقرأ الزهرى وأبو جعفر والأعمش مذوم بضم الدال وحذف الهمزة بعد نقل ضمها للذال ، وذلك تخفيف أو من ذام يذام بقلب الهمزة ألفا ، أو من ذامه بالألف يذيمه بالياء كباع يبيع فهو مذموم كما يقال فى مكيل من الكيل مكول ، وكان القياس على هذا مذيم كمبيع ومكيل ، والمعنى كله واحد ذم أو عيب ، وقيل : إنما قرأ هؤلاء بتسهيل الهمزة لا همزة محضة ولا واو محضة .

( مدْحُوراً ) قيل : مطرودا مبعدا ، وقال ابن عباس : مصغراً ممقوتاً ، وقال قتادة : ملعوناً ممقوتاً ، وقال الكلبى : ملوما مبعداً من الجنة وكل خير .

( لَمَنْ تَبَعكَ مِنْهم ) اللام للابتداء والتوطئة للقسم ، ومن موصولة مبتدأ خبره محذوف ، أى أعذبه بالرفع ، أو شرطية جوابها محذوف ، أى أعذبه بالرفع أو الجزم ، ولما حذف الخبر أو الجواب ناب عنه قوله :

( لأملأنَّ جَهنَّم مِنكُم أجْمعينَ ) مع قسمه المحذوف ، أى والله لأملأنَّ ، ويجوز أن يكون القسم وجوابه خبرا للمبتدأ ، أو ليقدر

الخبر قولا ، أى مقول فيه والله لأملأنّ الخ ، وأما أن يكونا جوابا فلا ، لعدم الفاء ، إلا إن بنيا على ما قد ورد مـن حذفها فى كلام العـرب ، والأصـل لأملأنّ جهنم منهم ومنك ، فغلب الخطـاب فقيل : منكم ، ويجوز تقدير محذوف أى لمن تبعك منهم ومن ذريتك ، أو منهم ومن الجن تقول املأ البلد بهذا مشيرا إلى شىء تريده فيمتلىء به ، أو إلى مقدار يمتلىء به وحده فافهم •

وقرأ عاصم قيل والأعمش بكسر لام لمن متعلق باخرج تعليلا له ، أو بمحذوف خبر ومجموع القسم وجوابه مبتدأ نظرا إلى أن المعنى الوعيد الذى هو الإملاء لمن تبعك ، أو بمحذوف خبر لمحذوف دل عليه جواب القسم ، وأما أن يجعل جواب القسم وحده مبتدأ فلا ، لأن جواب القسم لا محالة ، والمبتدأ محله الرفع •

( ويا آدم ) أى وقال الله بعد هبوط إبليس يا آدم ( اسْكُن ) أى دم على السكون ، وهكذا من أمر بشىء وهو منسوبه ، وقيل إنه قيل له ذلك قبل دخول الجنة ، وبعد خلق حواء ، ويحتمل أنها خلقت بعد الدخول ، فيكون الخطاب عـلى هذا القـول للموجود والمعـدوم وهـو بعيد ( أنْتَ وزوْجُكَ ) حواء ( الجنّةَ فَكلا مِنْ حيثُ شِئتُما ) وقال فى البقرة : « وكلا » بالواو ، فالمعنى على الواو مطاق الأكل ، وعـلى الفاء الأكل المترتب على السكون الأول جنس ، والثانى نوع ولا منافاة بين النوع أو الجنس •

( ولا تَقْربا هذِه الشَّجرةَ ) لا تأكلا منها ، فنهاهما عن قربها مبلغة ، والمراد بالشجرة نوع من الشجر ، وذلك النوع الحنطة أو غيرها على ما مر ، تقول : أصاب الناس الدينار والدرهم ، تريد الدنانير والدراهم ،

وقيل : شجرة واحدة معينة ، وليس فى الجنة سواها من نوعها وهو المتبادر إلى الأفهام ، وأخطأ من قال : إن آدم ظن أن النهى متعلق بشجرة واحدة معينة ، فأكل من النوع فلم يعذر ، ووجه خطئه أنه إنما أكل ليكون ملكا أو خالدا ، فكيف يطلب الملكية والخلود بالأكل من غير ما كان النهى عن الأكل منه ، لئلا يكون ملكا أو خالدا إلا أن يقال : أراد هذا القائل أنه أسير إلى النوع فى ضمن فرد ، فتساهل فى غير الفرد ، وهاء هذه بدل من الياء لتصغيره على ذيا ، وقرأ ابن محيصن هذه الشجرة بالياء على الأصل ( فَتَكُونا ) بالنصب فى جواب النهى قيل ، أو بالجزم عطفا على تقربا وهو ضعيف من جهة المعنى .

( مِنْ الظَّالمينَ ) لأنفسهم بالذنوب ، فصل الأشياء قبل ورود الشرع حكمها عندنا وعند معتزلة بغداد وابن أبى هريرة على الحصر أى المنع والتحريم ، وعند الشيخ أبى يحيى زكريا بن أبى بكر ومعتزلة البصرة وطائفة من الحنفية والشافعية على الإباحة ، واختاره الإمام أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم ، وعند الأشعرى على الوقف ، وذكر الثعالبى أنه إذا نزلت نازلة لم توجد فى كتاب الله ولا فى سنة نبيه ولا فى الإجماع ، فبعض يحملها على الإباحة ، لأن الله قد بين ما حرم فلم يكن ليدع محرما ، ويخفى علينا تحريمه ، وبعض يحملها على الحضر استبراء كيف تقدم على الإباحة بلا نص ، وقد نص الله على أشياء فحللها ، ولم يذكر تحليل النازلة .

وبعض قال بالوقف عن حكم الله فيها ما هو ، وبالنظر فيها ، القياس وهو الصحيح ، والعقل يحسن ويقبح عند عدم الشرع عندنا وعند المعتزلة إلا قليلا منهم ، قالوا نفرض زمانا لا شرع فيه ، أو رجلا نشأ فى موضع لم تبلغه الأحكام من أمر ونهى ، أو نقدر آدم بعد هبوطه

إلى الأرض قد ترك وعقله قبل أن يؤمر وينهى ، قال بعض : يستحسن العقل حظر الأشياء عن ذلك حتى ترد الإباحة ، لأن استباحتها تعد فى ملك الغير ، وذلك قبيح فى حق المخلوق ، فكيف فى حق الله الذى هو أعظم حرمة ، واستثنى بعضهم التنفس والحركة .

وقيل : يحسن العقل إباحتها ، لأن التحكم فى ملك الغير بوجه لا ضرر فيه كالاستغلال بالحدرات مباح ، فهو فى ملك الله أشد إباحة لأنا عبيده ، ولعظم جوده ، ولا يلحقه شىء من ذلك .

قات المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية : لا يحسن العقل ولا يقبح ، وعن بعضهم أن آدم قد توجهت عليه الأوامر والنواهى بعد الهبوط وقبله ، فانه لما جرى الروح فى جسده عطس ، وأمر أن يقول : الحمد لله ، وقد قال له اسكن ، وكُلْ ولا تقرب ، قال فى السؤالات : خلق الله آدم بالغا صحيح العقل مكلفا للأمور منهيا ، وقيل : كلما ركب فيه جزء من العقل كلفه ما قابل ذلك الجزء ، وقيل : أبقيت له مهملة مثلنا .

( فوَسْوس لَهما الشّيطانُ ) الوسوسة من الشيطان إلقاء كلام فى قلب الإنسان أو الجن ، وأصل الوسوسة التكلم بخلاف خفى متشابه الصوت ، كأنه تكرير ، ومنه وسوس الحلى ، ويحتمل أن يكون تكلم لهما خفيــة سمعاه ، قيل : كانا يخرجان خارج الجنــة ، فتمكن إبليس منهما وهو الشيطان فى الآية ، وقيل : يقربان من الباب ، وقيل : دخل فى فم الحية مرة إلى الجنة ، وقيل : كان يدخل فى فمها إليها وضعف بعضهم القولين .

وقال الحسن : وسوس لهما من الأرض فى قلبيهما بالقوة التى جعلها

الله فيه ، وهو قول ضعيف ، يرده لفظ القرآن ، وقال أبو سلمة الأصبهانى : بل كان آدم وإبليس فى الجنة ، لأن هذه الجنة كانت بعض جنات الأرض ، وهو قول لا يكفى فى الجواب ، لأن الفرض أنه أخرج منها ، والكلام فى كيفية وسوسته لهما ، وقد فارقهما ، ومعنى وسوس لهما فعل الوسوسة لأجلهما ، ويجوز أن يكون اللام بمعنى إلى أى ألقاها إليهما فهما موسوس إليهما بفتح الواوات ، ولا يقال موسوسان ، كما يقال : زيد موسوس إليه ، أو موسوس له ، ولا يقال موسوس اللهم إلا على سبيل الحذف والإيصال .

( ليُبْدِىَ ) ليظهر ( لَهما ما ووُرِىَ ) ستر ( عنْهُما من سَوْآتهما ) عوراتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر ، سميت العورة سوأة لأن ظهورها يسوء الإنسان ، وفى ذلك دليل على أن كشف العورة ولو للنفس أو فى الخلوة أو للزوج من غير حاجة قبيح مستهجن فى الطباع ، وهو منكر للغير ، والظاهر أن اللام للصيرورة لا للتعليل ، لأنه ــ لعنه الله ــ لا يدرى أن عورتهما تنكشف بسبب وسوسته لهما وقبولهما لها ، فيقصد الانكشاف ، ويحتمل أن يكون قد علم بأنها تنكشف بقبول وسوسته ، أن ظن ذلك فتكون اللام للتعليل ، بأن قصد وسوستهما لتكشف عورتهما فيسوءهما ذلك ، ولذا عبر بالسوأة ، هذا تحرير المقام .

وذكر بعضهم : أنه يمكن أن تكون للتعليل بحسب قصد إبليس إلى حط مرتبتهما وإلقاءهما فى عقوبة غير مخصوصة ، وأقول : لا تكون للتعليل بقصده عقوبة غير مخصوصة ، إلا إن أراد عقوبات عامة ، فقد يصح التعليل ، ووزن ورى فوعل بضم الفاء وكسر العين ، وهو مفاعلة ليست على بابها إلا أن يعتبر ، إنما وارى شيئا قد واراه الشىء ما

خلفه مثلا ، وزعم قوم أن هذا من وراء بفتح الواو وهو خلف ، وهو قول ضعيف من حيث التصريف .

والمعنى فإن السوأة تشمل القبل والدبر ، ولم تقلب الواو همزة مع أنها مضمومة فى الأول بعدها واو ، وقد كان ذلك جائزا كما يقال فى تصغير واصل أو يصل بقلبها همزة ، وقلب ألف واصل واو ، لأن الثانية فى الآية مدة ، فقد قرأ ابن مسعود بقلبها همزة ، وقرأه الحسن ومجاهد من سوتهما بالإفراد ، وقلب الهمزة واواً ، وإدغام واو فى واو ، وحكى سيبويه أن هذا القلب والإدغام لغة ، وكذا قرأ أبو جعفر بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ، والزهرى لكن بالجمع ، وقرىء سوآتهما بنقل فتح الهمزة إلى الواو وحذف الهمزة .

( وقَالَ ما نهاكُما ربُّكما عَن هذِه الشَّجرة ) أى عن أكل ثمرها ( إلاَّ أنْ تكونَا مَلَكيْن ) وقرأ ابن عباس ويحيى بن أبى كثير والضحاك بكسر اللام ، ويؤيده قوله تعالى فى آية أخرى : « ومُلْكٍ لا يبلى » وتكون فى تأويل مصدر مفعول لأجله على حذف مضاف ، أى كراهة كونهما ملكين ، وقيل : هو على حذف لام التعليل ولن نافية ، أى لئلا تكونا ، والأول قول سيبويه والبصريين ، ورجح بأن إضمار الاسم أحسن من إضمار الحرف ، وبكثرة حذف المضاف ، وبقلة المحذوف فيه ، وزعم بعض إلا أن فى مثل ذلك بمعنى لئلا ، قيل : وفى تزيينه له الكون من الملائكة وقبوله ذلك التزيين دلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء ، وعليه جار الله .

والجواب أنه قيل : الملكية ، واختارها قبل أن يشرف بالنبوة ، وإنما كان ذلك قبل النبوة ، سلمنا أن ذلك بعد النبوة ، لكن اختار الملكية

لا لذاتها ، بل لطول العمر ، فإنهم على الصحيح لا يموتون إلا عند النفخة ، وليقدر على العبادة فوق قدرته ، وليستغنى عن الطعام والشراب والجماع ، وذلك لا يدل على أن الملائكة أفضل مطلقاً .

والحاصل أنه اختار هذه الخلل الشريفة فيكون بها ملكيا لا تبديل جسمه جسم ملك ، وإنما صح البحث لقبول آدم ذلك ، وإلا فما يفهم من قول إبليس من تفضيل الملك لا يعتبر لجواز كذبه ، بل هو كاذب ، وقد فسر بعضهم الغرور فى : « فدلاهما بغرور » بكذبه أن الملك أفضل ، ولكنه تفسير ضعيف ، وقد يقال : إن آدم لم يعرف حينئذ أن النبى أفضل والذى عندى أن الآدمى المطيع مطلقا أفضل من الملك ، لأنه ولو قلّت عبادته لكنها بمشقة لكثرة موانعها ، بخلاف الملك فعبادته ولو كثرت لكن لا مشقة عليهم وقد طبعوا طبع من لا يعصى ، ولأنهم خدم أهل الجنة .

( أو تَكُونا مِنَ الخَالِدِينَ ) فى الجنة ، وقيل : من الذين لا يموتون إلى النفخة ، أو لا يموتون أبدا كذبا منه أبعده الله ، فإن كل حى يموت إلا الحى الدائم سبحانه .

( وقَاسَمَها ) أى أشهدهما قسمة ، أى أقسم بحضرتهما ، فالمفاعلة ليست على بابها فإنه حلف وحده دونهما ، وقد قرىء : وأقسم لهما ، وإنما جىء بزنة المفاعلة تأكيداً لقسمه ، لأنه اجتهد فيها اجتهاد المقاسم ، ويجوز أن تكون على بابها ، بل نزل إصغاءهما لقسمه وقبولهما له منزلة قسم منهما ، أو قالا له : أتقسم بالله إنك لمن الناصحين ؟ فقال : أقسم بالله إنى لكما لمن الناصحين ، فجعل ذلك مقاسمة ، وقيل : أقسما له بالقبول ، وقرىء وقاسمهما بالله .

( إنِّى لكُما لمنَ النَّاصحِينَ ) اللام لام التقوية ، ومقواها

الناصحين بعدها ، على أن إلى فيه ليست موصولة ، بل حرف لتعريف الجنس كما ذكره مكى وغيره ، لأنها لو أبقيت على أنها موصولة ، وجعل مقواها ذلك لزم تقديم معمول الموصول على الصلة ، وهو لا يجوز خلافا للكوفيين مطلقا ، ولابن الحاجب فى صلة أل زاد كان المعمول كما هنا ، وعلى مذهبه ومذهب الكوفيين يجوز أن يكون مقواها ما بعد أل ، ومذهب ابن الحاجب واضح ، لكونها بصورة حرف لا صدر له ، ولكثرة ورود ما ظاهره أنه لا صدر لها بالنظر إلى معمول صلتها المجرور ، ومثله الظرف ، وقيل : مقواها مقدر قبلها ، أى ناصح لكما من الناصحين ، فيكون « من الناصحين » خبراً ثانيا لما حذف الأول نقلت إليه لام التأكيد لئلا يلتقى لامان ، وبهذا أقول لسلامته من ادعاء خروج أل عن الموصولية مع أنهـا فى وصف صريح ، ومن خروج الموصول عن تقدمه على معمول صلته ، ولأنه أبلغ فإنه أفاد أنه ناصح لهما خصوصـا ، وأنه معدود فى جملـة الناصحين على الإطلاق .

( فدَلاَّهما ) أنزلهما مـن علو إلى أسفل ( بغُرورٍ ) بكلام غـير صحيح متعلق بدلى ، أو بمحذوف حال من المستتر فيه ، أو من الهاء أو منهما ، أى ملتبسا أو ملتبسين بغرور ، شبه حالهم بحال من أنزل أحدا من مكان مرتفع جداً بحبل ضعيف بقدمه أو من أصله ، فإذا تدلى واستقبل بذلك الحبل انقطع وهلك ، وذلك أنه غرهما بكلامه وقسمه ، فأنزلهما من رتبهما الشريفة إلى هذه الدنيا المتعبة الموقعة فى المهالك وإلى المعصية ، فذلك استعارة تمثيلية ، ولا يكاد البلغاء يحملون الكلام على غيرها ما وجدوها ، هذا ما ظهر لى وهو أولى مـن أن تجعل دلى استعارة تبعية ، وبغرور ترشيحا أى بحبل غرور أو الغرور هو الحبل نفسه مبالغة فى ضعفه ، وعلى كل حال ، فالمعنى أنه خدعهما .

قال قتادة : إنما يخدع المؤمن بالله ، فإنهما ظنا أن لا يحلف أحد بالله كاذبا كما قالا حين عاتبهما الله ، وكان ابن عمر إذا رأى عبدا من عبيده مطيعا لله ومحسنا للصلاة أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلبا للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك ، فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له ، وقال لهما : إنى خلقت قبلكما ، وأنا أعلم منكما فاتبعانى أرشدكما .

( فلمَّا ذاقا الشَّجرةَ ) الفاء للاستئناف ، أو لعطف قصة على أخرى ، أو على محذوف أى اتبعاه ، فلما ذاقا الشجرة وهى شجرة الحنطة أو التين أو العنب كما مرّ ، والذوق الأكل اليسير قدر ما يجدان طعم المأكول وهو المراد بالأكل فى فأكلا منها ، وبه استوجبا العقوبة وهى ظهور عورتهما كما قال :

( بَدَتْ لَهما سَوْآتُهما ) ظهر لكل منهما قبله ودبر غيره وقبله ، بأن انتثر عنهما لباس الجنة ، وتمزق بالمعصية ، وهو حلة ، وقال وهب بن منبه : كان عليهما نور ستر عورتهما ، وقال ابن عباس وقتادة : كان لباسهما ظفراً فلما عصيا تقلص عنهما وانكشط ولم يبق منه إلا فيما فى الأصابع والبنان ، وإنما بقى ذلك ليتذكرا به المعصية ، فيجددان الندم والتوبة كلما رأياه .

( وطَفِقا ) شرعا ، وقرأ أبو السمال بفتح الفاء ( يخْصِفانِ ) يرقعان ( عليهما ) ورقة فوق ورقة ( مِنْ وَرَقِ الجنَّة ) ليصير كهيئة الثوب يستران به عورتهما ، بادرا بذلك بقبيح انكشاف العورة فى عقليهما ، فاعتبروا ذلك وهو ورق التين فيما قيل عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقرأ الحسن فيما روى عنه محبوب بتشديد الصاد ، والأصل يختصفان ، نقلت فتحة التاء للخاء وأبدلت صادا ، وأدغمت فى الصاد ،

وكذا روى عن عبد الله بن بريدة ويعقوب ، والمشهور عن الحسن كسر الخاء مع تشديد الصاد ، وبذلك قرأ الأعرج ومجاهد ، فالأصل يختصفان أيضا ، سكنت التاء وقلبت صادا وأدغمت ، وكسرت الخاء على أصل التخلص من التقاء الساكنين ، أو أصل الخاء الفتح بالنقل كما مر ، ثم انكسرت تبعا للصاد .

والمشهور عن عبد الله بن بريدة يخصفان بضم الياء وتشديد الصاد مكسورة وفتح الخاء بينهما من خصف ، فبالتشديد للمبالغة ، وإن قيل : للتعدية لغير واحد قدر يخصفان أنفسهما كما قدر فى قراءة الزهرى يخصفان بضم الياء وإسكان الخاء وتخفيف الصاد من أخصف .

وبعد فأقول : ما تقرر من أن الفعل لا يعمل فى ضميرين متصلين لمسمى واحد فى غير باب علم وظن وما ألحق بهما محله ما إذا لم يعمل فى أحدهما بواسطة حرف الجر ، وإلا جاز مطلقا لكثرته مثل يخصفان عليهما ، ويجره إليه ، وأمسك عليك ، وتأويل الكثير لا يحسن فلا حاجة إلى تقدير يخصفان على أنفسهما وأمسك على نفسك .

( وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ) نداء وحى بواسطة عند الجمهور ، وأن الكلام بلا واسطة مختص بموسى ، وقيل : بلا واسطة ، وتخصيص موسى بالنظر إلى من فى الأرض ، ووقع ذلك لآدم فى الجنة ، قال صلى الله عليه وسلم : « آدم نبى مكلم » لكن يحتمل أن يريد أنه مكلم بالواسطة ، ويؤيد قول الجمهور اشتراك حواء فى ذلك النداء ، ولم يرو قط أنه كلم حواء بلا واسطة .

( أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ) أى عن أكل ثمرها ، فى

هذه القصة دلالة على أن النهى المجرد عن القرينة للتحريم حيث عوقبا بمخالفته والاستفهام توبيخ لهما ( وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ) قال لهما : إنه عدو لكما فاحذراه ، وقال : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » قال عياض : وهذا هو العهد الذى نسيه آدم على قــول من يجعل النسيان على بابه ، وقد بانت لكما عداوته ، تركه الســجود حسداً ، وقد قيل : إن ظهورها كالقول ومبين من أبان المتعــدى ، أى مظهر لكما عداوته بترك السجود ، وإظهارها لحواء إنما هو بعلمها بتركه ، أو من اللازم أى ظاهر العداوة ، وقرأ أبى بن كعب : ألم تنهيا عن تلكما الشجرة ، وقيل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين .

ولكما حال من عدو ، وقال : يا آدم أما خلقتك بيدى ، أما نفخت فيك مــن روحى ، أما أســجدت لك ملائكتى ، أما أســكنتك جنتى فى جوارى . وعن أبى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن آدم عليه السلام كان يمشى فى الجنة كأنه نخلة سحوق فلما واقع المعصية وبدت له سوأته فر على وجهه ، وكان كثير شعر الرأس فأخذته شجرة متعرضة لهبشعرة واحدة » وفى رواية : « بشعر رأسه يقال إنها الزيتونة ، فقال لها ، أرسلينى ، قالت : ما أنا بمرسلتك ، فناداه ربه : يا آدم أمنى تفر ؟ قال : لا يا رب ولكن استحييتك » كذا روى الطبرى ، وزاد غيره عن أبى قال : « أما كان لك فيما منحتك من الجنة مندوحة عما حرمت عليك ؟ قال : بلى يا رب وعزتك ، لكن ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً ، قال : فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ، ثم لا تنال العيش إلا كذا » وأهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث ، فحرث وسقى ، وحصد ودرس ، وذرى وطحن وعجن ، وخبز وأكل ، ولم يبلغ إلى ذلك حتى بلغ من الجهد ما شاء الله .

قال ابن عباس : قيل لآدم لم أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها ؟ قال : حواء أمرتنى • وقد روى أنها قطعت وناولته ، قال : فإنى أعطيتها ألا تحمل إلا كرها ، ولا تضع إلا كرهـا ، فرنت فقيل لها : لك الرنـة ولبناتك ، وقيل : إنما رنت عند موت هابيل ، فقال آدم ذلك لها ، وروى أنه قال : يا آدم لم أكلت منها وقد نهيت عنها ؟ قال : أطعمتنى حواء ، قال لها : لم أطعمته ؟ قالت : أمرتنى الحية ، قال لها : لم أمرتها ؟ قالت : أمرنى إبليس ، قال تعالى : أما أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة تدمين كل شهر ، فذلك سبب الحيض ، وقيل : أول من حاضت امرأة من بنى إسرائيل لفجرة فجرتها ، ولعله انقطع بعد حواء وابتدأ بالإسرائيلية ، وأما أنت يا حية فأقطع أرجلك فتمشين على بطنك ، وكانت قبل ذلك ذات قوائم أربع كالبعير أحسن ما يكون ، وسيشدخ رأسك من لقيك ، وأما أنت يا إبليس فملعون مدحور •

( قَالا ربَّنا ظَلَمنا أنفُسَنا ) بالتعرض للإخـراج مـن الجنـة بالمعصية ، سميا الذنب الصغير ظلما ، مستوجبا للهلاك ، تعظيما لحق الله على عادة الأولياء والصالحين فى استعظام الصغير من السيئات ، واستصغار العظيم من الحسنات ، حتى أنه ليقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين تعديد لغير الذنب ذنبا ، فكيف بما هو ذنب كفعل آدم وحواء ، والأمر فى الحقيقة كذلك فى تعظيم الذنب الصغير نظرا إلى عظمة الله وتحريمه له ، ونهيه عنه •

وزعم بعضهم أن الأنبياء لا تصدر منهم الذنوب ، وإنما ورد عنهم ليس ذنب فى الحقيقة ، بل أمر لا يليق بدرجة النبوة صدر منهم على سبيل التأويل والسهو فعوقبوا عليه ، وسمى ذنبا بالنسبة إلى كمال طاعتهم وعمارة باطنهم بالوحى ، وأشفقوا أن يؤاخذوا بها نعم تنزههم

عن الكبائر ، وعن بعض أنهم يعملون الصغائر قبل النبوة لا بعدها ، وزعم بعضهم أنهم قد يعملون الكبير قبلها ، واختلف فى أكل آدم من الشجرة هل قبل النبوة أو بعدها ؟ وفى الآية دليل على أن الصغيرة قد يعاقب عليها من اجتنب الكبائر ، والأمر عندى كذلك يعاقب عليها فى الدنيا أو فى الآخرة بنحو تضييق القبر وتعذيبه ، وطول المقام فى المحشر ، ولا يدخل بها النار ، وقالت المعتزلة : لا تجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر .

( وإنْ لَم تغْفِرِ لنا ) ذنبنا ( وترْحَمنا ) تتفضل علينا برحمتك ( لنكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ ) الهالكين ، وذلك منهما اعتراف وتوبة وطلب للستر ، والتعمد بالرحمة ، وأما إبليس فطلب النظرة لا التوبة ، فوكل إلى رأيه قال قتادة : قال آدم : رب أرأيت إن تبت إليك واستغفرتك ؟ قال : إذن أدخلك الجنة . وأما إبليس فإنما سأله النظرة فأعطى كل منهما ما سأله ، قال الضحاك : هذه الآية هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه سبحانه .

( قالَ اهبْطُوا ) خطاب آدم وحواء عليهما السلام ، وإبليس أبعده الله ، وقال الطبرى وأبو صالح والسدى : هو لهم وللحية ولو لم تذكر ، وقيل : لآدم وحواء وذريتهما ، وقيل : لهما وذريتهما وإبليس وذريته ، وضعف القولان بأن الذرية لم توجد فى ذلك الوقت ، وبعد وجودها لا يتعلق بها الهبوط ، لأنها توجد فى الأرض ، بخلاف الأمر بنحو الصلاة لِمَ سيوجد فإنه إذا وجد مكث منه ، ويجاب بأن الذرية فى ضمن آدم وإبليس ، وهما مشتملان عليهما ، وإنما كرر الأمر لإبليس بالهبوط تبعاً ليعلم أنه وآدم وحواء قرناء فى العداوة أبدا ، فإن الذرية تابعة فى المعاداة ، قال القاضى : أو أخبر عما قال لهم مفرقا ،

قيل : مكث آدم وحواء فى الجنة نصف يوم من أيام الآخرة ، وهو خمسمائة عام من أعوام الدنيا ، وقال الحسن : ساعة من النهار وهى مائة سنة ، وقيل : مكثا ثلاثة وأربعين عاما من أعوام الدنيا ، وقيل : بعض يوم من أيام الدنيا وهو ساعة من يوم الجمعة ، وذكر بعض أن الطاووس خرج من الجنة أيضا ، وأن له سببا فى دخول إبليس الجنة وخروج آدم منها .

( بعضكم لبعضٍ عدوٌ ) الجملة حال مربوطة بالضمير وحده ، وذلك فصيح لا ضعف فيه على الصحيح ، ولو كان الربط به مع واو الحال أفصح وأقوى ، وعدو هنا مفرد لم يرد به الجماعة ، لأن المعنى الواحد معاد للآخر ، وسها من قال : إنه هنا بمعنى الجماعة ، وإن قلت : ليس آدم معاديا لحواء ، ولا حواء معادية له ، ولا ذريتهما معادية لهما ، ولا معاداة بين الحية وإبليس ؟

قلت : ليس المراد أن كل واحد عدو للآخر ، بل المراد أن العداوة ثابتة فى الجملة بين الأبعاض ، فإن آدم معاد لإبليس ، وحواء معادية له أيضا ، وهو معاد لها ومعادٍ له أيضا ، وآدم معاد للحية ، وحواء معادية لها أيضا ، والحية معادية له ولها أيضا ، وذلك حكم على المجموع ، وقد يوجه القول أن عدوًا هنا بمعنى الجماعة ، بأن الحال مقدرة ، وأن المعنى اهبطوا مقدرة العداوة بين ذريتكم ، والأولى ما ذكرته .

وهكذا أذكر مذهبى فى المعنى والإعراب وغيره ، وأذكر مذهب غيرى ، ولو شئت والحمد لله لفسرت القرآن كله بما يظهر لفكرى وأقتصر عليه ، فلا يرى من توغل فى المعقول والمنقول معا أحسن منه ، ولكنى أقصد الاحتياط ، فذكرت ما ظهر لى وما ظهر لغيرى ، وربما اقتصرت

على ما ظهر لغيرى لأكون من أهل الدرجة الوسطى فى التفسير ، فإن أهله ثلاثة أقسام :

الأول : من يغوص بفكره ويقتصر على قوله .

والثانى : من يذكر قوله وقول غيره .

والثالث : من يقتصر على قول غـيره ، ويسمى ناقلا .

أما نحن فمعادون إبليس وهو وأولاده معادون لنا فى أمر الدنيـا والآخرة ، حتى أنهم ليسرهم عثرة يعثرها المؤمن ، أو شوكة يشاكها حنقاً عليه وطمعا أن يسخط قدر الله أو يحزن فيشتغل عن العبادة ، وأما الحية فقد قال صلى الله عليه وسلم فيهن : « ما سالمناهم منذ حاربناهم » وقال ابن عمر : من تركهن فليس منا ، قال بعضهم لا تقدر على آدمى إلا لدغته ، ولا يقـدر عليها الآدمى إلا شـدخ رأسـها .

قالت عائشة : من ترك حية خشية من ثأرها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وروى ذلك حديثا ، وقد روى أن من قتل حية كمن قتل كافراً ، وذكر بعضهم أن من قتلها أو عقربا كمن قتل كافراً ، وذلك فى الحل والحرم ، بل أقول قتلها فى الحرم أوجب وأعظم أجراً ولو لم تتعرض لأحد ، ولم يرد فيهن استثناء إلا ما ورد أن جنا بالمدينة أسلموا ، فمن رأى من هذه الحيات شيئا فى بيته فليخرج عليه ثلاثا ، فإن رآه بعد ذلك فليقتله فإنما هو كافر ، رواه الشيخ هود رحمه الله والثعالبى مرفوعا ، وذكر بعض أن الحية فمها مسخ من ذرية إبليس .

( ولكُم فى الأرض مُستقرٌ ) أى استقرار ، فهو مصدر ميمى أو موضع تستقرون فيه ، فهو اسم مكان ، والمراد ذلك فى زمان الحياة

عند أبى العالية ، وفى القبر عند ابن عباس ، ولا مانع من القول ذلك كله كما قال الله سبحانه : « ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا » .

( ومَتاع" ) تمتع وانتفاع ، أو ما تتمتعون وتنتفعون به ( إلى حينٍ ) هو وقت موت كل على حدة ، فلكل أحد أجل ، وقيل : يوم القيامة ، فإنه ما لم تقم القيامة لا تخلو الدنيا من متمتع ومن يستقر ، وهذا باعتبار إبليس وذريته وذرية آدم ، فالغاية راجعة إلى المستقر أو المتاع ، ولك إرجاعها إليها ، وتفسير الحين بوقت الموت ، فكل من آدم وحواء وإبليس متمتع ومستقر إلى انقضاء أجله ، وكذا الحية ، ولك جعل الغاية للمتاع فقط ، ولا وجه لجعله غاية له مرادا به التمتع فى القبر كما قيل ، إذ لا تمتع فى القبر إلا على قول من نفى عذاب القبر ، قيل : أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، وتمناها بمنى ، وعرف حقيقة أمرها بعرفة ، واجتمع بها بجمع ، ولم أذكر هذا فى شرح النيل ، وذكرت غيره ، وأهبط إبليس بميسان ، وقيل بالبصرة ، وقيل : بأيلة ، وقيل بمصر ، فبات فيها وفرح .

قال ابن عمر : بسط فيها عبقرية وهو أبو الجن ، وقيل : إنه واحد من الجن ، وقد كانوا قبله قاتلهم الملائكة فى الأرض وهم كفار فأسروه صغيراً ، فنشأ على العبادة ، وقال الله له : مسكنك الحمام ، ومجلسك الأسواق ، ولهوك المزامير ، وطعامك ممَّا لم يذكر عليه اسمى ، وشرابك المسكر ، ورسلك الشهوات ، وحبائلك النساء ، وأهبط الحية بأصبهان .

ولما حضرت الوفاة آدم أحاطت به الملائكة ، وجعلت حواء تدور حولهم ، فقال لها : خلى ملائكة ربى فإنما أصابنى منك ، ومات وغسلوه بماء وسدر وتراً ، وحنطوه وكفنوه فى وتر ، ولحد

واله ، وذلك فى سرنديب بواد من الهند ، وقــالوا لبنيه هــذه سنتكم بعده ، قيل : مات قبل حواء بسنة ، وقيل : بثلاثة أيام ، وعاش ألف سنة ، وقيل : إلا ستين سنة ، وقيل إلا سبعين ، وقيل : إلا أربعين .

( قَالَ فيها تَحْيَوْن ) تعيشون ( وفيها تموتُون ) فتقربون فيها ( ومِنها تُخْرجُون ) للجزاء ، وذلك حكم على الجميع ، فإن كلا إبليس وآدم وحواء وغيرهم كذلك ، فإن من مات وألقى فى الأرض ولو لم يدفن يصح أن يقال : إنه يخرج منها ، لأنه بتمكنه منها كأنه داخل فيها ، وإن أراد الإخراج من القبر فحكم على المجموع ، وإنما ذكر قال : لأن هذا إخبار وما قبله أمر مع ما اتصل به من الخبر المجمل ، ويجوز أن يكون الخطاب لبنى آدم ، كأنه قيل : قال فيها تحيون يا بنى آدم ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون ، ويسهله ذكر يا بنى آدم بعد ذلك ، وقرأ حمزة والكسائى وابن ذكوان عن ابن عامر بفتح التاء وضم الراء .

( يا بنى آدمَ قَدْ أنزلنا عَليكُم لِباساً ) أى أنزلنا عليكم ما يكون لباساً بالتدريج وهو المطر ، فجميع ما يلبس منه ، أو خلقناكم لباسا ، فعبر بالإنزال ، لأن ما فى الأرض مكتوب فى السماء ومفصل فيه ، ومنزل منه بقدر على أيدى الملائكة بالذات أو بالمآل ، والصيرورة .

( يُوارِى ) يستر ( سَوْآتكم ) التى قصد الشيطان إبداءها ، ويغنيكم عن خصف الورق ، فإن ظهورها أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان . وعن مجاهد : نزلت هذه الآيــات الأربع فيمن كان يطــوف بالبيت عريانا من قريش وغيرهم . وعن قتادة والضحاك : كانت العرب تطوف عراة إلا الحُمس وهم قريش ، ومن تلاها وهو الصحيح وكان العربى يستعير منهم ثوبا أو يطوف عريانــا أو فى ثيابه ، ثــم يلقيها ،

وتمادى ذلك حتى كان الطواف بالعراء قربة عند العرب ، ويقولون : لا نطوف فى ثياب المعصية ، ونودى بمكة وعام تسع : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، وعظمت قريش البيت •

وذكر النقاش : أن عادة ثقيف ، وخزاعة ، وبنى عامر بن صعصعة ، وبنى مدلج ، وعامر ، والحارث ابنى عبد مناة ، رجالهم ونساءهم الطواف بالبيت عراة ، وكان بعض العرب يطوفون بالبيت بالعراء ويقولون : لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها •

( وَرِيشاً ) لباس زينة مستعار من ريش الطائر ، لأنه لباسه وزينته ، والعطف على لباسا عطف أحد المتغايرين على الآخر ، على أن المراد باللباس المذكور خصوص اللباس الموارى الذى لا زينة زائدة على المواراة فيه ، وذلك قول ابن زيد •

وقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى : الريش المال ، وتريش الرجل تمول ، وقيل : سعة الرزق ، وقال قوم : الأثاث ، والصحيح ما ذكرته أولا لاتصال الكلام بعد ذلك فى اللباس ، وليست الزينة بملغاة شرعا ، بل معتبرة كما قال الله سبحانه : « لتركبوها وزينة ولكم فيها جمال » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميل يحب الجميل » وقرأ ابن عباس ، وأبو عمرو ، وعاصم ، ومجاهد فى رواية عنهم ، وأبو عبد الرحمن ، وأبو رجاء ، وزيد بن على ، وعلى بن الحسين ، وقتادة : ورياشا وهى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال عثمان بن عفان ، والمعنى واحد ، وقيل : الرياش جمع ريش كبيرٍ وبيار ، وذئب وذئاب ، وشعب وشعاب ، وقيل : الريش والرياش مصدران ، يقال : راشه الله بمعنى أنعم عليه ، وقرأ أبى : وزينة بدل وريشا •

( ولباسُ التقوى ) بالنصب عطفا فى قراءة نافع وابن عامر والكسائى ، فيكون قوله : ( ذلك خير ) مستأنفا وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة بالرفع فهو مبتدأ وذلك مبتدأ ثان ، وخير خبره ، والجملة خبر الأول ، والرابط إعادة المبتدأ بمعناه ، فإن الإشارة للباس التقوى ، أجاز ابن هشام ذلك ، وأجاز كون ذلك بدلا أو بيانا لا نعتا ، لأن النعت عنده لا يكون أعرف من المنعوت ، وأجازه الفارسى أيضا ، فعلى البدلية والبيانية أو النعتية ، فالخبر مفرد .

والذى يظهر لى أنه لا يصح كون المبتدأ نفس المبتدأ الأول ، بل يجب كونه مغايراً له أو بعضه أو أعم ، فتتعين التبعية فى الآية ، إلا أن يجعل لباس خبر المحذوف ، أى هو لباس التقوى ، وذلك مبتدأ أو لباس ، وخير خبر إن لذلك ، وقرأ أبى : ولبس التقوى ، وفى مصحف ابن مسعود : ولباس التقوى خير ذلكم من آيات الله ، ويروى عنه خير ذلك من الخ ، وكذا روى عن أبى ، وقرأ بعضهم ولبوس التقوى بالرفع ، وذلك فى قراءة نافع إشارة إلى ما ذكر من اللباس والريش ، ولباس التقوى .

والمراد بلباس التقوى الإسلام والعمل الصالح ، وامتثال المأمورية به ، واجتناب المنهى عنه ، والورع ، وخشية الله ، وقال ابن جريج : الإيمان ، وقال معبد الجهنى : الحياء وقال ابن عباس : العمل الصالح ، وعنه السمت الحسن فى الوجه ، وقاله عثمان على المنبر ، وعروة بن الزبير : خشية الله ، وابن الأنبارى : ستر العورة ، والحسن : الورع والسمت الحسن فى الدنيا ، وعن ابن عباس والكلبى : العفة ، وقيل : الصوف وما فيه تواضع لله عز وجل ، وقال زيد بن على : السلاح وآلة الجهاد ، وقيل ما يتقى به فى الحرب كالدرع والمغفر ، ونسب لزيد بن على ،

والصحيح ما ذكرته أولا ، وما كان من الأقوال بعده متضمنا له ، ومـا أحسن قول بعضهم :

إذا أنت لـم تلبس ثياباً مـن التقى

عـــريت وإن وارى القميص قميص

( ذلكَ مِن آياتِ اللهِ ) الإشارة إلى اللباس ، والريش ولباس التقوى ، وقال النقاش : إلى لباس التقوى ، أى هو فى العبد أمارة من الله أنه رضى عنه ورحمه ، وذلك على الرجاء بحسب المبلغ من المعرفة ، وقيل : إلى اللباس والريش بتأويل ما ذكر ، أو إلى إنزالهما ، وعلى هذا القول وما ذكرته قبل قول النقاش المراد أن ذلك دليل على رحمة الله وفضله على عبـاده وقدرته ووجوده ووحدانيته ، وإشارة البعـد فى الموضعين للتعظيم .

( لعلَّهم يذَّكَّرونَ ) فيعرفون عظم النعمـة ، ويتورعون عـن القبائح ، ومن أراد التوبة والطاعة فليلبس قميصا جديدا يوم الخميس والقمر فى الزيادة ، ثم يصلى ركعتين شكرا للـه على ما ألبسـه ، ثم يكتب : « يا بنى آدم قد أنزلنا » إلى « يذكرون » فى إناء زجاج يمحوه بماء ورد ، ويدهن به وجهه ، ثم يكتب فى ذلك فى ورقة زيتون ، ويجعلها فى جيب القميص ، فإنه لا يلبسه أبداً إلا ويعان على الطاعة .

( يا بَنِي آدَم لا يفْتِنَنَّكم الشَّيطانُ ) لا يضلكم عن طـريق الهدى ، أى احذروا أن يتأثر فيكم إغواءه ولا تبتغوه ، فالنهى لهم ولو كان بحسب اللفظ للشيطان ( كما أخْرجَ أبويْكُم ) أباكم آدم وأمكم حواء ( مِنَ الجنَّة ) أى كما فتنهما بإخراجهما منها ، وأنتم أهون فى

الإضلال منهما عنده ، وأسهل فاحذروا ، وقيل : نزل ذلك فيمن يطوف بالبيت عريانا ، قال بعضهم : ذلك من عادة قريش ، وعن الضحاك وقتادة : من عادة قبيلة من اليمن ، وإسناد الإخراج إلى إبليس ، فجاز لتسليه فيه ، والمخرج هو الله ، وكذا إسناد النزع إليه فى قوله :

( ينْزِعُ عنْهما لباسَهما ) وهذه الجملة حال من أبويكم ، ومن ضمير أخرج ، والمضارع للحال الماضية المنزلة بمنزلة الحال الحاضرة المشاهدة ، تأكيدا فى تحذيرهم ، وهى فى نفسها ماضية كأنه قيل : أخرجهما نازعا لباسهما ، ولا يخفى ما فى الآيات من الدلالة على فتح الكشف ، وأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى ، وأسند نزع اللباس عنهما إلى إبليس لعنه الله ، وهو فعل الله تعالى ، لأن سببه الأكل من الشجرة ، وسبب الأكل وسوسته ومقاسمته إنى لكما لمن الناصحين .

( ليُرِيَهما سَوْآتهما ) الرؤية بصرية ، وتعدت لاثنين بالهمزة ، فإن يرى مضارع أرى ، والمراد باللباس هنا ما مرّ ، وقال مجاهد : إن المراد هنا التقوى ، وإن السوأة المعاصى ( إنَّه يراكُم هُو وقَبيلُهُ ) أى جنوده وهم الجن والشياطين ، والمفرد قبيلة ، وهى الجماعة ، وسميت لأن بعضها يقابل بعضا ، وقيل : هو مفرد ، وعن الليث : القبيل كل جيل من إنس أو جن ، وقيل : القبيل ثلاثة فصاعدا عن قوم شتى ، والجمع قبل ، والقبيلة بنواب واحد ، وقيل القبيل المصنف ، فكأنه قيل : وصنفه الذى هو منه ، وقيل : القبيل النسل والولد ، والهاء فى إنه لإبليس أو للشأن ، والعطف على المستتر فى يراكم ، وقرىء وقبيله بالنصب على الصيغة أو على تقدير : وإن قبيله يرونكم .

( مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهم ) وجملة إن وما بعدها تعليل للنهى

وتحذير من فتنتهم ، فإنهم أعداء كامنون يصعب الاحتراز عنهم ، قال مالك بن دينار : إن عدوًّا يراك ولا تراه لشديد المؤنة ، إلا من عصم الله ، والذى يظهر أنه لا ترى الجن ، لأن الله سبحانه أخفاهم عنَّا ولم يخلق فى عيوننا إدراكهم لا لرقة أجسادهم ولطافتها ، أو عدم لون فيها كما قال بعضهم ، وخلق فى أعينهم قـوة يروننا بها ويرون بعضهم بعضا ، ولو كان عدم رؤيتنا لهم للطافتهم ورقتهم كما قالت المعتزلة والسيوطى وقالوا : إنهم إنما يروننا لكثافة أجسامنا ، وزعم جار الله أن الجن لا يراهم أحد ، ولا يظهرون للإنس ، وأن ادعاء رؤيتهم زور ومخرفة ، وكـذا قال الشافعى فيما روى عنه ، وروى أنه قال بتخريج مدعى رؤيتهم ، وذلك تمسك بظاهر الآية .

وزعم أنه كلما ورد فى رؤيتهم فإنما هو بالتخييل لا بالتحقيق وهو خطأ منه مشهور ، قلده فيه أهل مذهبه وغيرهم ، حتى بعض أهـل مذهبنا ممن عاصرناه ، وليس الشافعى بنبى ولا صحابى ، وإنما هـو رجل مثلنا ، ولا حديث له على دعواه .

وأقول : الحق جواز رؤيتهم ، وأن ناسا رأوهم وزعم كثير أنهم لا يراهم أحد إلا تخييلا ، روى الشيخ عمرو : التدنى العلامة ، عن عمر بن الخطاب موقوفا : أن الجن لا يستطيعون أن يتحولوا عن صورهم التى خلقهم الله عليها ، ولكن لهم سحرة كسحرتكم ، وإذا رأيتم ذلك فأذنوا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال الراوى فى حديث قبض أبى هريرة على الجنى وإمساكه إياه ما نصه : وفيه أن الشيطان قد يراه الإنسان ، وظاهر إطلاق الرؤية أنها على ظاهرها لا تخييلا ، ولا شك أن سليمان عليه السلام يراهم عيانا لا

تخييلا ، وهو من بنى آدم ، فإذا ثبت ذلك لم يمنع أن يراهم غـيره كذلك ، لأن البشرية تشملنا ، وليس ذلك من خصوصية ملكه ، لأن أهل زمانه الذين يجلسون معه يرونهم إذا جلسـوا معهم ، ولا ينـاف ذلك ذلك الآية ، لأن الآية على الغالب •

وقد خالف الشافعى أصله إذ روى أنه جلس وهو غلام فى مجلس مالك ، فاستفتى مالكاً رجل أنى حلفت بالطلاق الثلاث أن هـذا البلبل لا يهدأ من الصياح ، فقال له مالك : قد حنثت • فمضى الرجل فالتفت الشافعى إلى أصحاب مالك فقال : إن هذه الفتيا خطأ ، فأخبر مالك بذلك فقالوا لمالك : إن هذا الغلام يزعم أن هذه الفتيا خطأ ، فقال لـه مالك : من أين قلت هذا ؟ فقال له الشافعى : ليس أنت الذى رويت لنا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة فاطمة بنت قيس أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إن أبا جهم ومعاوية خطبانى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له » فهل كانت عصا أبى جهم أبداً على عاتقه ، وإنما أراد من ذلك الأغلب •

وإنما حملت رؤية أصحاب سليمان إياهم على الحقيقة كرؤيته ، وكذا رؤية النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولـم أجعل ذلك مـن خصوصيات ملك سليمان لكثرة أدلة الحمل على ظاهرها ، كما روى أن بعض الصحابة صارع جنياً فرد عليه مالك قائلا : هكذا فقال : إنى مـن بينهم ضليع ، أى حسن وهو مؤمن لا يكذب ، فأقر الصحابى على مـا رآه عليه ، وبين له أنى مع ما رأيت من خلقتى حسن من بين أبى ، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنى فقال : « كنت أريد أن أربطه على سارية فى المسجد لتروه ، فتذكرت قول سليمان : « رب هب لى ملكا »

الآية فأطلقته » فنص على إمكان رؤيته ، بل قال الكرخى ما حاصله : إن الحق جواز رؤيتهم على أصل خلقتهم ، فتكون الآية مخصوصة بالأحاديث ، وقد ألفت فى ذلك رسالة .

وأما قوله عز وجل : « لا ترونهم » فمعناه أنكم لا ترونهم فى الجملة كما سيرى كل واحد منا الآخر فى أى وقت شاء ، فلا ينافى رؤيتهم فى بعض الأوقات لأفراد من الناس ، ولله در البيضاوى إذ قال : إنهم لا يرون فى الجملة احترازا عما ثبت أنهم قد يرون رؤية شاذة ، يراهم قليل من الناس ، والقلة نسبية ، وليس مراده بالجملة الإشارة إلى رؤيتهم بالتخييل كما قيل ، لأنه غير ظاهر من العبارة بلفظ الجملة ، وقد رآهم سيدنا محمد وسيدنا سليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام ، ومن غير الأنبياء من الصحابة وغيرهم ، ومن أصحابنا وغيرهم ممن لو استقصيت ذكر قصص رؤيتهم لم تف به عشر كراريس ، وقبضوا عليهم والأصل فى ذلك كله الحمل على الحقيقة وبالذات لا بالتمثيل والتخييل ، ولكن قبل إظهارهم أنفسهم فى استطاعتهم ، وقيل : لا .

وكذلك المراد عدم رؤيتهم فى الجملة فيما ذكر مجاهد أن إبليس قال : جعل لنا أربعة : نَرى ولا نُرى ، ونخرج من تحت الثرى ، ويعود شيخنا فتى ، وفيما ذكر ابن عباس أنهم يروننا ولا نراهم ، ويجرون من ابن آدم مجرى الدم ، وجعل قلب ابن آدم مسكنا لهم إلا من عصمه الله ، وزعم الزجاج أن حيث اسم موصول بالجملة بعدها ، وليست الجملة مضافا إليها ، ويرده أنه لا رابط والجملة مضاف إليها .

( إنَّا جَعلنا الشَّياطِين أوْلياء للَّذين لا يؤمنُونَ ) أعوانا لهم فى الغى بإرسالهم عليهم ، وتمكينهم من خذلانهم ، ولم نكفهم عنهم ، فكان

بينهم اتصال فى المعصية والكفر ، وهذا تحذير أبلغ من الأول ، والمراد أنم أولياء لهم بما وجدنا بينهم من التناسب ، وقوله : « يا بنى آدم لا يفتننكم » إلى « لا يؤمنون » مقصود قصة آدم ، وفذلكة الحكاية كأنه قيل : فذلك موجوب أن تحذروا فتنته ، وأن تكونوا أولياء .

( وإذا فَعَلُوا فاحِشَةً ) ما تبلغ من الذنوب فى القبح كعبادة الصنم ، وكشف العورة فى الطواف وغيرها ونهوا عنها ( قالُوا وجَدْنا عَلَيها آباءنا ) فاقتدينا بهم ، وهذا جواب بالتقليد ، أعرض الله سبحانه عنه ، ولم يجب عنه لظهور فساده عقلا من غير نظر إلى شرع ، فإن التقليد ليس بطريق للعلم .

( واللهُ أمَرَنا بها ) هذا جواب بالافتراء على الله أجاب عنه بقوله : ( قُلْ إنَّ الله لا يأمر بالفحشاءِ ) لاستحالة فعل القبيح عنه ، لعدم الداعى وتنزه ذاته ، ولجريان عادته على الأمر بمجلس الأفعال ، والحث على مكارم الخصال ، فكيف يأمر بفعل القبيح ، والأمر كالفاعل .

وعن ابن عباس ومجاهد : الفاحشة طوافهم بالبيت عراة الرجال والنساء ، وروى أنهم يطوفون بالنهار عراة ، ويطفن بالليل عاريات ، فقال عطاء : الفاحشة الشرك ، ويأمر منزل منزلة اللازم ، أى لا يمكن منه الأمر بها ، أو مفعوله حذف للتعميم ، أى لا يأمر أحد إلا إياكم ولا آباءكم ولا غيرهم ، وقد قيل : إن قوله : « والله يأمرنا بها » جواب لسؤال مقدر محكى فى الآية ، أى وإذ قيل لهم : من أين أخذ آباؤكم ؟ قالوا : آباؤنا : الله أمرنا بها ، وهذا أيضا تقليد ممتنع لقيام الدليل على خلافه .

ولا دليل فى الآية على أن قبح الفعل بمعنى ترتب الذنب عليه فى

الأجل عقلى ، لأن المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ، وبه يحكم العقل عند غير المنزلة لا ما هو مذموم للعقل فى حكم الله تعالى ، وبهذا يحكم العقل عند المعتزلة ، ويحتمل أن يكون قولهم : « والله أمرنا بها » لم يقصدوا به كذبا ، بل اعتقدوا أن الله لو كره ما فعلوه لنقلهم عنه ، وإذ لم ينقلهم عنه فهو راض به .

ويدل له ما روى عن الحسن : أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله ، بل قال تصديق ذلك قوله عز وجل : « وإذا فعلوا فاحشة » الآية والآية منقطعة عما قبلها ، ويجوز دخولها فى صفات الذين لا يؤمنون المذكورين قبلها ، قيل ليقع التوبيخ بصفة قوم جعلوا مثالا للموبخين ، إذا شبه فعلهم فعل الممثل بهم .

( أتقولُونَ ) هذا توبيخ ، ومن قال أنكر فمراده إنكار أن يكون ما يقولون حقا أو إنكار أن يصح لهم أن يقولوه ( عَلَى الله ما لا تعْلمونَ ) صحته ، فإنه لم يأتكم به ملك أو نبى من الله ، كيف وقد أنكرتم النبوة ولا تقدرون على الاستماع من الملك وكذا آباءكم .

( قُلْ ) يا محمد ( أمر ربِّى بالقِسْط ) بالعدل والحق لا بالفحشاء كما قال مجاهد والسدى ، وقال ابن عباس : بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، ما جاء به حق ( وأقيمُوا وجُوهَكم ) اقصدوا عبادته مستقيمين إليها عن غيرها ، وعبر بذلك لأن عبادة غيره كاعوجاج الوجه إلى جنب ، وشمل ذلك توجيه الوجه للقبلة ، فإنه من العبادة ، وقد قيل : إن المراد أقيموا وجوهكم نحو القبلة ، وبه قال مجاهد والسدى ، والمراد شرع الكعبة قبلة ، وقال الربيع بن خيثم : المراد الأمر بإحضار النية لله .

( عِنْدَ كلِّ مسْجِدٍ ) موضع سجود ، وكائنا ما كان ، قال مجاهد والسدى : وجهوا وجوهكم حيث ما كنتم فى الصلاة إلى الكعبة ، وقال الضحاك : إذا أحضرت الصلاة وأنتم فى مسجد : فصلوا فيه ولا تؤخروها إلى مساجدكم ، وكانوا يقولون : أصلى فى مسجدى أو فى مسجد قومى .

قال قوم : سبب نزول ذلك قوم يقولون ذلك ، وأجيز أن يكون مسجد اسم زمان ، أى عند كل وقت سجود ، وأن يكون مصدراً أى عند كل سجود أى صلاة ، والجملة من مقول القول المذكور كأنه قال : قل لهم أمر ربى بالقسط ، وقل أقيموا وجوهكم الخ ، وعطف الطلب على الخبر والعكس جائزان قطعا فى الحكاية ، ولا ينبغى لأحد منع ذلك فيها ، تقول : قال زيد جاء بكر وأكرمه يا خالد ، كأنك قلت : قال زيد جاء بكر وقال أكرمه يا خالد ، وأيضا الجملة المحكية مفرد فلا حاجة إلى تحرج بعض عن ذلك بعطف أقيموا على معنى أمر ربى بالقسط ، وهو اقسطوا فالعطف عليه باعتبار معناه .

( وادْعوهُ ) وحدوه أو اطلبوه ، أو اعبدوه ( مُخلصينَ له الدِّين ) العبادة والطلب ، وكان كل قوم سوى المسلمين إذا صلوا أشركوا بالله ( كما بدأكم تعُودُون ) ترجعون للجزاء بعد الموت ، كما أنشأكم أولا ولم تكونوا ، وذلك رد على منكر البعث كما قال الحسن ومجاهد وابن عباس وقتادة ، هذا ما يظهر لى ، وقيل : « كما بدأكم حفاة عراة غرلا لا تعودون » وقيل : « كما بدأكم من تراب تعودون إليه » والوقف على تعدون ، ويدل له ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : « أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله عز وجل حفاة عراة عزلا أى بلا سلاح ، أو غرلا أى غير مختونين كما بدأنا أول خلق نعبده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » .

وقال أبو العالية ، ومحمد بن كعب ، وابن جبير ، والسدى ، وجابر بن عبد الله ، وابن عباس ، ومجاهد فى رواية عنهما : كما خلقكم فى الدنيا مؤمنا وكافرا تعودون يوم القيامة مؤمنا وكافرا ، ويدل له قوله صلى الله عليه وسلم : « يبعث كلٌ على ما مات عليه المؤمن على إيمانه والكافر على كفره » ويدل له أيضا قوله :

( فريقاً هَدَى وفَرِيقاً حقَّ عَلَيهِمُ الضَّلالةُ ) وقال محمد بن كعب فى رواية عنه : كما بدأ خلقكم على السعادة أو الشقاوة ، تعودون فى آخر أمركم ، فالشقى يرجع إلى المعاصى ويموت عليها ولو طالت عبادته ، والسعيد يرجع إلى الطاعة ويموت عليها تائبا ولو طالت معصيته ، كما فى أحاديث ، والوقف على تعودون فى القولين الأخيرين غير حسن ولا سيما أولهما ، وعلى ما ذكرته أولا من الأقوال يكون فريقا مفعولا لهدى ، وفريقا مفعولا لمحذوف على الاشتغال ، أى وأضل فريقا حق عليهم الضلالة ، أو خذل فريقا ، أو عذب فريقا على حد زائد أمررت به ، وعلى القولين بعده يحتمل ذلك ، ويحتمل أن يكون فريقا حالا والجملة بعدهما صفة لهما ، ويجوز كونه خبرا لتعودون ، والجملة صفة .

وقد قرأ أبى بن كعب : تعودون فريقين فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ، وهى قراءة تحتمل القولين ، والأول منهما أولى بها ، وجاز حق بلا تاء ، لأن فاعله ظاهر مجازى التأنيث ، بل ذلك جائز ، ولو كان حقيقة للفصل ، وفى الآية الدلالة على أن الهدى والضلالة من الله ، لكن باختيار الخلق ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « أن الله خلق الخلق فى ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » وذكر الطبرى أن الآية دليل على خطأ من زعم أن الله لا يعذب

أحداً على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها على علم منه بموضع الصواب .

( إنَّهم ) أى الفريق الذين حق عليهم الضلالة ( اتخَذُوا الشَّياطينَ أولياءَ ) يتولونهم بالطاعة فيما أمروهم به وسوسة أو تكهناً أو تكلماً من جوف صنم وغيره ( مِنْ دُونِ اللهِ ) أى غيره ، وذلك تحقيق لضلالهم ، أو تعليل لخذلانهم ، وتدل له قراءة العباس بن الفضل ، وسهل بن شعيب ، وعيسى بن عمر أنهم بفتح الهمزة ، أى لأنهم ، وفى الآية دلالة على أنهم ضلوا باختيارهم .

( ويحْسبُون أنَّهم مُهتدونَ ) وفى الآية دلالة على أن الكافر المخطىء ، والكافر المعاند سواء فى قطع العذر ، وزعم بعض المخالفين أن المخطىء المقصر فى النظر غير معذور ، وغير المقصر معذور ، وقلنا : إنه لا عذر لأحد فى الشرك على أى حالة كان ، وأن المخطىء والمعاند والجاحد مطلقا سواء .

( يا بنى آدمَ خُذُوا زِينَتَكُم ) لباسكم ( عِنْد كلِّ مسْجدٍ ) أى فى كل مسجد ، وعند فى الموضعين بمعنى فى ، قيل : كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا من لم يعير لهم ثوبا من قريش ، أو يطوفون فى ثيابهم ويلقونها ولا يلبسونها أبداً ، وذلك إذا قدموا لطواف الحج أو العمرة ، قال طاووس : لم يأمرهم بالحرير والديباج ، وإنما كان أحدهم يطوف عرياناً ، ويصلى عرياناً ، ويدع ثيابه وراء المسجد ، وإن طاف وهى عليه ضرب وانتزعت منه ، وقالوا : لا نعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها ، وقيل : تفاؤل أن ينفروا من الذنوب كما تعروا من الثياب ، والمسجد واحد المساجد المعدة للصلاة .

وقيل : السجود مراداً به الصلاة ، ففى الآية إيجاب ستر العورة فى الصلاة والطواف ، وأما وجوبه فى كل حال فمن غير الآية لا منهـا خلافاً لمن وهم ، وإنما سمى اللباس زينة لأنـه يستر ما يشين وهـو العورة ، وقيل : الزينة المشط ، وقيل : الطيب والسنة أن يأخذ الرجل حسن هيئته للصلاة كالسواك والطيب للجمعة ، والثياب الحسنة ، وكل ما وجد استحسانه فى الشريعة بلا قصد الخيلاء ، وذكر مكى حديثاً أن معنى : خذوا زينتكم صلوا فى النعال ، قال بعضهم وما أحسبه يصح ٠

( وكلُوا واشْربُوا ولا تُسْرفُوا ) قال السدى ، وابن زيد : هذا نهى عما التزموه من تحريم للحم والودك ، ومن تحريم ما فوق القوت تعظيما لحجهم وتوفيراً له ، قال الكلبى : كان ذلك من بنى عامر ، فقال المسلمون نحن أحق بذلك يا رسول الله ، فأمر الله أن يأكلوا اللحم والدسم وما طاب لهم ، ولا يسرفوا بتحريمها ، وليس الإسراف الأكل أكثر من القوت ولا الشبع لكثرة دلائل جـواز الشبع ، وقـد ثبت فى المساكين أنهم يطعمون حتى يشبعوا ، وأنه صلى الله عليه وسلم والصحابة أكلوا حتى شبعوا ٠

وعن بعضهم : كل ما شئت والبس ما شئت ، واتق الله ، وعن ابن عباس : كل ماشئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف وتحمله ، ويصح تفسير الإسراف بالشبع المفرط ، وتتبع الملاذ وتضييع المـال كالبحيرة والسائبة والإنفاق فى المعاصى ، بل هذا عندى أصح وأولى ، وعن ابن عباس : ليس فى الحلال إسراف ، وإنما الإسراف فى ارتكاب المعاصى ، قال عياض : يريد فى الحلال القصد ، واللفظة تقتضى النهى عن السرف مطلقا ، فمن تلبس بفعل حرام فبأول تلبسه بـه حصل مـن المسرفين ، وتوجه النهى عليه مثل أن يفرط الإنسـان فى شراء ثيـاب

ونحوها ، ويستنفد فى ذلك جل ماله ، أو يعطى ماله أجمع ، وقد وقف النبى صلى الله عليه وسلم الموصى عند الثلث وقال بعض العلماء : لو حطّ الناس إلى الربع ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « والثلث كثير » لصح انتهى . وفى الديوان قال بعضهم : إنما يوصى بالربع ، وقال بعضهم : بالخمس ، وقيل : النصف ، وقيل غير ذلك .

وانظر كيف يصح القول بغير الثلث مما هو أكثر كالنصف ، وكيف يصح إيجاب الاقتصار على ما هو أقل من الثلث كالخمس ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « نعم أوص بالثلث والثلث كثير » ولعلهم حملوا ذلك على الاستحسان والمصلحة فى الحديث ، لا على الوجوب الشرعى ، كأنه نظر إلى كثرة عياله ، فلم يرض له الوصية بأكثر من الثلث ، والمشهور حمله على ظاهره من أن الوصية بأكثر منه لا تصح إلا برضا الوارث .

وقد صح أن الله جعل لنا ثلث أموالنا بعد موتنا ، وكان لهارون الرشيد طبيب نصرانى حاذق ، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شىء ، والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان ، فقال له : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه ، قال : وما هى ؟ قال : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » فقال النصرانى : ولا تؤثروا عن رسولكم شيئا فى الطب ؟ فقال : قد جمعه رسولنا فى ألفاظ يسيرة ، قال : وما هى ؟ قال قوله : « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته » فقال النصرانى : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا .

( إنَّه لا يحبُّ المسرفينَ ) لا يرضى إسرافهم فى أكل أو شرب

أو ملبس أو نحو ذلك ، ومنه الأكل فوق الشبع ، وقد عده بعضهم كبيرة ، وقال : « من أكل وليس بجائع فقد فعل كبيرة » وليس ذلك بشيء ، نعم إن أكل فوق الشبع لغير منفعة قصدها فهلك أو تلف عضو من أعضائه فقد فعل كبيرة ، وإن نجا من ذلك فقد عصى ، هذا ما ظهر لى من عموم كلام أبى العباس أحمد بن محمد بن بكر رضى الله عنه ، وذلك أن الأكل فوق الشبع معلوم لكل أحد أنه مضر وبذلك أقول ، وأما الأكل قبل الجوع فإنه جائز وليس مضراً كالأكل فوق الشبع ، فإذا كان مثله فى الإضرار امتنع ، وكان مثله .

والضرر القليل والكثير سواء فى العصيان أو الكفر على التفضيل السابق ، فإن الواضح إنما يمتنع أن نفعله فى بدن غيرك يمتنع أن نفعله فى بدنك ، فكل من بدنك وبدن غيرك ملك الله لا تتصرف فيه إلا بما أباح لك التصرف به فيه ، وليس الأمر كما قال بعض متأخرى علماء عمان ، أن الأكل قبل الجوع إن كان يفضى إلى ضرر قليل يعرف أنه يضره فمكروه ، وكذلك أكل ما يضر قليلا على الجوع إذا علم بأنه مضر ، إلا إن أراد بالكراهية المعصية ، ولا ضير ولا كراهة إن أكل على شبع أو وقت يضره الأكل ، أو شيئا يضره أكله إذا قصد نفساً من جهة أخرى لا يتوصل إليه إلا بذلك الأكل والشرب كالأكل ، وقيل : المسرفون المشركون ، وقيل القاتلون بغير حق ، لأن الإشراك والقتل إسرافان عظيمان .

( قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتى أَخْرَجَ لِعِبَادِه ) من العدم إلى الوجود ، فالمعنى التى خلق لعباده أو من النبات كالقطن والكتان ، ومن الحيوان كالصوف والحرير ، فإنه من الدودة وهو حلال للنساء مطلقا ، وللرجال فى الحرب مطلقا ، وفى غيرها بغير لباس كتفريش ، وجاء فى بعض الأحاديث النهى عن تفريشه ، ومن المعادن كالفضة ، قيل :

وكدروع الحديد ، والزينة ما يتجمل بها من الثياب وغيرها ، ولا يحل الذهب للرجل ، وعن بعضهم : الزينة ما اقتصته الشهوة وطلب العلو فى الأرض كالمال والبنين ، وفى تعبيره بطلب العلو ركاكة ، فإنه حرام ولعله أراد إنما يطلب به العلو غير محرم عمن يستعمله بغير طلب العلو ، والاستفهام للإنكار ، ورد لصحة تحريمها أى أن تحريمها غير صحيح ومنكر ومردود أو للتوبيخ •

( والطَّيباتِ مِنَ الرِّزقِ ) كاللحم والدسم واللبن كما حلب أو غير مخيض ، وغير ذلك مما يستلذ ، قال الشافعى : الطيبات المستلذات ، ويشترط أن تكون من الحلال ، وقد فسر الجمهور الطيبات بالمحللات ، وقيل : المراد بالزينة ما يستر العورة ، وكانوا يحرمون اللباس فى الطواف ، ونسب للجمهور ، وبالطيبات اللحم والدسم ، وكانوا يحرمونهما إذا دخلوا فى أمر الحجج كما مر ، وقال قتادة : أراد بالطيبات اللحم والدسم ، والبحيرة والسائبة ونحو ذلك مما حرموا ، وفى رواية عن قتادة وابن عباس : الطيبات البحائر والسوائب •

( قلْ هى ) أى الزينة والطيبات ، وقبل : الضمير للطيبات ( للَّذينَ آمنُوا ) قال سعيد بن جبير : فلا إثم يتبعهم من جهتها ( فى الحياة الدنيا ) متعلق بالاستقرار الذى تعلق به اللام ، أى ثبتت لهم فى الدنيا بالأصالة غير خالصة لهم ، لأن الكفار شاركوهم فيها تبعا ( خالِصةً ) لهم •

( يوْمَ القِيامَةِ ) لا يشاركهم فيها كافر ، قاله ابن عباس ، والضحَّاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وابن جريج ، وابن زيد ، ويحتمل أن يكون المعنى من آمن فى الدنيا فهى خالصة له يوم القيامة

أى لا يعذبون عليها ، فاللام متعلق بخالصة ، وفى متعلق لآمنوا ، ويحتمل أن يكون المعنى أنها ثابتة لهم فى الدنيا ، منقصة مكدرة وفى يوم القيامة خالصة عن تكدير وتنقيص ، فالتعليق كالذى فى قول ابن عباس ، وخالصة خبر ثان ، أو خبر لمحذوف ، وأن يكون المعنى هى خالصة يوم القيامة للذين آمنوا فى الدنيا فخالصة خبر المبتدأ ، وللذين متعلق به ، وفى متعلق بآمنوا ، وقرأه غير نافع بنصب خالصة على الحال من ضمير الاستقرار •

قال الفارسى : ويصح أن يتعلق فى يحرم لا بزينة ، لأنها مصدر وصف ، وأن يتعلق بأخرج لأن الفاصل يشد القصة ، وليس بأجنبى جداً ، وهو قول الأخفش ، وأن يتعلق بالطيبات وبالرزق ، وذلك منه إبقاء للزينة على المصدرية ، أى قل من حرم التزين بالثوب ونحوه ، إخراجه إلى معنى المتزين به من نحو ثوب ، وفى الآية دلالة على أن الأشياء حلال إلا ما قام الدليل على تحريمه كتحريم الحرير والذهب على الرجل بالسنة •

( كذَلكَ نُفصِّل الآياتِ ) نبينها كتبييننا هذا الحكم ، وفسرت الآيات بالأحكام والحلال والحرام ، وأصل التفصيل التقسيم ، فإن بيان المشتبهات إنما هو فى تقسيمها وعزل كل على حدة •

( لِقومٍ يعْلمُون ) ويصدقون بوحدانيتى ورسالة نبيى ، فإنهم المتيقنون ، وقوله : « يا بنى آدم خذوا » إلى « يعلمون » نافع عن السموم والمضرة والعين والسحر ، من كتبه فى إناء أخضر طاهر جديد بماء العنب الأبيض والزعفران ، ومحاه بماء ورد ، واغتسل به زال عنه السحر والعين ، ومن شرب منه أو جعله فى طعام أمن من السموم •

( قُلْ إنَّما حرَّم ربِّى الفَوَاحِشَ ) ما بلغ النهاية فى القبح كالتعرى والشرك وتحريم الحلال ، وقيل : الفاحشة ، ولو كان فى اللغة ما تناهى قبحه ، لكنها فى العرف الزنى حتى إنه المفهوم عند الإطلاق ، فهو المراد فى الآية ، وسكن حمزة ياء ربى فتحذف للساكن بعدها .

( ما ظَهَرَ منْها ) بدل مطابق بالنظر إلى المعطوف ( وما بَطَنَ ) المراد التعميم ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « أنا أغيركم ، والله أغير من كل أحد ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، ولذلك مدح نفسه » وغيرة الإنسان هيجان غضبه وامتناعه للمشاركة فيما يختص به ، وأكثر ما يكون فى الأرواح ، وغيرة الله شدة تحريم ، وقال مجاهد : ما ظهر الطواف بالعرى ، وما بطن الزنى .

( والإثْم ) الذنب مطلقا فاحشا أو غير فاحش ، صغيرا أو كبيرا ، عطف عام على خاص ، لئلا يتوهم حل ما سوى الفواحش ، وخص الفواحش بالذكر لأنهم بصددها شديد والجدال عنها ، ولعظم قبحها ، ولمناسبة ما تقدم ، وقال الحسن وعطاء : الإثم الخمر ، وفى الصحاح يسمى الخمر إثماً لقوله :

شربت الإثم حتى ضل عقلى
كذلك الإثم تذهب بالعقول

وفى المحكم تسمية إثماً صحيحة عندى ، لأن شربها إثم ، وأقول : هذا ضعف من حيث إن الآية مكية ، والخمر حرمت بالمدينة بعد أحد ، ومن حيث إنه يحتمل أن المراد بالإثم شربها لا هى ، فكأنه قال : وحرم

الإثم الذى هو شرب الخمر ، أو يقدر مضاف أى خمر الإثم ، وأضيفت إليه لأنه كثيراً ما يتولد بشربها ، ولكن الاحتمالين لا يصح إثباتهما مع ما ذكرت من أنها حرمت بالمدينة ، وقد أنكر ابن الأنبارى تسميته الخمر إثماً وقال : إن العرب ما سمتها قط إثماً لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام ، ولعل البيت عنده مصنوع أو يقدر مضافا ، أى شربت خمر الإثم ، وكذا شرب الإثم يذهب بالعقول ، أو يجعل الإثم مفعولا مطلقا ، أى شربت الشرب الذى هو ذنب وهكذا .

وقيل : الفواحش الكبائر ، ولو لم يتزايد قبحها أو لم يقبحها العقل أصلا كلبس الرجل الحرير والذهب نظرا إلى أنه قد تزايد قبحها تحريم الشرع ، والإثم الصغيرة ، وقيل : الفواحش ما وجب عليه الحد كالزنى والسرقة والقتل ، والإثم ما لا يجب عليه كسرقة أقل من ربع دينار ، والسرقة من غير الحرز ، والربا ، والإثم فى القولين مستعمل فى الخصوص ، ولو كان أصله الذنب مطلقا صغيرا أو كبيرا يجب عليه الحد أو لا يجب ، واستعمال العام فى الخصوص جائز وارد ، ولا سيما مع ذكر ما يعلم منه الخصوص كما هنا فلا اعتراض على القولين ولو ادعاه بعض .

( والبَغْى ) الظلم أو أشده ، أو الكبر أو أشده ، أو كل ذلك ، وخصه بالذكر مع أن الفواحش أو الإثم يعمه فى بعض الأقوال المذكورة تأكيدا لتحريمه ، وزاد له تأكيدا بقوله : ( بغَيْر الحقِّ ) فإنه لا يتصور بغى بحق وهو حال مؤكدة .

( وإنْ تشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلْطاناً ) حجة من صنم وغيره ، هذا تهكم بهم ، لأن أصل هذه العبادة ونحوها إنما هو لما

يجوز أن يكون ولم يكن ، وإنزال البرهان بأن يشرك به غيره غير جائز مستحيل ، وفى ذلك تنبيه على تحريم اتباع ما لم تدل عليه حجة .

( وأنْ تَقُولوا عَلى اللهِ ما لا تَعلَمونَ ) من التحريم والتحليل ، كقولهم إن الله أمرنا بالطواف بالعرى ، وأنه حرم السائبة والوصيلة والبحيرة .

( ولكلٍّ أمةٍ ) عصوا الله وكذبوا رسلهم ( أجلٌ ) أخفاه الله عنهم ، يعذبهم فيه ويستأصلهم ، كقوم نوح وقوم لوط ، وقد كذبتم فلكم أجل ، وقد قطع دابرهم يوم بدر ، فذلك تهديد لأهل مكة ، أو الأجل أجل الموت وهو موت كل أحد من الأمة الواحدة ، وعليه فإنما أفرد الأجل لتقارب أعمار أهل كل عصر ، كأنها عمر واحد ، نعم مع دلالة قوله : « كل أمة » فكأنكم يا أهل مكة موتى وعالمون بما أعدلكم ، وأنكم على غير شىء ، وملاقون أول العذاب الأخروى أو استعمال النكرة المثبتة فى الجنس للدلالة المذكورة .

( فإذا جاء أجَلُهم ) فى الإفراد ما مر ، مع أن الإضافة أكثر تسويغا له ، وقرأ الحسن وابن سيرين : فإذا جاء آجالهم بالجمع ، قال أبو الفتح : وهى أظهر ، وهى دليل على أن الأجل أجل الموت ( لا يستأخِرُونَ ساعةً ) عنه ( ولا يستَقدمُونَ ) السين للتأكيد ، أى لا يتأخرون تأخراً قليلا ولا كثيراً ، ولا يتقدمون كذلك ، والمقتول عندنا معشر الأباضية ، وعند أهل السنة ميت لأجله غير متقدم ، وزعم بعض الناس أنه متقدم وهو خطأ ، فإن الله سبحانه قد قضى أنه يموت فى ذلك الوقف بسيف فلان مثلا ، والمراد بالساعة ما يعم أقل قليل من الزمان كلحظة وما دونها ، وإن أريد الساعة الواسعة كمقدار الساعة الفلكية وأكثر وأقل ، فذلك تمثيل بما يعدونه قليلا لا قيد ، فإنه لا تأخر ولا تقدم ولو أقل قليل .

وقوله : « ولا يستقدمون » مستأنف ، فإن التقدم مع بقاء إلى حضور الأجل متناقض غير ممكن ، فلا يحتاج الكلام إلى نفيه إلا أن يقال : المراد أنه إذا جاء أجلهم تبين أنهم ما استأخروا عنه ولا تقدموا كقوله :

* إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة *

أى تبين لك أنى لم تلدنى لئيمة ، كذا ظهر فافهم ، أو يقال : المراد أنه إذا حضرت أمارة أجلهم ومقدماته لم يتأخروا ولم يتقدموا ، وأما قول بعض : إن العطف على الشرط فليسه بمزيل للأشعار ، وكذا جعلها حالا من أجل أو غيره ، ويجوز إبقاء السين على أصلها من الطلب ، أى لا يطلبون التقديم ولا التأخير لشدة الهول أو لإياسهم .

( يا بَنِى آدمَ ) خطاب لجميع الأمم ( إمَّا يأتينَّكم ) إن الشرطية مدغمة النون فى ميم ما المزيدة للتأكيد ، ولزيادتها صح تأكيد فعل الشرط بالنون ، وقرأ أبى والأعرج تأتينكم بالتاء الفوقية ( رسُلٌ منكُم ) جنسكم ، والرسول إذا كان من جنس الأمة كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم ، لأنهم يعرفونه ويعرفون أحواله ، فإذا جاء بما لا يقدر عليه البشر كان معجزة له وحجة ، وعبر بإن الشرطية الدالة بحسب الوضع على الشك ، تعالى الله عنه ، للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز لا واجب ، فقد قامت حجة توحيد الله ولو لم يكن رسول ولا كتاب ، والرسل والكتب أكدت ذلك وقررته ، وزادت أحكاما وتفصيلا .

وقال جمهور أصحابنا : حجة الله على عباده الكتب والرسل بقطع عذرهم من حيث التوحيد ، ولو لم يصلوهم ، وذلك مقول لقول محذوف ،

أى قال الله : يا بنى آدم إما الخ ، وإنما قال ذلك حين أخرجهم كالذر من آدم عليه السلام ، هذا ما ظهر لى فى توجيه الآية ، ثم رأيت الطبرى أسند إلى يسار السلمى أن الله سبحانه جعل ذرية آدم فى كفة مع آدم فقال : « يا بنى آدم إما يأتينكم » الخ ، ونظر إلى الرسل فقال : « يا أيها الرسل كلوا » إلى « فاتقون » .

أو قال ذلك فى أول كتاب أنزل ، أو بالوحى إلى آدم وعليهما ، فآدم غير داخل بنص الآية ، بل بالفهم والقياس ، وقد قيل : المراد الرسل ، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والخطاب لبنى آدم كلهم ، فإنه رسول إليهم ، لوجوب أن يؤمنوا به كلهم ، أو للأمة ، وجمع تعظيما ، والأول أصح ، ويجوز أن يكون المعنى أتتكم رسل منكم ، فالمضارع مستعمل فى موضع الماضى ، ووجه التعبير بذلك التقدير والتوكيد ، كأنه قيل : إن صح عندكم مجىء الرسل ، ولا بد أن يقولوا صح مجيئها ولو أنكروا باللسان ، أو غلبت عليهم المكابرة كما تقول لمن لا يبالى بالإنجاس : إن كان الدم نجساً فاغسله من ثوبك ، كأنه قلت : هل هو نجس ، فلا بد أن يقول نجس فيلزم نفسه غسله للصلاة .

( يقُصُّون عليْكم آياتى ) يقرءون عليكم كتبى وأحكامى وشرائعى ، ومن قرأ تأتينكم بالتاء فقد راعى هناك لفظ الجماعة ، وهنا معناها ، والجملة نعت آخر لرسل ، والأول منكم أو حال ، وإن علقنا منكم بيأتى فهذه الجملة نعت .

( فمَن ) شرطية أو موصولة قرن خبرها بالفاء تشبيها بالشرطية ( اتَّقى ) حذر الشرك ( وأصْلح ) أتى بالعمل الصالح مجتنبا للمعصية ( فلا خوفٌ علَيْهم ) حين يخاف غيرهم يوم القيـامة وحين المـوت ( ولا هُم يحْزنُون ) على ما فاتهم من الدنيا ، أو لا صيبهم ما يحزنون .

والجملة من أدوات الشرط والجواب والشرط ، أو من المبتدأ والخبر جواب إن الشرطية ، وقرأ ابن محيصن فلا خوف بالرفع بدون تنوين ، فقيل : تشبيها باسم لا النافية للجنس العاملة عمل إن ، فإن اسـمها المفرد لا ينون ، أو حذف لكثرة الاستعمال ، أو لتقدير أل ، أى فـلا الخوف ، ومضاف إليه أى لا خوف شىء ، وعبارة بعضهم بنى اسم لا العاملة عمل ليس حملا على العاملة عمل إن ، وفيه أن الأولى أن تجعل مهملة لقلة إعمالها عمل ليس حتى خصه بعض بالضرورة ، ولقلة ثبوت خبرها ، وقرأ يعقوب بفتح فاء خوف وضم هاء عليهم ، ووجهها أنهـا عاملة عمل إن ، فالفتح إما بناء على أن اسمها مفرد وأعرب على أنه مضاف لمحذوف مقدر اللفظ والبناء أولى .

( والَّذين كذَّبوا بآياتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْها ) أى عن الإيمان بها ( أولئكَ أصْحابُ النَّار هُم فِيها خالِدُونَ ) أبدا والله سـبحانه لا يخلف الوعد ولا الوعيد عندنا « ما يبدَّل القولُ لدىَّ » نسأل الله أن يمنّ علينا بالرحمة والرضا ، ومجاورة المصطفى فى المقر الأسنى ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله أولى النهى ، وزعم بعض من أجاز خلف الوعيد فى حق الله أنه داخل الفاء على « لا خوف عليهم » ولم يدخلها على « أولئك أصحاب النار » للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد .

( فمَن أظْلم ) أى لا أحد أظلم ، فالاستفهام إنكار ، وأصل معنى نحو هذه العبارة نفى الزيادة ، وتستعمل فى نفى المساواة ( ممَّن افْتَرَى عَلَى الله كذباً ) تقوَّل على الله سبحانه وتعالى ما لم يقلـه ( أوْ كذَّب بآياتِه ) كالقرآن .

( أولئِكَ ينالُهم نَصيبُهم مِنَ الكِتابِ ) ممـا كتب لهم مـن

الأرزاق والأعمار ، فمن للبيان ، والكتاب بمعنى المكتوب ، أو من اللوح المحفوظ ، فمن للابتداء ، أو بمعنى فى ، أى نصيبهم حال كونه فى الكتاب ، فهم ولو بلغوا ما بلغوا من الكفر ، فليس بمانع أن ينالهم ما كتب لهم من رزق وعمر تفضلا من الله ليتمكنوا من الإصلاح والتوبة ما لم يموتوا ، كما قال .

( حتَّى ) للابتداء على الصحيح لإجازة لإذا خلافا لبعض وهى غاية لينال ( إذا جَاءتْهم رسُلُنا ) ملك الموت وأعوانه ( يتَوفَّوْنهم ) حال من الرسل ( قالُوا ) أى رسلنا جواب إذا ، ولا بد من تقدير لأن القول بعد التوفى لا عنده ، أى وتوفوهم قالوا ، أو قالوا بعد التوفى ( أيْنمَا ) بالوصل فى الإمام ، والأصل الفصل ، لأن ما اسم موصول ، وهذا الاستفهام توبيخ وتبكيت ( كُنتم تدَّعُون مِنْ دُونِ الله ) فيدفع عنكم العذاب .

( قالُوا ضلُّوا ) غابوا ( عنَّا ) أى بطل أمرهم ولم يقدروا على شىء ( وشَهِدوا علَى أنفُسهِم أنَّهم كانُوا كافِرِينَ ) اعترفُوا بأنهم ضالون فيما كانوا عليه ، وإن عاقبته غير محمودة ، وروى عن ابن عباس ومجاهد والضحَّاك : الكتاب القرآن اسوداد وجوههم يوم القيامة ، وقال الزجاج : نصيبهم من القرآن وهو نار تتلظى ، والأغلال فى الأعناق ، وعن الحسن والسدى وأبى صالح ، نصيبهم العذاب والسخط ، وسواد الوجوه وزرقة العيون ، والكتاب اللوح المحفوظ .

وعن مجاهد ، وابن جبير ، وابن عباس : الكتاب المكتوب لهم وعليهم ، من سعادة وشقاوة ، ويحض دخول النار بأهل الشقاوة ، وإذا خلق الجنين فى الرحم كتب الملك رزقه وأجله وشقاوته أو سعادته ،

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة والضحاك : الكتاب ما يكتب من أعمال الخليقة من خير وشر ، ينال هؤلاء نصيبهم منه وهو الكفر والمعاصى .

وقال الربيع بن أنس ، ومحمد بن كعب ، وابن زيد : النصيب ما سبق لهم فى أم الكتاب من رزق وعمر وخير وشر فى الدنيا ، ورجحه الطبرى بقوله : « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم » وعن قتادة نصيبهم جزاء أعمالهم ، وعن الربيع بن أنس : رزقهم ، وقالت فرقة : الرسل ملائكة العذاب ، وتوفيهم استكمال عددهم من المحشر إلى النار .

( قالَ ) الله أى يقول يوم القيامة بلسان ملك ، أو بخلق كلام ، وعبر بالماضى لأنه لا بد من مجىء القيامة ، فكأنها حاضرة ، وكأن القول واقع ، ومن كان له عدو مسجون وأراد طول سجنه ، فليكتب : « قال » إلى « ولكن لا تعلمون » فى جلد أحمر مدبوغ ، ويكتب اسمه واسم أمه ، ويكتب : مكثاً مكثاً يا فلان بن فلانة لبثاً يا فلان بن فلانة ، تثبيطاً مكثاً بلا زوال ، ويدفن الجلد تحت باب الموضع المسجون فيه فلا يزال فيه إن شاء الله حتى ينزع منه ، ولا يقبل ذلك إلا لمن يجوز عليه .

( ادْخلوا فى أممٍ ) قال ابن هشام : فى بمعنى مع ، وقيل هى على بابها ، وتتعلق بمحذوف حال أى ثابتين مع أمم أو فى جملة أمم ( قَدْ خَلَتَ ) نعت لأمم أى مضت ( مِنْ قَبْلكم ) وتقدم زمانهم زمانكم ( من الجنّ والإنْس ) نعت ثان ، أو حال من أمم أو من ضمير فى خلت ( فى النّار ) متعلق بادخلوا ، وأجيز تعليقه بخلت ، على أن المعنى سبقت فى النار ، وعلى هذا تكون فى الأولى على بابها ، أو بمعنى على ،

وتعلق بادخلوا ، وكذا إذا علق فى النار بمحذوف نعت الأمم أو حال منه ، أو من ضميره ، وقدم ذكر الجن لأنهم أعرق فى الكفر ، وإبليس أصل الكفر والإضلال ، ولتجردهم إلى الإضلال ، بخلاف الآدمى المتشيطن ، فإنه ولو كان أعظم من سبعين شيطانا جنيا ، لكنه غير متجرد للإضلال ، وإن تجرد فقليل .

وهذه الآية كنص فى أن للجن المؤمنين ثوابا فى الآخرة ، لأنه يعذب على السيئات إلا من يثاب على الحسنات ، وهم مكلفون مبعوث إليهم ، والملائكة يثابون بغير نعم الجنة ، وذكر بعض : أن مؤمنى الجن يكون ترابا ، وذكر حديثا مجهولا فى ذلك تبعد صحته ، وبعض أنهم فى صحارى الجنة ، ولا بعد فى هذا الأخير ، ولو كان القياس يقتضى أن يكونوا كبنى آدم .

( كلَّما ) كل ظرف زمان متعلق بلعنت ، وإنما كان ظرف لإضافته إلى مصدر نائب عن اسم الزمان ، فإن ما مصدرية ( دَخَلَت ) فى تأويل مصدر مضاف إليه ، أى كل دخول أى كل زمان دخول كما تقول : زيد يأتى المسجد كل صلاة عصر ، أى كل وقت صلاة عصر ، وقيل : ما ظرفية مصدرية ، ومعمول دخلت محذوف ، أى فى النار .

( أمةٌ لَعَنَتْ أختها ) فى الدين لإضلالها إياها ، فالمشركون يلعنون المشركين ، والمجوس يلعنون المجوس ، والصابئون يلعنون الصابئين ، والنصارى يلعنون النصارى ، واليهود يلعنون اليهود ( حتَّى إذا ادَّاركُوا ) ألحق بعضهم بعضاً ( فيها جميعاً ) الأصل تداركوا بوزن تفاعلوا ، أبدلت التاء دالا وسكنت وأدغمت فجىء بهمزة الوصل ، وقد قرأ ابن مسعود رضى الله عنه : تداركوا على الأصل ، وهو رواية عن أبى

عمرو ، روى عنه إداركوا بقطع همزة الوصل وثبات ألف ذا ، ولا وجه له ، غير أنه وقف وقفة المتذكر ، ثـم ابتدأ فقطع ، فـإن قطع همزة الوصل فى الوصل مختص بالضرورة ، ويكـون فى الفعل كما يكـون فى الاسم خلافـا لابن جنى ، وقرأ مجـاهد فيما قـال مكى ادركوا بإسقاط الألف بعد الدال بوزن افتعلوا ، الأصل ادتركوا ، أبدلت التاء دالا وأدغمت فيها الدال ، والمشهور عند ادركوا بفتح الهمزة وإسكان الدال ، أى إدرك بعضهم بعضا ، ودخلوا فى دركاتها ، وقرأ حميد ادكروا بضم بضم الهمزة وإسكان الدال وكسر الراء ، أى أدخلوا فى دركاتها ، أو ادرك بعضهم بعضا •

( قَالتْ أخْراهم ) أى آخرتهم دخـولا ( لأولادهُم ) بضـم الهمزة وإشباعها بالواو ، فإنـه بوزن الأخـرى والفضـلى والكبرى والصغرى ونحو ذلك ، من مؤنثة أسماء التفضيل ، والمعنى لسابقتهم دخولا ، ويجوز أن يكون المعنى أخراهم منزلة وهم الأتباع ، وأولاهم منزلة وهم الرؤساء المتبوعون والماصدق واحـد ، فإن الرؤسـاء هم الأولون دخولا ، والأتباع هم لآخرون دخولا •

وقال ابن عباس : قال آخر كل ملة لأولادها ، واللام بمعنى فى أى فى شأن أولاهم ، أو عن أو للسببية ، إنما لـم يتق عـلى أصلها ، لأنهم قالوا ما قالوا الله لا لأولاهم ، اللهم إلا أن تجعل مواجهتهم بـه قولا لهم ولو لم يخاطبوهم ، فافهم •

( ربَّنا هؤلاءِ ) الرؤساء ( أضلّونا ) عن الهدى بتزيين الكفر لنا ، ودعائهم إيانا إليه ، أو هؤلاء المتقدمون أضلونا بأن سنوا لنا الضلال فاقتدينا بهم ( فآتـهِم ) عذاباً ضِعْفاً ) مضاعفاً ( مِنَ النَّارِ ) لأنهم ضلوا وأضلوا •

( قالَ ) يقول الله ( لكلٍّ ) منكم أيها الأتباع ومن الرؤساء أو المتقدمين ( ضِعْفٌ ) لأن الرؤساء أو المتقدمين ضالون مضلون ، والأتباع ضالون مقلدون ، أو لأن الأتباع ضالون مضلون أيضا ، فلكل منهم ضعف ، لكن مضعف من ضل وأضل أكثر من ضعف ، من ضل ولم يضل ، قال أبو عبيدة : الضعف مثل الشيء ومرة واحدة ، قال الزجاج : ويستعمل أيضا بمعنى مرات ثلاث أو أكثر إلى ما لا نهاية له ، وعن بعضهم أن كون الضعف بمعنى مثل الشيء مرة واحدة بحيث لا يستعمل فى أكثر هو غير عربى ، وأن الضعف فى العربية زيادة مثل أو مثلين أو مثال ، وعن ابن مسعود : الضعف هنا الأفاعى والحيّات ( ولِكن لا تعلَمونَ ) وهذا الجواب رد لإرادة الأتباع اختصاص المتبوعين بالضعف لا إسعاف لهم ، ولو صح أن للمتبوع وزرين ، لكن ثبت للتابع وزران أيضا لما علمت ، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن من سن معصية فعليه وزره ووزر من تبعه فيها بدون ان ينقص من وزره شىء » والخطاب للأتباع والمتبوعين تغليبا للأتباع المخاطبين ، أو الخطاب للأتباع ، أى لا تعلمون ما لكم وما لمن تبعتم.

وأجاز بعضهم كون الخطاب للنبى وأمته ، وقرأ أبو بكر : لا يعلمون بالياء المثناة التحتية ، فيكون كلاما من الله ، أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر الأتباع ، أى لا يعلم الأتباع ، وفى أمرهم وأمر المتبوعين ، أى لا يعلم الأتباع والمتبوعون ، وروى حفص عن عاصم ، عن أبى بكر تعلمون بالفوقية .

( وقالَتْ أولاهُم ) بنقل ضمة الهمزة إلى التاء ، وصرف الهمزة وإشباع التاء بالواو والتى كانت إشباعا للهمزة قبل نقل حركتها وحذفها ، ومن لم ينقل سكن التاء ، وأثبت الهمزة مضمومة مشبعة بالواو ،

ولأخراهم متعلق بقالت ، وهذه اللام على أصلها ( فَمَا كانَ لَكُم عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ ) بل استوينا فى الضعف لاستوائنا فى الكفر ، عطفوا كلامهم على قوله تعالى للأتباع : « لكل ضعف » ورتبوه عليه ، والفضل التخيف عندى ، وقيل : الإيمان ، وعندى أن الرؤساء لم يفهموا معنى قوله تعالى : « لكل ضعف » فإن معناه لكل ضعف يناسبه ، فهو ضعف متفاوت ، وهم فهموا أن الضعف متساو ، فلذا قالوا : « فما كان لكم علينا من فضل » .

( فذُوقُوا العَذابَ بما كنْتُم تكْسبُون ) من الكفر والمعاصى ، هو من قول الأولى للأخرى ، أو من قول الله عز وجل للأولى والأخرى .

( إنَّ الَّذينَ كذَّبوا بآياتِنا واسْتكبرُوا عَنْها ) عن الإيمان بها ( لا تُفتَّح لهم أبوابُ السَّماءِ ) بالفوقية والبناء للمفعول والتشديد ، ووجه التشديد فى كثرة الأبواب ، أو المبالغة الراجعة للنفى ، أى انتفى انتفاء بليغا فتح الأبواب لهم ، أى المبالغة فى المنفى ، أى ليس لهم الفتح العظيم للأبواب كما هو للمؤمنين ، ولا يلزم من هذا أن يكون لهم فتح صغير ، وهذا كما يقول المفتخر الذى عنده جنان تشتمل على مائة نخلة لمن لا نخلة له : ليس لك جنان تشتمل على مائة نخلة ، وسهل ذلك أن ذلك الضعيف قد ظهر أنه ليس عنده ذلك ، وقد ظهر أن الكافر لا فتح له أصلا ، والمعنى أنه لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا بل تستفتح لهم فلا تفتح وترد إلى سجين ، كما تفتح لروح المؤمن إلى السماء السابعة وإلى عليين ، تصعد خبيثة منتنة وترجع كذلك ، ولا تمر بملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقال : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه كما فى حديث .

وقيل : لا يصعد بها أصلا ، ولا تفتح لأعمالهم وأقوالهم ودعائهم ، إنما يصعد إلى الله الكلم الطيب والعمل الصالح ، ولا تفتح لنزول البركة عليهم والخير ، ولا لدخول الجنة ، فإنها فى السماء ، وتفتح الأبواب لروح المؤمن حتى تصل السماء السابعة ، فتصلى عليها الملائكة المقربون وقرأ أبو عمرو : لا تفتح بضم التاء الأولى وإسكان الفاء ، وفتح الثانية مخففة ، وقرأ حمزة : لا يفتح بالمثناة التحتية مع البناء للمفعول ، والتخفيف كذلك إبقاء للأبواب على تذكيره بدون أن يعتبرها بمعنى الجماعة أو الجملة ، أو قد اعتبر ذلك فتكون مؤنثة ، لكن لم يؤنث الفعل لأن الفاعل ظاهر مجازى التأنيث ، وأيضا قد فصل فيجوز التذكير ، ولو كان حقيقى التأنيث ، وقرأ أبو حيوة : لا يفتح بالتحتية والبناء للمفعول والتشديد ، وقرىء : لا تفتح بالفوقية والبناء للفاعل والتخفيف ، ونصب الأبواب ففيه الآيات ، أى لا تفتح الآيات أبواب السماء لهم ، لأنهم لم يؤمنوا بها ، ولو آمنوا لفتحتها لها ، أى لكانت لهم سببا فى فتحها ، وقرىء لا يفتح بالتحتية والبناء للفاعل والتخفيف ، ونصب الأبواب أى لا يفتح الله لهم أبواب السماء .

( ولا يدْخُلون الجنَّة حتَّى يَلجَ ) يدخل ( الجَمَلُ ) البعير الذكر ( فى سَمِّ ) ثقب ( الخِيَاطِ ) الإبرة ، وليس بداخل أبدا ، فكذلك لا يدخلون الجنة أبداً ، والعرب إذا أرادت استحالة شىء علقته بالمحال ، وإذا أرادت وقوعه ولا بد علقته بواجب الوقوع ، والخياط صفة مبالغة فى الأصل لمن كثرت منه الخياطة ، وسميت بها الإبرة أو وصفت بها لكثرة الخياطة ، بها ، وسمى أيضا المخيط والمخياط بكسر ميمهما وإسكان خائهما وفتح يائهما ، والمخيط بفتحهما ، وبه قرأ طلحة ، وقرأ ابن مسعود المخيط بكسر الميم وفتح الياء ، وما ذكرته فى تفسير الجمل هو الصحيح .

وقد سئل عنه ابن مسعود رضى الله عنه فقال : زوج الناقة استجهالا للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف ، وعنه ولد الناقة ، وقرأ : متى يلج الجمل الأصفر ، وسئل عنه الحسن فقال : هو الجمل الذى يقوم بالمربد على أربع ، ومرة لما أكثروا عليه قال : هو الأشد وهو البعير الذكر بالفارسية ، ومرة قال : هو ولد الناقة ، وذلك أنهم يتشوفون إلى معنى آخر لما رأوا فيه من قراآت مختلفة كما تأتى إن شاء الله ، ولما يتبادر إليهم أن الأنسب أن يراد بـه الحبل الغليظ ، ولم يعلمـوا أن البعير أولى لأنه هو مما يمثل به فى عظم الجثة دون الحبل الغليظ ، وقد فسره ابن عباس بالحبل وقال : إن الله أحسن تشبيها من أن يشبه بالبعير ، يعنى أن الحبل مناسب للخيط الذى يسلك فى سم الإبرة والبعير لا يناسبه ، وما ذكرته أولى .

وفسره بعضهم بحبل السفينة الغليظ ، كما روى عن ابن عباس ، وابن جبير ، وسالم الأفطس وقرأ الجمل بضم الجيم وفتح الميم مخففة ، وعن ابن عباس الجمل بضم الجيم وفتح الميم مشددة ، وقال الكسائى : إن الذى روى تشديد الميم عن ابن عباس كان أعجمياً شدد الميم لعجمته ، وهذا ضعيف لكثرة أصحاب ابن عباس على التشديد ، وبه قرأ عكرمة ، ومجاهد ، وابن جبير ، والشعبى ، ومالك بن الشخير ، وأبورجاء ، وأبو رجاء ، وعن ابن جبير : الجمل بضم الجيم وإسكان الميم عن ابن عباس الجمل بضم الجيم والميم ، وهو لغة فى الجمل بمعنى البعير .

واعلم أن البعير يطلق على الذكر والأنثى من الإبل ، والجمل على الذكر ، وقد يطلق الجمل على الأنثى شذوذا ، وقرأ ابن سيرين بضم

سين سمى ، وقرأ بعضهم بكسرها ، وقرأ أبو حيوة بهما ، والجمهور على الفتح .

( وكَذَلكَ نَجْزِى المجْرِمينَ ) هم المكذبون ، وعبر عنهم بالظاهر الذى هو المجرمون تنبيها على أن تكذيبهم إجرام ، وأن كل من أجرم عوقب بذلك ، فإن الإجرام هو سبب العقاب أو أراد كل مجرم .

( لَهم مِنْ جَهَنَّم مِهادٌ ) فراش ( ومِن فَوقهِم غَوَاشٍ ) أغطية جمع غاشية وهى ما يتغطى به ، والمراد أن جهنم محيطة بهم من تحت ومن فوق ، وفى التعبير بالمهاد والغواشى تهكم ، فإن المهاد ما يفرش لنوم أو استراحة ، والغاشية ما يتغطى به النائم أو المستريح ، استعين لطبقات النار ، وقال الضحاك : الغواشى اللحف ، ومن جهنم حال من ضمير الاستقرار ، وكذا من فوقهم ، فإن ضمير الاستقرار المهاد وغواش كما تقول : الزيدون جاءوا ضاحكا مستبشرا ، أى جاء أحدهم ضاحكا ، والآخر مستبشرا والآخر فائزاً وتنوين غواش عوض عن الياء ، الأصل غواشى بضم الياء بلا تنوين حذف ضمها لثقله فتبعته الياء فنون ونسب لسيبويه .

وقال أبو على : ليس مذهب سيبويه ، وقيل لما حذفت الياء زال بناء مفاعل فصرف ، وقيل لما حذفت الضمة نون تعويضا عنها فحذفت الياء لئلا يلتقى ساكنان ، ويجوز الوقف عليه بإزالة التنوين ورد الياء ، والوقف بإسكان الشين ، واختاره بعض ، وقرىء غواش بضم منونا إلغاء للمحذوف ، فكان الإعراب على الغين كما حذفت لام هن وأخ ويد ونحو ذلك ، وأعربت على العين نحو : جاء أخ ، ورأيت أخاً ، ومررت بأخ .

( وكذلك نَجْزِى الظَّالمينَ ) هم المكذبون أيضا ، عبر عنهم بذلك إعلاماً بأن تكذيبهم ظلم لأنفسهم ، وكذا كذبهم وكبرهم ، أو أراد كل ظالم ، وذكر الإجرام فى جنب الحرمان من الجنة ، والظلم فى جنب التعذيب بالنار تنبيها على أنه أعظم الإجرام ، والإشارة إلى التعذيب بالنار .

( والَّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات لا نكلِّف نفْساً إلا وُسْعها ) طاقتها التى لا حرج فيها « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ما كلفنا إلا بما يسهل ، وقيل : الوسع بذل المجهود ورد بأن أكثر أهل الجنة لم يبذلوا مجهوداً ، بل امتثلوا الفرائض ، وفى طاقتهم أكثر منها ، ولم يستعملوها فى غيرها ، أو استعملوها فيها وفى نفل قليل ، وقد يجاب بأن المراد بذل المجهود فى الطاعة اللازمة للناس فى الجملة ، ووسعها منصوب على تقدير الباء ، أو مفعول ثان لنكلف مضمنا معنى نلزم ، وقرأ الأعمش : لا تكلف نفس ، وجملة « لا نكلف نفساً إلا وسعها » أو « لا تكلف نفس إلا وسعها » معترضة بين المبتدأ الذى هو الذين وخبره الذى هو .

( أولَئِكَ أصْحابُ الجنَّة ) للترغيب فى اكتساب ما لا يبلغ غايته ، وصف الواصف من النعيم والشرف بما هو يسير فى الطاقة ، لا يعجز النفس وللإعلام بأن الدين يسر ، ويجوز كون الخبر جملة « لا نكلف نفساً إلا وسعها » أو « لا تكلف نفس إلا وسعها » والرابط محذوف أى نفساً منهم أو نفس منهم .

( هُم فيها خَالدُونَ * ونَزَعنْا ما فى صُدُورِهم مِن غلٍّ ) فى عامة المؤمنين المذكورين يخرج الله ما كان فى قلوبهم من الحقد والحسد من بعض على بعض ، أو من بعض على غيرهم ، وذلك أن الإنسان ولو

كان مؤمناً لا يخلو من حقد وحسد مطبوعين فيه ، لكن المؤمن يزاولهما ويجاهدهما ، ولا يعمل بهما ، وإن عمل تاب وتخلص إلا من شاء الله فإنه لا يقعان فى قلبه أصلا وهو قليل ، أو يخرج من قلوبهم أسباب الغل والمصدق واحد ، فإن من أخرج الله من قلبه الحقد والحسد إلى ما لا نهاية له ، ومن أخرج منه أسبابهما كذلك ، سواء فى بقاء القلب على المودة واللذة والسرور ورؤية نفسه فى كمال أبدا ، حتى إنه لا يقع فى قلبه اشتهاء منزلة غيره ، وصاحب الغل فى عذاب وهم ، ولا عذاب ولا هم فى الجنة .

وروى أنهم يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص من بعض لبعض ، أى مما لا يمنع من دخول الجنة كمظلمة نسيها ، وقد تاب فى الجملة توبة نصوحا ، وكمظلمة لم يتوصل إلى خلاصها لعدم ماله ، وقد تاب نصوحا حتى إذا هديوا دخلوا الجنة ، واحدهم أهدى بمنزلة فيها منه بمنزله فى الدنيا ، وقيل : يشربون من عين فى أصل شجرة فى باب الجنة ، فينزع غلهم ، ويغسلون من عين أخرى فى أصلها فتجرى عليهم النظرة أبدا ، وقيل : نزل : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » الخ فى أهل بدر ، أى نزلت بسببهم ولفظها يعم المؤمنين ، فإنه لا يبقى غل فى قلب أحد من المؤمنين ، وفى الحديث : « الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين » وهذا تمثيل وكناية عن دخولهم الجنة ، ولا غل فيهم ، وعنه : أنه لا غل فى الجنة ، وإلا فالغل عرض لا يقوم بنفسه ، أو يخلقه الله جسماً يرى كمباركها كما يخلق الموت كبشا أو ككبش فيذبح ، واختار بعضهم هذا الوجه .

وقوله : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » إلى « بما كنتم تعملون » للصلح بين الناس ، والمتباغضين ، والاتفاق بين المتقاطعين يكتب بقلم

فارغ من المداد يجر على حلوى ، فتبقى فيها الحروف بالجر ، ويطعم من أريد صلحه واتفاقه ، وإن كتب على أوراق بعدد القوم ، أو تمر أو تين أو نبق ، من فعل ذلك بإذن الله ، وتكتب لوجع القلب فى إناء فخار جديد ، كما يخرج من تنور بزعفران ومـاء ورد ، ويمحى بمـاء بئر ويشرب منه •

( تَجْرِى من تَحتْهِمُ الأنْهارُ ) أى من تحت قصورهم وفرشهم من جانب ، فإن ما التصق بالأرض مطلق عليه أنه تجب ما كان منتصبا آخذا فى السماء ، وجرى الأنهار من تحتهم زيادة فى لذتهم وسرورهم •

( وقالُوا ) وهم فى الجنة ( الحمْدُ للهِ الَّذى هَدانا لهذَا ) أى إلى هذا الثواب العظيم ، والأجر الجسيم ، بأن وفقنا إلى موجبه وهو الإيمان والعمل الصالح ، أو لموجب ذلك ( وما كنَّا لنَهْتدِىَ ) اللازم لتأكيد النفى وهى لام الجحود ، أى لا مطمع فى اهتدائنا إلى ذلك ( لوْلا أنْ هَدانا اللهُ ) أن مصدرية ، والمصدر مبتدأ محـذوف الخبر ، أى لولا هداية الله إيانا موجودة ، والجواب محذوف دل عليه ما قبل لولا ، وقرأ ابن عامر : ما كنا لنهتدى بإسقاط الواو ، وكذا فى مصاحف أهل الشام ، وذلك جملة موضحة لما يفهم مما قبلها من أن المهتدى من هداه الله •

( لَقَدْ جاءتْ رُسُل ربِّنا بالحقِّ ) فاتبعناهم ، قالـوا ذلك سرورا أو تنجيما بما نالوا وتلذذا بالتكلم به لا تقربا وتعبدا كما نرى من حصل على ربح عظيم بأقرب كسب ، يذكر أسباب الربح ، وكيف فعل فربح ، ولا يملك نفسه عن ذكر ذلك •

( ونُودُوا ) يناديهم ملك أو يخلق الله لهم نداء ( أنْ ) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، والباء مقدرة أى بأنه ، أو مفسرة ، وكذا

فى المواضع الأربعة بعد هذه ، وإنما جاز التفسير لتقدم ما فيه معنى القول دون حروفه وهو النداء والتأذين ( تِلْكم الجنَّة ) أشير إليها بإشارة البعيد ، وهم فيها حاضرة لعلو شأنها ، أو لأنهم حين النداء ليسوا فى قصورهم وملكهم ، بل موضع بعيد عن ذلك منها ، فالبعد باعتبار ملكهم وقصورهم فيها ، وإلا فهم فيها ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وأن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبدا ، وأن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً ، وأن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً » فذلك قوله عز وجل : « ونودوا أن تلكم الجنة » ( أورِثتمُوها بما كُنتم تعمَلُون ) رواه أبوو هريرة وأبو سعيد الخدرى .

وقيل : ينادون إذا رأوا الجنة من بعيد قبل دخولها ، فإشارة البعد ظاهرة على حالها ، والجنة نعت أو بيان أو بدل ، وأورثتموها خبراً ، والجنة خبر ، وأورثتموها خبر ثان ، أو حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الجنة التى وعدوا بها فى الدنيا ، وأل فى الجنة للحضور ، أى الجنة الموعود لكم بها هى هذه الجنة ، وإشارة البعد على هذا واضحة على حالها ، وعلى هذا الوجه يتعين كون الجنة خبرا ، والجملة خبرا ثانيا أو حالا ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائى : أرثتموها بادغام الثاء ، ومعنى أورثتموها أعطيتموها ، وعبر بالإيراث ، كأن المؤمن يأخذ منزله فى الجنة ومنزل الكفار فيها ، والكافر منزله فى النار ومنزل المؤمن فيها ، وقد سمى الله الكافر ميتا والمؤمن حيا ، فأورث الحى منزل الميت ، أو عبر به لأن ذلك الثواب العظيم مخلف عن الإيمان والعمل الصالح ، كما يخلف الميت المال ، أو شبه مصير الجنة إليهم بمصير المال إلى الوارث ، والآية نص فى أن الجنة بالعمل .

ومن قال بالتفضل فمراده أن ذلك العمل الذى هو سببها إنما

وفقه الله إليه وقبله منه ، فضلا ورحمة ، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل الجنة أحد بعمله وإنما يدخلها برحمة الله » أن عمله لا يوجب الجنة ، وأنه ليس ثمنا لها وافيا بها ، وإنما هو رحمة من الله أهداها إليه ، وعن الحسن : دخولها برحمة الله ، وقسمتها بالأعمال ، أى يحسب الأعمال .

وفى الحديث : « الدرجة فوق الدرجة فى الجنة كما بين السماء والأرض فيرفع العبد بصره فيلمع له برق يكاد يخطف بصره فيقول : ما هذا ؟ فيقال : نور أخيك فلان ، فيقول كنا نعمل فى الدنيا على هكذا ، فيقال : إنه كان أحسن منك عملا ، ثم يجعل فى قلبه الرضا » وهذا بظاهره يدل أنه كان فى قلبه عدم الرضا أولا ، وفيه بحث ، ولعله تكون ثم لمجرد الترتيب الذكرى ، أو بمعنى الواو المهملة لا فى الحكم ، بل بحسب علو الشأن كأنه قيل : وأعظم من ذلك أن الرضا يكون فى قلبه بإذن الله لا بكسب .

( ونَادَى أصْحابُ الجنَّة أصْحابَ النَّار ) بعد دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يا أهل النار ( أنْ قَد وَجَدْنا مَا وَعَدنا ربُّنا ) فى الدنيا من الثواب على الإيمان والطاعة حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم من العذاب على الكفر والمعصية ( حقاً قالُوا نَعَم ) وإنما سمعوا مع أن الجنة فى السماء السابعة ، والنار فى الأرض أو تحت الأرض السابعة ، وبينهما أضعاف خمسمائة عام ، لأن الله سبحانه ، قوى الأصوات أو الأسماع أو كلها ، والمنادى من أهل الجنة من شاء الله لا كلهم ، أو ينادى من كان من أهل الجنة من يعرفه من الكفار فى الدنيا ، وذلك النداء تلذذ لأهل الجنة ، وغم لأهل النار ، شتم بهم .

وحذف مفعول ، وعد للعلم به ، وقد ذكر فى الأول ، أى فهل وجدتم ما وعد ربكم ، أو لأن مراد أهل الجنة بما وعدنا ربنا الثواب ، وبما وعد ربكم جميع ما وعد من البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، وسائر أحوال القيامة ، لأن الكفار مكذبون بذلك ، ولأن الموعود كله حتى تنعم أهل الجنة مما ساءهم ، فأطلق ليعم وقرأ الكسائى نعم بكسر العين ، ورويت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقرأها ابن وثاب والأعمش ، وهما نعتان قال شيخ من ولد الزبير : ما كنت أسمع أشياخ قريش يقولون إلا نعم بكسر العين ، ثم فقدتها بعد ، وعن قتادة ، عن رجل من خثعم قلت للنبى صلى الله عليه وسلم : أتزعم أنك نبى ؟ قال : « نعم » بكسر العين ، قال أبو حاتم : وهذه اللغة لا تعرف اليوم بالحرمين .

( فأذَّن مُؤَذِّن ) أعلم معلم بصوت رفيع ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو إسرافيل عليه السلام صاحب الصور وقيل ملك غيره ( بيْنهم ) بين الفريقين بحيث يسمعه كل ( أن لَعنةُ الله عَلى الظَّالمينَ ) وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائى ، أن لعنة الله بتشديد نون أن ونصب لعنة ، أى بأن لعنة الله وهى مقوية لوجه كون أن فى قراءة الإسكان مخففة ، وإنما قرأ أبو بكر ذلك فى رواية البرى وشبل وقرأ فى رواية قنبل بإسكان النون ورفع لعنة ، وقرأ الأعمش أن لعنة الله بكسر الهمزة وتشديد النون ، ونصب لعنة على تقدير القول ، أو لأن التأذين قول .

( الَّذينَ يصُدُّون ) يعرضون أو يمنعون الناس ( عَنْ سبَيلِ اللهِ ) وهو الإسلام والطاعة ، والذين نعت للظالمين ، أو لمنعوت الظالمين ، أو خبر لمحذوف على الذم : أو مفعول لمحذوف على الذم .

( وتبْغُونها ) أى سبيل الله ، فإن السبيل يؤنث ويذكر ، والتأنيث أكثر ( عِوجاً ) حال أى معوجة ، أو ذات عوج ، وصاحب الحال ضمير النصب ، أو معوجين ، أو ذوى عوج ، فصاحبه ضمير الرفع ، أو مفعول مسرح ليبغى ، على أن المتصل به فى تقدير المقيد ، الأصل يبغون لها عوجا ، أى يطابونه ، وعلى كل حال فالمعنى أنهم حاولوا أن يبدلوا دين الله ، وقيل : طلبوا سبيل الله بالعمل لغيره ، وتنظيم غيره كالصلاة والذبح للأصنام ، والعوج بكسر العين فى المعانى والأعيان غير المنتصبة ، وبفتحها فى المنتصبة كالحوائط والرمح .

( وهم بالآخرة كافرون * وبيْنهُما ) بين الفريقين لئلا يقتبس الكافر من نور المؤمن ، أو بين الجنة والنار لئلا يصل أثر أحدهما إلى الآخر ( حِجابٌ ) ستر وهو السور فى سورة الحديد .

( وعَلى الأعْرافِ ) أى الأعالى من ذلك الحجاب ، أو أل عوض عن الضمير أى أعاليه ، جمع عرف مستعار من عرف الديك لارتفاعه على ما سواه من جسده ، أو من عرف الفرس ، وقيل : العرف كلما ارتفع من الأرض ، وقيل : ما ارتفع من الأرض وغيرها ، فإنه يكون بظهوره أعرف من غيره ، وعن ابن عباس : الأعراف تل بين الجنة والنار ، وقال السدى : سمى ذلك الموضع بذلك لأن أصحابه يعرفون الناس ، قيل : وهذه عجمة .

وعن السدى وابن عباس : الأعراف الشىء المفرط ، وعنه أنه هو نفس الحجاب المذكور الذى هو السور المذكور فى سورة الحديد ، وقيل : هو أحد أو أعاليه ينقل إلى ذلك المقام ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن أحداً نحبنا ونحبه وإنه يمثل يوم القيامة بين الجنة والنار يحتبس عليه أقوام يعرفون كلا بسيماهم هم إن شاء الله من أهل الجنة وإن أحداً على ركن من أركان الجنة » .

( رجال" ) سعداء يحبسون عليه بين الجنة والنار عقابا لهم لكثرة تلذذهم بالمعاصى ، وقلة عبادتهم ، غير أنهم ماتوا على التوبة ، هــذا ما ظهر ، وعن حذيفة ، وابن مسعود ، وابن جبير ، والضحاك : قــوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، والميزان يرجح بمثقال ذرة ، ولم يرجح لهم وقد ماتوا على خير فيدخلون الجنة بعد القضاء بين الخلق ، فلسعادتهم وموتهم تائبين استحقوا الجنة ، ومحيت سيئاتهم بحسناتهم ، وحبسوا بعدم زيادة حسناتهم ، فلا إشكال ولو استشكله أو ستة ، ولا ينافى هذا كون سيئاتهم تبدل حسنات ، لأن أثر هذا الإبدال فى الدرجات ، أو لأن معنى الإبدال توفيقه إلى عمل الحسنات بدل السيئات •

ويقول حذيفة قال ابن عباس ، وقــالا : إن الله يأمر بهم إلى عين الحياة ، وحافتاه قضبان الذهب مكللة باللؤلؤ ، ترابه المسك ، يلقون فيه فتلمح ألوانهم وتبدو فى نحورهم شامة بيضاء ، يعرفون بها ، ويقال لهم : تمنوا ما شئتم ، فيتمنوا حتى تنقطع أمنيتهم ، فيقال لهم : ذلك وسبعون ضعفا بالموحدة ، ويدخلون الجنة ، ويعرفون بتلك الشامة ، ويسمون مساكين أهل الجنة ، وذلك بعد أن يستشفعوا الأنبياء فــلا يشفعون ، فيشفع فيهم نبينا •

وذكر الطبرى عن بعض ، عنه صلى الله عليه وسلم أنهم قوم قتلوا فى سبيل الله عصاة لآبائهم وأنهم آخر من يدخل الجنة ، ولم يصح هذا عنه صلى الله عليه وسلم ، لأن من مات عاقاً لوالديه لا يدخل الجنة أبداً ، كما تدل عليه الأحاديث ، وقال بن الجوزى : قوم أرضوا آباءهم دون أمهاتهم ، أو أمهاتهم دون آبائهم ، وفيه ما ذكرت ، وقيل : خرجوا إلى الجهاد بغير إذن آبائهم ، ولعله جهاد مســتغنى عنهم ، فانظر شرحى على النيل •

وعن ابن عباس : أنهم أولاد الزنى ، وفيه أنه لا تبعة عليهم أو نقصان يلحقهم من زنى آبائهم ، فضلا عن أن يحبسوا لذلك ، وقيل أهل الفترة ، وعندنا أهل الفترة إلى النار ، وقيل : أولاد المشركين وهو قريب ، وقيل : قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب فحبسوا لينالهم غم ، وهو حسن .

وعن ابن عباس : هم العباس وحمزة وعلى وجعفر ذو الجناحين ، وعندنا أنهم فى الولاية إلا علياً فإن الصحيح أنه لم يتب ، قال : يعرفون محبهم ببياض الوجوه ، ومبغضهم بسوادها ، وعند أصحاب الذنوب العظام ، ولا يصح عندنا هذا إلا إن ماتوا على التوبة ، فكان المحبس قصاصا ، وهم على كل قول من الأقوال السابقة آخر أهل الجنة دخولا ، وحبستهم قصاص .

وقال مجاهد : قوم صالحون فقهاء علماء ، فكونهم على الأعراف للتلذذ ، وليرى شرفهم ، وقيل : هم عدول القيامة يشهدون على الناس بأعمالهم ، وهم فى كل أمة ، واختاره النحاس ، وقال الزجاج ، وابن الأنبارى : أنبياء أجلسهم الله هناك تشريفا ، وليطلعوا على أهل الجنة والنار ، ومقادير الجزاء ، وقيل الشهداء كانوا هنا للشريف ، ولا بأس فى هذه الأقوال .

وقال أبو مجلز : لا حق بين حميدهم ملائكة موكلون على التمييز بين الكافر والمؤمن ، سماهم رجالا ، لأنهم بصورة الرجل ، ويخاطبون بخطاب الذكر ، وليسوا بإناث ، وقد ضعفه الطبرى ، بأن الرجل فى لسان العرب للذكر الآدمى .

( يَعْرِفُون كلاًّ ) من أهل الجنــة وأهل النــار ( بسِيماهُم )

بعلامتهم ، كبياض الوجوه ونضرتها ، وسواد الوجوه وزرقة العيون ، يعرفونهم بالسيماء إلهاماً أو مع تعليم الملائكة أن علامة كذا لأهل كذا ، ووزن سيما فعلى كذكرى ، فالياء أصل والألف للتأنيث من سام إبله إذا علمها وأرسلها فى المرعى ، وسام الشىء وسومه علمه ، أو من وسمه بمعنى علمه أيضا ، فقدمت السين على الواو ، وقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها كما قيل : إن الجاه من الوجــه ، فذلك قلب مكنى وهو تقــديم حرف على آخر ، باعتبار ذلك يكون الوزن عدلا إلا إن كان ذلك اشتقاقا كبيرا كجيد وجدب ، فالوزن فعلى أيضا وقد يرد ممدودا ، ويقال سيماء بزيادة ياء بعد الميم .

( ونادَوْا أصْحاب الجنَّة ) إذا نظروا إليهم ( أن سَلامٌ عليكم ) سلمكم الله سبحانه من الآفات ، وبلغكم مناكم ( لَم يدْخلُوها ) حينئذ ( وهم يَطْمعُون ) فى دخولها بعد ، قال الحسن : ما جعل الله ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم .

وقرىء : وهم طامعون ، وقرأ ابن لقيط : وهم ساخطون ولم يدخلوها مستأنف وهم يطمعون حال من الواو ، والضمائر لأصحاب الأعراف ، ويجوز كون لم يدخلوها نعت لرجال ، أو حال من واو نادوا ، أو الطمع فى دخول الجنة يرجح أن أصحاب الأعراف آدميون ، ولا يعين ذلك لجواز طمع الملائكة فى دخولها ليتلذذوا بذكر الله وخدمة أهل الجنة ، وينجوا من عذابه ، ويجوز أن يكون المعنى لم يدخلوها طامعين ، بل دخلوها وقد غلب عليهم الإياس ، ويؤيده قراءة ابن لقيط المذكورة ، ويجوز أن يكون جملة لم يدخلوها حالا من أصحاب والواو لهم ، أى نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة ، والحال أن أهل الجنة لم يدخلوها قبل ، وطمع أهل الأعراف لأن نورهم لم يطف كما طفى نور المنافقين .

( وإذا صُرِفَتْ ) وقرأ الأعمش قلبت ( أبصارُهم ) أبصار أصحاب أهل الأعراف ( تِلْقاء أصْحابِ النّار ) أى أثبت نظرهم فى جهة أصحاب النار وتجاههم ( قالُوا ) نعوذ بالله ( ربَّنا لا تَجْعلنا مَع القَوم الظّالمين ) أنفسهم بالشرك والمعاصى ، وهم أصحاب النار ، أى لا تجعلنا معهم فى النار ، وقال أبو مجلز : الهاء فى أبصارهم لأهل الجنة ، يقولون قبل دخولها وهم طامعون : ربنا لا تجعلنا الخ .

( ونَادَى أصْحابُ الأعْرافِ رجالاً ) من أهل الظلم والشرك رؤساء ( يعْرِفُونهم بسِيماهُم ) أى يعرفون أنهم من أهل النار بسماهم من سواد وجه ، وزرقة عين ، فالياء متعلقة بيعرفون ، وكما عرفوهم من أهل النار بالسيماء قد عرفوهم بأعيانهم أنهم فلان وفلان وفلان الذين كانوا فى الدنيا رؤساء لقوله :

( قالُوا ) أى أصحاب الأعراف ( ما أغْنى عَنْكم جَمْعكُم ) ما جمعتم من جنود وأموال وخدم ، وما استفهامية إنكارية مفعول لأغنى ، أى أى شىء جمعكم مفعول مطلق ، أى أى إغناء أغنى جمعكم ، أو نافية ، والمفعول محذوف ، أى لم يغن عنكم جمعكم شيئا ، ورجح بعضهم الأول .

( وما كُنْتم ) ( تَسْتكبرونَ ) عن الحق ، أو على الخلق ، وقرىء تستكثرون من الكثرة ، أو المعنى يعرفونهم بأعيانهم فلان وفلان وفلان ، الذين كانوا فى الدنيا رؤساء مشركين ، وفيهم سيماء يضافون إليها تدل أنهم من أهل النار ، فالباء متعلق بمحذوف حال من مفعول يعرفون ، أو يعرفونهم فى أعيانهم بعلاماتهم التى يعرفونهم بها فى الدنيا ولو عظمت الأجساد ، وتغيرت الوجوه والعيون ، فتعلق الباء بيعرف أو يعرفونهم رؤساء شرك بعلامات تدل على ذلك ، ولو لم يعرفوهم أنهم فلان وفلان متعلق بيعرف أيضا .

وهذه الأوجه صالحة مع كون أهل الأعراف بشرا ، ومع كونهم ملائكة ، والمشهور أنهم يعرفون أعيانهم ، قال الكلبى : ينادونهم : يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام ، يا فلان ، يا فلان فينظرون من النار إلى الجنة وبينهما الأعراف ، فيرون فيها من استضعفوه من المسلمين كعمار وسليمان وصهيب وحباب وبلال .

( أهؤلاء ) المسلمون الضعفاء مبتدأ ، والاستفهام تقرير ( الَّذين ) خبر ( أقسَمْتم ) بالله ( لا ينَالُهم اللهُ برحْمةٍ ) جواب أقسمتم ، أى حلفتم لا يدخلون الجنة ، وذلك كله من مقول أصحاب الأعراف ، قد قيل لهم : ( ادْخُلوا الجنَّة ) بفضل الله ورحمته حال كونكم :

( لا خَوفٌ علَيْكم ولا أنتُم تَحزَنُونَ ) فدخلوها كما رأيتموهم فيها ولا خوف عليهم ولا حزن ، وذلك كله من مقول أصحاب الأعراف قبل دخولهم الجنة ، وبعد دخول الضعفاء إياها والرؤساء النار ، وعند سحبهم إليها ، ويحتمل أن يكون أصحاب الأعراف ملائكة أو أنبياء أو مؤمنون شرفاء إذا قالوا إذ كفرت الرؤساء ذلك أشاروا إلى ضعفاء من المسلمين وهم خارج الجنة : أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، وقالوا لهم بإذن الله ادخلوا الجنة إلى آخره فيدخلونها .

وقيل : إذا قال أصحاب الأعراف للرؤساء : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ، قالت الرؤساء : قد دخل الجنة الناس دونكم ، والله لا تدخلونها أبدا ، فتقول الملائكة للرؤساء : أهؤلاء ، يعنون أصحاب الأعراف الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، وذلك إنكار على الرؤساء ، ثم يقولون لأصحاب الأعراف : ادخلوا الجنة الخ ، فحشوا الرؤساء ،

ويؤيد تفسيرى قراءة عكرمة : ادخلوا الجنة ، وقراءة طلحة بن مصرف ، وابن وثاب ، والنخعى : أدخلوا الجنة بقطع الهمزة والبناء للمفعول ، وأما قراءة الحسن ، وابن هرمز : أدخلوا بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الخاء فى ادخلوا أنفسكم أو أدخلوهم يا ملائكة الله قائلين لهم لا خوف عليكم الخ .

أو لا خوف عليكم مستأنف خطاب للذين تدخلهم الملائكة ، فموافقة لقراءة الجمهور فى الصلاحية بالأقوال ، ويجوز أن يكون قوله تعالى : « ادخلوا الجنة » الخ فى أهل الأعراف بعد أن حبسوا ونظروا إلى الفريقين ، وعرفوهم وقالوا ما قالوا بدون أن يحلف الكفار قصدوهم بقسمهم ، بل قصدوا الضعفاء ، وتبين فى الآيات أن الجزاء والتقدم والتأخر بحسب الأعمال ، وأن العصاة يوبخهم المحسن والمسىء ، وكأنك فى ذلك اليوم ، فارغب فى حال السابقين .

( ونَادَى أصْحابُ النّار أصْحابَ الجنّة أنْ أفيضُوا علينَا مِنَ الماءِ أو ممّا رَزَقكُم اللهُ ) من سائر الأشربة أو الطعام المائع ، بدليل الإضافة ، أو الأصل أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة ، كقوله :

* علَفْتها تبناً وماءً بارداً *

أى وسقيتها ماء بارداً ، أو يضمن أفيضوا معنى ألقوا ، فيصلح للمائع وغيره بلا تقدير ، وقولهم : أفيضوا علينا دليل على أن الجنة فوق النار ، وإنما طلبوا ذلك مع يأسهم من الإجابة تحيرا كما يفعل المضمر الممتحن ، أو لما رأوا أصحاب الأعراف دخلوا الجنة طمعوا فى

الفرج كما قال ابن عباس ، فيقولون : لو رأينا قرابتنا من أهل الجنة يا ربنا وكلمناهم ، فيشرف عليهم أهل الجنة غير عارفين لهم لتغير النار وجوههم ، فينادى الرجل أباه أو أخاه قد احترقت [ وجوههم ] أفض علىّ من الماء ، وجعت ألق إلىّ طعاما وذلك لشدة عطشـهم وجوعهم عقوبة على الكفر والمعاصى ، ولأن شـهوتهم فى الدنيـا الشراب والأكل فعذبوا بفقدهمـا فسألوهما لاعتيـادهم ذلك النداء ، وجوابـه الآتى بإشراف أهل الجنة عليهم أولا ، لأنه أنكى وأخزى ، ويجوز أن يكون ذلك وأهل الجنة غير مشرفين عليهم وبينهم السور وهو سور شفاف .

( قالـُوا ) أى أصحاب الجنة ( إنّ الله حرّمهما عَلى الكافِرِين ) جواب منهم بأمر الله متضمن للحرمان وعبروا لضمير الاثنين مع أن أهل النار تكلموا ، بأو إمـا إيضاحا لتحريم الماء ومـا رزقوا معـا بحيث لا يتمسكوا بأحد منهما ، ولا يطمعوا فيه ، أو لأن أو فى كلامهم بمعنى الواو لأنه تجوز التثنية بعد أو ، ومعنى تحريمهما على الكافرين منعهما منهم ، وعدم وصولهم إليهما ، أو شبههما بما حرم من القول أو الفعل أو الاعتقاد على المكلف أن يفعله ، وإنما قدموا الماء لأن العطش أشد من الجوع ، قال صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة الصدقة بالماء » أى عند الحاجة إليه ، واستسقى الشعبى عند مصعب فقال لـه : أى الأشربة تحب ؟ فقال : أهونها موجودا ، وأعزها مفقودا ، فقال مصعب : يا غلام هات الماء .

( الـّذين ) نعت أو ذم ( اتـّخـذوا دِينَـهم لـَهـواً وَلعبـاً ) أى اتخذوا دين الله لهواً ولعباً ، وأضيف إليهم لأنه واجب عليهم ، ومكلفون به ، وذلك أنهم يسخرون من الداعى إليـه ، ويهزءون بـه ، ويتصرفون معه تصرف المشتغل بما لا ينفعه من قول أو فعل ، وعن ابن عباس : هم المستهزئون الذين جعلوا القرآن عضين ، وقيل : المعنى

الذين اتخذوا لأنفسهم دينا هو لعب ولهو ، كتحريم البحيرة ، والتصدية حول البيت ، وقيل : الدّين العيد يلهون فيه ويلعبون ولا يذكرون الله ، واللهو طرح الهم لا يحسن أن يطرح به ، واللعب جلب الفرح بما لا يحسن أن يجلب به •

( وغرّتهم ) خدعتهم ( الحياة الدّنيا ) بنفع لا يدوم ولا يتخلص من كدورة عن النفع الدائم المتخلص عنه ، العظيم الذى لا يشبهه نفع ، ويجوز أن يكون من الغر بمعنى ملء الفم أى أشبعتهم وأبطرتهم ، وذلك من كلام أهل الجنة ، قيل : أو من كلام الله •

( فَاليـوم ) يوم القيامة الحاضر ، وهذا من كلام الله ( نَنْساهُم ) نفعل بهم فعل إنسان نسى آخر كعبده فى ضر ، فتركهم فى النار عطاشا جياعا ( كما نسُوا لقاءَ يومهِم هذا ) كما فعلوا بلقاء هذا اليـوم فعل الناسين ، فلم يستعدوا له ، وقد علموا أنه آتٍ لا بد ، وكما لـم يخطر ببالهم وإن ذكروا به نسوه ، لأنهم لا يؤمنون به ، فالنسيان فى الموضعين بمعنى التناسى أو الترك ، أو الأول بمعنى أحدهما ، والثانى على أصله فعبر أولا به على المناسبة •

( ومَا كانُوا بآياتنا يجْحدُونَ ) ما فى الموضعين مصدرية ، أى كنسيانهم لقاء يوم القيامة ، وجحدهم أن تكون الآيات منا ، أو أجيز كون ما الثانية صلة ، وكانوا مستأنف أو معطوف على غرتهم الحيـاة الدنيا ، وعلى نسوا ، وهذا دليل على أن المراد بالكافرين المشركون والمنافقون الذين أسروا الشرك لا المشركون والمنـافقون مطلقا فـإن الموحد صاحب الكبائر لا يجحد الآيات إن أن تجعل ما نافية ، أى وما كانوا كلهم مشركين ، بل بعضهم مشرك وبعض منافق أسر شركا ، وبعض منافق موحد •

( ولَقَدْ جئناهم ) هذا الكلام فى هذه الأمــة ، ( بكتابٍ ) هــو القرآن وتنكيره تعظيم ، والباء معاقبة لهمزة التعدية ، كأنه قيل : ولقد جئنا كتابا إليهم ، وزعم بعضهم أن الكلام فيمن تقدم ذكره عموما ، وأن الكتاب جنس كتب الله سبحانه ( فَصَّلْناهُ ) بينا عقائدا وأحكاما ومواعظ ، وقرأ ابن محيصن : فضلناه بالإعجام ، أى فضلناه على سائر الكتب ، ( على علم ) متعلق حال من الهاء ، أى فصلناه مشتملا عَلَى عِلمٍ أو من ناب ثابتين بعلم ، والمراد عالمين بوجه تفصيله ، فيكون فى غاية الحكمة ، أو فضلناه على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك ، ومعنى كون الله سبحانه عالما أن ذاته كافية فى انكشاف المعلومات لا عالم بعلم زائد حال فى الذات ، تعالى أن يكون محلا للأشــياء ، أو أن يكــون محلا له ، وإلا لزم اتصافه بالجهل قبل أن يحل فيه العلم ، فإن قالوا : إنه حال فيه قديم تناقض كلامهم ، فإن الحال الحادث غير قديم ، ولزمهم تعدد القدماء ، فلا يقال : عالم بعلم ، هذا ما يليق بمذهبنا .

( هُدًى ورحْمةً ) مفعول لأجله لجئنا أو لفصلنا ، أو حال مــن هاء فصلناه مجىء الحال مصدرا مبــالغة ويأول بالوصــف أو التقدير الإضافة ( لِقومٍ يؤمنُونَ ) وأما غيرهم فلو خوطب به وكلف لكنه غير منتفع به .

( هَلْ ينْظرُونَ ) ينتظرون ( إلاَّ تأويلَهُ ) ما يؤل إليه أمره من تبيين صدقه بظهور ما فيه من الوعد والوعيد ، وقد تبين لهم موقعة بدر وفتح مكة وسائر القرى ، ومسيرون يوم القيامة فالتأويل بلــوغ المال ، والعاقبة من آل يؤول وقد قال ابن عباس : تأويله مــاله يــوم القيامة ، وقيل : التأويل بلوغ أوله ، أى أهل ينظرون إلا بلوغ ما جاء به أولا وابتداء من وعده ووعيده ، وقيل : هل ينظرون إلا أولى وجوهــه

وأحسنها لأنفسهم بأن قالوا : إن وعده لنا كما خصنا بنعم فى الدنيا أو أولاها بالقصد ، وهو الوعد والوعيد ، ورد الله عز وجل عليهم بأنه إذا جاء تأويله قطع عذرهم ولم يراجعوا خيرا ، ويقرون حيث لا ينفع الإقرار إذ قال :

( يَوْمَ ) متعلق بيقول وهو يوم القيامة ( يأتى تأويله يقولُ الَّذين نَسُوهُ ) أى الكتاب ( مِن قَبلُ ) الأصل يقولون ، فوضع الظاهر تشنيعا عليهم بنسيان مالا يحسن نسيانه والنقلة عنه ، ونسيانه ترك الإيمان به ، أو العمل به ، وهذا يحسن كون النسيان المتقدم بمعنى الترك فيما قيل .

( قَدْ جاءتْ رسُلُ ربِّنا بالحقِّ ) كل يؤمن يومئذ بنبيه ونبى غيره ، وكل نبى مرسل قد أخبر عن غيره من الأنبياء ، أى تبين الآن أن ما جاءت به الرسل فى الدنيا حق ( فَهَل لَنا مِنْ شُفعاءَ فيشْفَعوا لنا ) بالنصب فى جواب الاستفهام ( أو نُرَدُّ ) معطوف على لنا من شفعاء المتسلط ، عليه الاستفهام ، فالاستفهام متسلط عليه أيضا ولذلك أعقبه بجواب منصوب إذ قال ( فَنَعْمَل ) كأنه قيل : أو هل نرد إلى الدنيا فنعمل ( غَيرَ الَّذى كنَّا نعْملُ ) نبدل الكفر والمعصية بالإيمان والطاعة ، ولو ردوا لعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعصية فى الدنيا باختيارهم السابق علم الله ، وقرأ ابن أبى إسحاق ، وأبو حيوة بنصب نرد عطفا على يشفعوا ، أى فيشفعوا لنا بدخول الجنة ، أو نرد إلى الدنيا بشفاعتهم فنعمل ما ينبغى ، أو بمعنى حتى ، أو كى يدومون فى الاستشفاع حتى نرد ، أو يشفعوا لنا فى الرد كى نرد ، فيكونون قد طلبوا الرد فقط ، وعلى هذه القراءة فنصب نعمل بالعطف على نرد ، وقرأ الحسن برفع نرد

ونعمل بعطف نرد على لنا من شفعاء ، واستئناف نعمل أى فنحن نعمل ، والمشهور عنه نصب نرد على أحد الأوجه ، ورفع نعمل على الاستئناف ،

( قَدْ خَسِرُوا أنفُسَهم ) بالكفر والمعاصى ( وَضَلَّ ) غاب وبطل ولم ينفع ، وما لم ينفع فهو كنائب غير حاضر ( عنْهم ما كانوا يفْتَرُونَ ) من أن الأصنام تشفع لهم ، وأن لهم خير الآخرة إن كانت كما كان لهم فى الدنيا .

( إنَّ ربَّكم اللهُ الذِى خَلَقَ السَّموات والأرضَ فى ستَّةِ أيَّامٍ ) أى فى ستة أوقات ، أو فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، والأول أنسب وأتم حينئذ ، وقال الجمهور : كل يوم ألف سنة ، وهو قادر على خلقهن فى أقل من لحظة تعليما لخلقه التثبت ، والثانى فى الأمور ، ولأن خلق شىء فشىء أبلغ فى القدرة والدلالة ، وأنفى لما قد يخطر بالبال لو خلق دفعة من أن ذلك وقع على سبيل الاتفاق ، ولأنه أراد أن يخلق كل يوم شيئا تستعظمه الملائكة وغيرها ممن شاهد إن كان معهم سواهم ، وإن قلنا : التعجل فى الخلق أبلغ فى القدرة ، فالتثبيت أبلغ فى الحكمة فأظهره فى خلق ما شاء فى كل يوم على حدة ، كما أظهر قدرته فى خلقها بكن ، فإن خلقه لها ليس بمعالجة كمعالجة البنَّاء والطيَّان ، بل أراد وجوداً فوجدت لا على مثال سبق ، فإن الخلق إيجاد بلا قياس إلى موجود ، وهذا هو المراد ، ويستعمل فى اللغة بمعنى التقدير المستقيم وقيل : هو الأصل .

وروى مسلم أن الله خلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد والشجر يوم الاثنين ، والظلمات يوم الثلاثاء والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم بعد العصر من يوم الجمعة ، وليس

بصحيح عنه صلى الله عليه وسلم لمخالفته هذه الآية ، وقوله : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام » لأن فيــه سبعة أيــام ، والجواب أنه خلق التربة يوم السبت من غير أن يخلقها أرضا ، وهــو جواب ضعيف ، وسمى يوم السبت لأنه قطع فيه بعض الخلق أى أوجده ، والسبت القطع •

والصحيح قول عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد ، وختمه يوم الجمعة ، فأول الأيام الأحد ، وآخرها السبت ، سمى لانقطاع الخلق عنه فاختاره اليهود للراحة ، وسمى يوم الجمعة لتمام الخلق فيه واجتماعه ، وسائر الأيام على ترتيبه فى الوجود واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ، وقيل : خلق التربة يوم الأحد والاثنين ، والسموات فى الثلاثاء والأربعاء ، وبسط الأرض وأخرج ماءها ومرعاها ، وخلق دوابها ووحشها وما فيها فى الخميس والجمعة ، وخلق آدم آخر الخلق فى آخر الساعة الأخيرة من الجمعة •

وقيل : خلق التربة فى يوم الأحد ، والسموات فى الاثنين والثلاثاء ، وبسط الأرض وخلق ما فيها فى الخميس ، وآدم فى الجمعة وأهبطه ، وجرى فى آخر ساعاتها •

وقيل : أول ما خلق بعد نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، القلم ، ثم اللوح ، وأثبت فيه ما يكون ، ثم الظلمة والنور ، ثم العرش ثم الكرسى من درة بيضاء ، ثم التربة ، ثم السموات والنجم والشمس والقمر ، ثم مد الأرض من التربة ، ثم خلق ما فيها •

وذكر ثابت السرقسطى : أن الله خلق التربة يوم السبت ، وذكره

مكى أيضا ، وفى عرائس القرآن : أن الله سبحانه خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ، ثم نظر إليها نظر هيبة أى وجه إليها الهيبة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء يعنى النظر المذكور مفسراً فعلا ، وارتفع منه زبد ودخان ، وارتعد من خشية الله ، فمن ثم يرعد الماء إلى يوم القيامة ، وخلق من ذلك الدخان السماء ، وخلق من ذلك الزبد الأرض ، فأول ما ظهر منها على الماء أرض مكة ، بسط الأرض من تحتها وفتقها سبعا ، وبعث ملكا من تحت العرش فهبط إلى الأرض السابعة فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب قابضتان على سائر الأرضين ، وكانت الأرض تتكفأ على الماء كالسفينة ، وأرساها بالجبال ، وعن على : أنها تحركت وضجت : يا رب يعمل بنو آدم على الخطايا ، وخلق الجبال وأرساها بها ، وبين كل أرض وأخرى خمسمائة عام ، وغلظ كل أرض كذلك .

قال عبد الله بن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : الريح مسجون فى الأرض الثانية ، وخلق فى الثالثة خلقاً وجوههم وجوه بنى آدم ، وأفواههم أفواه الكلاب ، وأيديهم أيدى الإنسان ، وأرجلهم أرجل البقر ، وأذنابهم أذناب المعز ، وأشعارهم كصوف الغنم ، لا يعصون الله طرفة عين ، لا يثابون بالجنة ، نهارهم ليلنا ، وليلنا نهارهم ، وفى الرابعة حجارة كبريت لأهل النار تسجر بها النار ، وفى الخامسة عقارب أهل النار كالبغال لها أذناب كالرماح ، فى كل ذنب ثلاثمائة وستون فقرة ، فى كل فقرة ثلاثمائة وستون قلة من سم ، وحياتهم بكل حية ثمانية عشر ألف ناب ، الناب كالنخلة العظيمة ، فى أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من السم ، وفى السادسة دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم وتسمى سجّينا ، وفى السابعة إبليس وجنوده وعرشه .

وعن سلمة بن كهل : الجنة اليوم فى السماء السابعة ، ويجعلها الله يوم القيامة حيث شاء ، والنار فى الأرض السفلى ، ويجعلها الله يوم القيامة حيث شاء ، وقيل : الجنة على يمين العرش فى الآخرة ، وتحته فى الدنيا فى السماء السابعة ، وقيل : فى السادسة ، والنـــار فى الدنيا تحت الأرض السابعة ، وفى الآخرة عن يسار العرش ، والجنة خلقت قبل النار ، وقيل ستوجدان ، وتوقف التفتازانى ، وتسمى الأولى أديماً والثانية بسطا ، والثالثة إفيلا ، والرابعــة بطيحا ، والخامسة قلــة ، والســادسة ماكسة ، والسابعة ثورى كمــا فى عرائس القرآن •

وذكر الثلاثى : أن تحت الأولى الريح العقيم المزمومة بسبعين زماما ، المحيط بها سبعون ألف ملك ، وبها أهلك الله قوم عاد ، وسكانها قوم يقال لهم البرسم ، وأن الثانية تسمى الحادة وفيها أضاف العذاب لأهل النار والجن المؤمنون ، والثالثة تسمى هاوية وفيها عفاريت من جنود إبليس يعذبون بأصناف العذاب ، والرابعة تسمى الجرباء فيها حيات كالجبال لأهل النار لكل حية أنياب كالنخلة الطويلة ، لو ضربت به أعظم جبل فى الأرض لجعلته رميما ، سكنها قوم يقال لهم الجاهات ليس لهم أقدام ولا عيون ، والخامسة تسمى فلتا فيها حجر الكبريت لأهل النار ، سكنها قوم يقال لهم الخيلة لا يعلم عددهم إلا الله ، يأكل بعضهم بعضا ، والسادسة تسمى سجين ، سكنها قوم يقال لهم العطاكث على صوة الطير لا يعرفون الله ، والسابعة تسمى العجيبة فيها إبليس وجنوده الكفار ، لهم مخالب كمخالب السباع ، وهم الذين يسلطون على يأجوج ومأجوج •

وإن أول الأيام يوم الأحد ، وفيه خلق السموات والأرض ، ثم يوم الاثنين وخلق فيه الشمس والقمر والنجوم ، ثم يوم الثلاثاء وخلق فيه

دواب البحر وطيور السماء ، ثم يوم الأربعاء وأجرى فيه الأنهار وأنبت فيه الأشجار ، وقدر فيه الأقدار ، وقسم الأرزاق ، ثم يوم الخميس وفيه خلق الجنة والنار ، ثم يوم الجمعة وخلق فيه آدم وروح حواء ، وتم الخلق فيه قال ابن عباس : ولذلك اتخذه المسلمون عيداً ولا بطء فى خلقه الشىء ولا علاج ، بل إذا حضر وقت خلق شىء خلقه فى أسرع ما يكون ، ووجه الجمع بين قول بعضهم : إن الأرض خلقت فى يوم ، وقوله سبحانه : « خلق الأرض فى يومين » أن أصلها خلق فى يوم ، والفتق والبسط فى يوم آخر وهو ضعيف ، والأقرب بطلان القول بأن خلقها فى يوم ، لقول الله إنه خلقها فى يومين ، والمتبادر من خلقها فى يومين أنه أوجدها فى يومين .

وقيل : أول ما خلق القصب ، ثم خلق منها القلم ، وزعم بعضهم أن الأرض كانت تميد كالسفينة ، فخلق ملكا فى نهاية العظم والقوة دخل تحتها وجعلها على منكبيه ، وأخرج يداً من المشرق ويداً من المغرب ، وقبض على أطرافها فأمسكها ، والصواب أنه إنما أمسكها عن الميْدِ الجبال ، كما أخبر الله تعالى أنه أرساها بالجبال ، والأرض خلقت قبل السماء ، وقيل : بعدها ، ويأتى الجمع بينهما .

وقيل : خلق الأرض يوم الأحد والاثنين ، والجبال يوم الثلاثاء ، والأنهار والأقوات يوم الأربعاء ، والسموات والملائكة يوم الخميس ، وخلق فى الساعة الأولى من الجمعة الأجل ، وفى الثانية الأمة ، وفى الثالثة آدم ، وقيل خلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والخير يوم الاثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم بعد عصر الجمعة ، والساعات النهارية ما بين العصر والمغرب .

وقيل : الأوى الرمكا تحتها الريح المذكور ، والثانية جلدة وهى من حديد فيها عقارب النار ، والثالثة عرفة فيها أصناف عذاب النار ، والرابعة الجرباء فيها حياتها ، والخامسة فلتا فيها كبريت النار ، والسادسة سجين فيها دودها ، والسابعة عجيبا فيها إبليس وجنوده وأرواح الفجار عند خد إبليس والله أعلم .

وهذا مروى عن المسيح عيسى ، قال بعض : خلق الله قبل العرش ثلاثة أشياء : الهواء ، والنور والعلم ، وعن بعضهم أن فى الأرض التى تحت هذه حجارة أهل النار ، وفى التى تليها الريح العقيم ، وفى التى تليها حياتهم ، وفى التى تليها إبليس وجنوده ، وقيل : الريح العقيم فى الثانية ، وفى الثالثة حجارة أهل النار ، وفى الرابعة عقاربهم ، وفى الخامسة حياتهم ، وفى السادسة كبريتهم ، وفى السابعة إبليس .

وقيل : فى الثانية الريح ، وفى الثاثة حجارتهم ، وفى الرابعة كبريتهم ، وفى الخامسة حياتهم ، وفى السادسة عقاربهم ، وفى السابعة سقر ، وإبليس مصفد بالحديد ، يد خلفه ويد أمامه ، ويطلقه الله لما شاء .

والسموات سبع ، قال وهب : كادت الأشياء أن تكون سبعة ، السموات سبع ، والأرضون سبع ، والبحار سبعة ، والدنيا سبعة آلاف سنة ، والأيام سبعة ، وأبواب النار سبعة ، ودركاتها سبع ، وامتحن يوسف بسبع سنين حبس فيها ، ورأى سبع بقرات سمان ، وسبع سنبلات خضر ، وسبعا يابسات ، وأتى الله جل جلاله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم سبعاً من المثانى ، وأمر الإنسان بالسجود على سبعة أعضاء ، وخلق من سبعة « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة » إلى « الخالقين » وطعامه من سبعة « فلينظر الإنسان إلى طعامه » إلى « متاعا لكم ولأنعامكم » .

قال الربيع بن أنس : سماء الدنيا موج مكفوف ، والثانية صخرة ، والثالثة حديد ، والرابعة نحاس ، والخامسة فضة ، والسادسة ذهب ، والسابعة نور ، بين كل سماء وأخرى خمسمائة سنة ، وكذا غلظ كل ، وذلك المشهور ، وقيل : بين كل وأخرى ثلاث وسبعون سنة .

قال وهب بن منبه : الأولى سماء الدنيا ، والثانية رتقا ، والثالثة رفيع ، والرابعة قبلون ، والخامسة طبطـاب ، والسادسة سمسـاق ، والسابعة قابل .

وقال الضحاك : ومقاتل : الأولى كلون الحديد المحلى اسمها الرفيع فيها ملائكة وكّلوا بالسحاب والمطر ، يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت .

والثانية كالنحاس فيها ملائكة على ألوان يقولون : سبحان ذى العز والجبروت ، وملك اسمه حبيب نصفه نار ونصفه ثلج ، يقـول : سبحان المؤلف بين الثلج والنار اللهم ألف بين قلوب عبادك المؤمنين .

والثالثة تسمى الماعون فيها ملائكة المنك بجناحين أو أربعة أو ستة ووجوه شتى ، والسن شتى ، وأصوات شتى يقولون : سبحان الدائم الذى لا يموت .

والرابعة كالفضة واسمها أريلون فيها ملائكة قيام وركوع وسجود ، لا يدرى واحد منهم مَن بجنبه لشـدة عبادتهم يقولون : سـبوح قدوس ، ربنا الرحمن الذى لا إله إلا هو .

والخامسة كالذهب واسمها الساحقون ملائكتها ركع سجد ، لن

يرفعوا أبصارهم إلا يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : ربنا لم نعبدك حق عبادتك .

والسادسة فيها الكروبيون لا يحصى عددهم وهى كياقوت أحمر ، واسمها عاروس .

والسابعة كدرة بيضاء تسمى الرفيع ، وكل سماء ملائكتها ضعف ملائكة سماء تحتها كذلك فى عرائس القرآن وفيه ضعف من جهة الناسخ .

وقيل : الأولى من زبرجدة خضراء ، والثانية من ياقوتة حمراء ، والثالثة من ياقوتة صفراء ، والرابعة من فضة بيضاء ، والخامسة من الذهب ، والسادسة من الدر ، والسابعة من نور يتلألأ ، وملائكة الأولى بصورة البقر ، والملك الموكل عليهم إسماعيل ، وملائكة الثانية بصورة النعام ، والموكل عليهم ميطائيل ، وملائكة الثالثة بصورة النسر ، والموكل عليهم تائيل ، وملائكة الرابعة بصورة الخيل ، والموكل عليهم صاميائيل ، وملائكة الخامسة بصور الحور العين ، والموكل عليهم عنيائيل ، وملائكة السادسة بصورة الولدان ، والموكل عليهم ميخائيل ، وملائكة السابعة بصورة الإنسان آدم ، والموكل عليهم إلى العرش دردائيل .

وقيل : السماء الأولى رقيقا من زمردة خضراء ، والثانية دقلون من فضة بيضاء ، ملائكتها قيام ، والثانية قيدوم ، وقيل عينا من ياقوتة حمراء ، ملائكتها راكعون ملتصقون ، لو قطرت قطرة لم تجد منفذا ، والرابعة عرداء ، وقيل ماعونا من درة بيضاء ، ملائكتها ساجدون ، والخامسة دبقا ، وقيل سجيون من ذهب أحمر ، ملائكتها على وجوههم وبطونهم بكاءون ، والسادسة فنا ، وقيل عذريا ، من ياقوتة صفراء

ملائكتها قعود ترتعد أجسادهم ، وتهتز رءوسهم لهم أصوات عالية بالتسبيح والتقديس ، لو قاموا على أرجلهم لبلغت تخوم الأرض السابعة ، ورءوسهم فوق السماء السابعة ، ويقومون يوم القيامة ، والسابعة عربيا ، وقيل سمعو من نور وملائكتها قائمون على رجل واحدة تعظيما لله عز وجل ، وإشفاقا من عذابه ، وأرجلهم تحت الأرض السابعة بخمسمائة عام ، ورءوسهم تحت العرش ، يقولون : لا إله إلا الله ذو العرش المجيد والرفيع ، سبحان رب الملك والملكوت ، سبحان ذى القوة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، يميت الخلائق ، سبوح قدوس ، رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس ، ربنا الأعلى ، سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء ، ويستغفرون للمؤمنين ، ثم يعودون إلى التسبيح والتحميد .

وقيل : الأولى موج مكفوف ، والثانية من مرة بيضاء ، والثالثة حديد ، والرابعة نحاس ، والخامسة فضة ، والسادسة ذهب ، والسابعة ياقوتة حمراء ، وقيل : ملائكة الأولى خلقوا من نار وريح ، والموكل عليهم ملك يسمى الرعد ، موكل بالسحاب والمطر يقول : سبحان ذى الملك والملكوت ، والثانية على لون الشمس ، ملائكتها يقولون : سبحان ذى العز والجبروت ، وتسمى قيدوم ، وفيها الملك المذكور أنه نصفه من ثلج ونصفه من نار ، وأنه يقول كذا ، والثالثة الماعون إلى آخر ما مر عن عرائس القرآن .

( ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ) الترتيب والمهلة اللذين أفادتها ، ثم هما بحسب عظمة العرش وعلوه شأنا ، ومسافة كما يأتى إن شاء الله ، أو ثم بمعنى الواو أو للاستئناف ، وذلك أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض ، واستوى بمعنى استولى بالملك والغلبة والقوة ، والتصرف

فيه كيف شاء ، والعرش جسم عظيم وذلك مذهبنا ومذهب المعتزلة وأبى المعالى وغيره من حذاق المتكلمين ، وخص العرش بذكر الاستيلاء لعظمه ، ويصح أن يكون المعنى استوى أمره ولم يكن فيه عوج ، فكنى عن ذلك باستوى على العرش .

وقال سفيان الثورى : فعل فعلا فى العرش سماه استواء وأبهمه كما فعل فعلا سماه رزقا وغير ذلك ، وذلك الفعل بعد خلق السموات والأرض بمدة ، فتم على أصلها وظاهرها ، وبذلك قال أبو الحسن الأشعرى ، وقيل : استوى بمعنى علا علو شأن ، وتنزه عن الحلول ، أى تعالى عن الحلول على العرش ، والعرش ملكه مخلوقاته ، فقيل : صفة فعل ، وقيل : صفة ذات ، وقيل : العرش مصدر بمعنى العلو أى أعلى العلو بمعنى أنه علا شأنه كل العلو ، وأجيز أن يكون استوى لمعنى قصد ، وعلى بمعنى إلى ، أى قصد إلى فعل شىء فى العرش ، أو استوى بمعنى كمل ، وعلى بمعنى الباء أى كمل الخلق بالعرش ولو سبق خلقه كما تعد مثلا تسعة وتسعين درهما ، وتقول : كملت المائة بالذى فى الكيس .

وزعم بعض أن استوى اسم لمخلوق كان فوق العرش ، أو الملك موكل بالعرش كما تقول : فلان على البصرة تريد أنه والى أمرها ، ويرده أن الفعل المسمى به تقطع همزته ، ويجوز أن يكون المعنى علا شأنه واستقام ملكه ، فذلك مجاز ، فليس العرش جسما مرادا ولا شيئا موجودا ، بل استعارة وكناية من سرير الملك ، أى استوى ملكه بعد خلق السموات والأرض ، وتلك الأوجه كلها لا إثم فى القول بواحد منها ، وأحسنها الأول والثانى والأخير ، ولا يرد على مذهبنا ، وهو الأول أن العرب تقول : استوى بمعنى ، لأن العرب قد قالته قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مهراق

وليس هذا البيت مصنوعا كما زعم بعض ولا يقال ، إنما يقال : استولى زيد على كذا إذا لم يكن له ثم كان ، أو كان له مضاد له فيه ، ثم غلبه عليه ، والله سبحانه مالك للعرش من أول أمره ، بل هو مالك له قبل خلقه بمعنى أنه فى قبضته إذا أراد كونه كان وبعده ، ولا مضاد له تعالى ، لأنا نقول : معنى استيلائه على العرش قدرته على خلقه قبل أن يخلقه ، وملكه له بعد خلقه ، وإمساكه عن الانتقال والفناء ، فكأنه قيل : لم يتعاص العرش عن أن يخلقه ، ولم يمتنع عن التصرف فيه وملكه بعد أن خلقه ، وبالقول الأخير يقول القفال من أئمة الملائكة ، وقال سفيان الثورى فى رواية عنه ، والأوزاعى ، والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد وغيرهم من سلف القوم بإبقاء الآية على ظاهرها من الاستقرار على العرش بلا تكييف ، وبدون المماسة .

وأقول هذا تعام عن الطريق بعد وضوحه ، وتجاهل فيما صح علمه ، وإنما يقال لو لم يقبل وجها واضحا صحيحا عربيا ، وأدنى وجه من تلك الأوجه أحسن من هذا الاندفاع اللبس بها عن العامة ، وليس فى شىء منها هدم قاعدة شرعية ، فضلا عن أن يكون فيها تجاسر عظيم كما أدلى السنوسى أن فيها تجاسراً ، بل كل منها مبعد من معانى النقص وصفات الخلق ، وذلك أولى من ترمى الآية مبهمة موهمة ، وليس القول الأخير فراراً من كون العرش جسما ، وتخطئة لمن قال به وتحرج عنه ، بل هو مجرد كون العرش ليس شيئا ، وأن الآية من قبيل قول العرب : تم عرش زيد بمعنى كمل له الملك ، وتم أمره ، ومثل ذلك فى كلام

العرب كثير فصيح بليغ ، ووجه التعبير بالعرش أن العرش فى اللغة ما علا ، ويطلق على السرير والعلو فى الهواء أنسب بعلو الشأن ، ولا يتم الملك سرير إلا إن دانت له الأقوام ، وتم له الملك ، وإلا فسريره كالعدم .

وليس صاحب هذا القول يتوهم أن كون العرش جسما يوجب الجلوس عليه كما يفهم من كلام بعضهم أن صاحب هذا القول يتوهم ذلك ، نعم الصحيح إثبات العرش جسما لقوله سبحانه : « حافيّن من حول العرش » « وكان عرشه على الماء » « ويحمل عرش ربك » « الذين يحملون العرش » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنه اهتز العرش لموت سعد » والاهتزاز للأجسام إلا أن يقال : اهتز ملك الله ، أى بعضه ، أو الاهتزاز كناية عن التعظيم والفرح ، وقوله : « أذن لى أن أحدث عن ملك من الملائكة زاوية من زوايا العرش على كاهله » وقول جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده : أن فى العرش تمثال ما خلق الله فى البر والبحر قائلا إن هذا تأويل « وإن من شىء الا عندنا خزائنه » وما ثبت من أنه يطاف حوله ، وأن بين قائمة وأخرى من قوائمه خفقان الطير المسرع ألف سنة ، وأنه يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور ، لا يستطيع مخلوق أن ينظر إليه ، وأن السموات والأرضين فى الكرسى كحلقة فى فلاة ، والسموات والأرضين والكرسى فى العرش كحلقه فى فلاة وأن له أربع قوائم كل قائمة كالسموات والأرضين .

وفى رواية : إن العرش جوهرة خضراء بين قائمة وقائمة خفقان الطير المسرع ثمانين عاما ، وأنه مخلوق قبل الكرسى بألفى عام ، وفى رواية لله ملك يسمى حزقائيل بحاء مهملة فراء وبمعجمة فزاى ، له ثمانية عشر ألف جناح ، ما بين الجناح والجناح مسيرة خمسمائة عام ، أراد أن يبلغ العرش ، وأن يرى هل فوقه شىء ، فقال الله له : لا تقدر ،

فعاد فقال كذلك ، فزاد له ستة وثلاثين ألف جناح ما بين الجناح والجناح خمسمائة عام ، وأوحى الله إليه أيها الطائر طر فطار مقدار عشرين ألف سنة ، ولم يبلغ رأس قائمة ، وزاد له مثل ما فيه من الأجنحة والقوة ، فطار ذلك المقدار أيضا من حيث بلغ ، وقيل ثلاثين ألف سنة ، وإذا هو على حاله ، وأوحى الله إليه لو طرت إلى يوم ينفخ فى الصور لم تبلغ رأس قائمة ، فقال : سبحان ربى الأعلى وجعلت فى السجود ، وقد أنزل الله : « سبح اسم ربك الأعلى » .

وما روى عن كعب : أن العرش قال : لم يخلق الله خلقا أعظم منى ، فاهتز فطوقه الله بحبة لها سبعون ألف رأس ، يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر ، وورق الشجر ، وعدد الحصى والتراب ، وعدد أيام الدنيا والملائكة ، فالتوت بالعرش ، فكان إلى نصفها ، وما فى خبر من أن للعرش ألف رأس ، فى كل رأس ألف ألف وجه وستمائة ألف وجه ، والوجه الواحد كألف ألف دنيا ، وله ستمائة ألف لسان ، وكل لسان تسبح بألف ألف لغة ، وبين القائمتين ألف ألف عام ، وفى خبر أن ملكا قال : يا رب أريد أن أرى العرش ، فخلق له ثلاثين ألف جناح ، فطار ثلاثين ألف سنة ، فقال له : هل بلغت العرش ؟ فقال : يا رب لم أقطع بعض عشر قائمة العرش ، وأمره أن يعود إلى مكانه ، وغير ذلك فما يدل على أن العرش جسم موجود ، فصح أنه جسم وهو سطيح وقيل كورى ، وكون الله على العرش ككونه فى الأرض ، وكونه فى السماء وكونه معك حيث كنت ، وذلك بالملك والعلم والحفظ .

وزعمت المشبهة أنه حالّ فى العرش مستقر فيه ، فلزمهم وصفه بأجزاء وجهات ، وأنه كالعرش أو دونه أو أكثر منه ، تعالى الله ربنا عن ذلك ، وإن لم يجعلوا للعرش حداً وغاية ونهاية لزمهم تسويته

بالقديم ، وتناقض قولهم فإنه يلزم من كون الشيء قابلا للحلول فيه كونه بحد ، وغاية ونهاية ، وذكر ابن وهب : كنا عند مالك بن أنس ، فدخل رجل فقال : يا عبد الله « الرحمن على العرش استوى » كما وصف نفسه ، فكيف ذلك ؟ فقال : كيف عن الله مدفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه فأخرج .

وذكر يحيى بن يحيى : كنا عند مالك فجاء رجل فقال : يا عبد الله : « الرحمن على العرش استوى » كيف استواؤه ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء أى الحمى ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعا ، فأمر به أن يخرج ، ففهمت جماعة من كلام مالك أنه يرى الاستواء على أصله من الاستقرار ، وأنه لا يكيف لئلا يلزم تشبيهه بالخلق ، وجماعة أنه يرى الاستواء على العرش صفة لله تعالى يجب الإيمان بها بدون تفسير لها ، ويحتمل أن يريد بقوله : الاستواء غير مجهول ، الاستواء الذى هو التنقل والصعود أو الاستقرار ، يعنى أنه غير مجهول فى حق من يوصف بالتنقل والصعود أو الاستقرار ، وبقوله : الكيف غير معقول نفى السؤال من ذلك ، كما يدل له قوله : والسؤال عنه بدعة .

( يُغْشِى اللَّيلَ النَّهارَ ) يغطيه به ويصيره غاشيا له ، مضارع أغشى المتعدى لاثنين بالهمزة ، وحذف عكس ذلك للعلم به أى ويغشى النهار الليل ، ولأن اللفظ يحتمله بأن يجعل الليل مفعولا ثانيا هو المغشى ، والنهار مفعولا أول هو الغاشى ، ولو كان الأول هو الأصل لسلامته من التقديم والتأخير ، لكن سهل الثانى ظهور المعنى وصحته على كل وجه ، فلما كان اللفظ يحتملهما بأن يظهر منه المعنى الأول ويسوغ الثانى ، اكتفى به لأنه يتراءى به كل منهما ويوافق الثانى قراءة حميد بن قيس

بفتح الياء والسين ، ونصب الليل ورفع النهار ، فإنها نص فى أن النهار غاش لليل ، وذلك فيما قال جار الله وأبو الفتح ، وقال الإمام أبو عمر والدانى : قراءة حميد برفع الليل ونصب النهار ، وهى توافق الأول ، قيل : أبو الفتح أثبت ، وقرأ عاصم فى روايته عن أبى بكر وحمزة والكسائى : يغشى بالتشديد للتعدية إلى اثنين كما عدى الهمزة إليهما فى القراءة الأولى لا للتكثير كما قال القاضى ، إلا إن أراد أنه بالتشديد يصير بصيغة المشدد للتكثير ، وفيها الوجهان اللذان فى القراءة الأولى .

( يَطْلبهُ حَثيثاً ) يعقبه سريعا كالطالب له ، لا يفصل بينهما شىء ، وتعاقبهما يحصل بحركة الفلك الأعظم وهو يتحرك فى مقدار رفع الرجل ووضعها ألف فرسخ ، والجملة حال مما جعل مفعولا أول ، ومن الفاعل فى قراءة حميد ، وحثيثاً مفعول مطلق ، أى طلبا حثيثاً ، أو حال من ضمير يطلب متضمنا مع اللازم وهو سريع أو من الهاء معنى محثوثا عليه ، وهذه الجملة أنسب وأوفق بقراءة حميد .

( والشَّمسَ ) معطوف على السموات والأرض ( والقمَرَ والنُّجوم مسخَّرات ٍ ) مذللات فيما أراد منهن من طلوع وغروب وغيرهما ، وهو حال من النجوم والقمر والشمس ، وقرأ ابن عامر برفع الكل على الابتداء والإخبار ، وقرأ إبان بن تغلب برفع النجوم ومسخرات ، ونصب الباء ( بأمره ) أى بقضائه أو بمشيئته وتصريفه أو بقوله : كن فاعلات كذا بتشديد النون ، وعلى هذا فهو ضد النهى أو أمره هو نفس الطلوع والغروب ، وهو متعلق بمسخرات ، وأفرد الشمس والقمر بالذكر مع عموم النجوم لهما لعظمهما وشرفهما لما فيهما من النور ، ومعرفة الأوقات والليل والنهار ، أو لأن النجوم لا تشملهما فى العرف ، أخبر

الله سبحانه بخلق ذلك وتسخيره بعد إخباره بخلق السموات والأرض ، واستوائه على العرش جميعا بين العيان الشديد الوضوح والخبر .

قال كعب : يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة ، وكأنهما ثوران عقيران فيقذفان فى النار ، وذلك بمحضر عكرمة وغيره ، فأخبر ابن عباس فقال له : كذب كعب ، كذب كعب ، كذب كعب ثلاثا ، بل هذه يهودية يريد إدخالها فى الإسلام ، والله أجل وأكرم أن يعذبهما مع طاعتهما وانقيادهما ، قاتل الله هذا الحبر ، وقبح حديثه ، ما أجرأه على الله ، وما أعظم فريته ، ثم استرجع مراراً وذكر ما مر فى الأنعام ، وما يأتى فى الإسراء ، فجاء كعب وتاب وقال : إنى حدثت عن كتاب غيرته اليهود ، وأنت حدثت عن كتاب لا يتغير ، وعن سيد المرسلين ، وأنا أحب أن تحدثنى بما ذكرت لهم ، وأكتفى به ، ولا أذكر من أمرهما شيئا سواه أبداً ، فحدثه .

وذكر بعض : أن الله تعالى خلق الشمس من نور العرش ، والقمر من نور الحجاب ، وقيل : الشمس من نار وهى مثل الأرض عند أهل التعديل ، وقال أهل الهند : أضعاف الأرض مائة وستين مرة أو مائتين ، وهى والقمر يجريان فى بحر لو بدت منه لاحترقت الأرض ولو بدا لعبد من دون الله ، وعن بعض : كل يوم يرميها بالثلج سبعة أملاك موكلون بذلك أبداً ولولا ذلك لاحترق ما أتت عليه ، وهى فى السماء الرابعة وهو فى الأولى ، وقيل : هما فى بحر دونها وفيهما كلام فى غير هذه الآية ، والنجم أكبر من الأرض ، ونوره من العرش أو من الشمس قولان ، وفيه كلام فى غير هذه الآية .

( ألاَ لَهُ ) لا لغيره ( الخَلْقُ ) الإيجاد بعد العدم أو المخلوقات ( والأمرُ ) ضد النهى ، أو بمعنى الأمر فأل للجنس فذلك يحتمل أربعة

معان : أن يكون الخلق بمعنى الإيجاد والأمر ضد النهى ، وأن يكون الخلق بمعنى المخلوقات والأمر واحد الأمور والمراد الجنس ، وأن يكون بمعنى الإيجاد والأمر واحد كذلك ، وأن يكون الخلق بمعنى المخلوقات والأمر ضد النهى ، وذكر النقاش وسفيان بن عيينة أنه : يؤخذ من هذا المعنى الأخير أن كلام الله ليس بمخلوق ، لأن الله فرق بين الخلق والأمر ، فمن جمع بينهما فقد كفر ، يعنيان أن من جعل الأمر الذى هو كلامه من جملة ما خلقه فقد كفر ، لأن المخلوق لا يقوم إلا بمخلوق مثله .

وتقول : ليس ذلك بشىء لجواز أن الأمر بمعنى كلامه من المخلوقات ، وعطفه عطف خاص على عام ، وما ذكره على أن المخلوق لا يقوم إلا بمخلوق مثله صحيح ، لكنا ولو قلنا القرآن وكلام الله مطلقا مخلوقان لا نقول بقيامهما به تعالى ، فضلا عن أن يرد علينا قيام المخلوق للقديم ، فإن كلام الله ألفاظ خلقها تسمع بلا لافظ وسمعتها الملائكة ، أو ألفاظ أرادها وكتبها القلم فهو فعل كالإماتة والإحياء ، بل لو سلمنا ما قالوا فى الآية لزمهم تعدد القديم ، وإن قالوا إنه وكلامه مجموعها إله قديم ، لزمهم أن يكون ذا أجزاء ، تعالى الله ، والتجزىء يلزمه الحديث والتركيب والحلول ، تعالى الله عن ذلك ، إلا إن أرادوا بالكلام الكلام النفسى ، فيرجع البحث إلى إثباته لله سبحانه ، وعدم إثباته والحق عدمه ، وفى الآية رد على من قال : للشمس والقمر تأثير فى العالم ، فإنما يتراءى لهذا القائل أنه تأثير لهما هو خلق الله سبحانه بواسطة الحرارة مثلا ، وقيل : الأمر الإرادة ، وعن الشعبى الخلق عبارة عن الدنيا ، والأمر عبارة عن الآخرة .

( تَبَارَكَ اللَّهُ ) عظم أو كثرت خيراته ، أو تنزه عن ما لا يليق ، ولا مضارع له ، قيل : وعلة ذلك أنه لم يوصف به غير الله ، والله تبارك

فى الأزل ، وهو تعليل يناسب المعنى الأول والثانى ، ولا يقال : مبارك ولا متبارك لأنه لم يرد فيهما التوفيق ، وقيل الأبى على القالى : كيف المستقبل من تبارك ؟ فقال : يتبارك ، وغلطوه بأن العرب لم تقله ، وليس تغليطه إنصافاً ، فإنه أجاب على وفق السؤال ، ولم يقل إنه ورد من كلامهم ، بل أراد أن قاعدة مضارعه يتبارك ، والأرجح التغليط أيضا على السائل إن كان هو المغلط له ، حيث اقتضى كلامه إثبات المضارع له ، فهو يسأل عن كيفيته بعد إثباته .

( ربُّ العَالمينَ ) السيد المصلح لأمور المخلوقات كلها ، المدبر لها بتحريك الأفلاك ، وتسيير الكواكب ، أو تكرير الأيام والليالى ، وقوله : « ألا له الخلْقُ والأمر تبارك الله ربُّ العالمين » نتيجة لما قبله من خلق السموات والأرض واستوائه على العرش ، فذلكة له ، فكأنه قيل فذلك اختصاص للخلق والأمر به وعظمة .

( ادْعُوا ربَّكم ) سلوه قضاء حوائجكم الدنيوية والأخروية ، والدعاء عبادة ، فإن الداعى معترف بأنه عاجز عن حاجته ، وأن الله جل وعلا قادر عليها وعالم بها ( تَضرُّعا ) تذللا واستكانة وتملقاً ( وخُفْيةً ) خفاء وسراً ، بين دعاء السر ودعاء الجهر سبعون ضعفا قاله الحسن ، وقال : إن الله يحب التقى والدعاء الخفى ، إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة وعنده زائروه وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه فى السر ، فيكون علانية أبداً .

ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء ، وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وأثنى الله على زكريا بقوله : « إذ نادى

ربه نداءً خفيا » وجهر الناس بالتكبير فقال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، أى قفوا عن هذا الجهير إنكم لا تدعون أصم ولا أعمى ولا غائبا إنكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم أقـرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة » وتضرعا وخفية مفعول مطلق ، أى دعاء تضرع وخفية ، أو حال عـلى المبالغة ، أو بتقدير ذوى تضرع وخفيـة ، أو متضرعين وخافيا دعاؤكم .

وعن الحسن : التضرع أيضاً السر ، وهو فعل القلب ، وقـال الزجاج : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » اعبدوه باستكانة واعتقاد ذلك فى القلوب ، وكل من العبادات والدعاء أدبه السر إلا الفرائض ، فإظهارها أفضل إذ يؤمن الرياء بها ، وإن لم يؤمن أخفيت ، وإن كان يتهم عليها أظهر ، وجاهد الرياء ، وقيل : إظهار العبادات مطلقا ولو نفلا أفضل ليقتدى بها ، وإذا حضر الرياء جاهده ونفاه .

وقيل : إن أمن الرياء أظهر للاقتداء وإلا أخفى ، وذكرت كلامـا فى الصلاة فى المسجد فى شرح النيل يشمله عموم هذا الكلام ، ورجح بعض قول الزجاج بأن الأصل فى العطف التغاير ، والدعاء مذكور بعد ، فليكن الذى هنا بمعنى العبادة ، وليس ترجيحا قويا لجواز العكس بأن يكون هذا عبادة ، وذاك سؤالا ، وإن يكونا معا سؤالا لكتة تأتى إن شاء الله ، وقرأ عاصـم عن أبى بكر بكسر الخـاء وهو لغـة ، وقيل : المكسور بمعنى الخوف ، وقرأ بعض خيفة بتقديم الياء أى خوفا ، ونسبت للأعمش .

( إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ) أى المعتـدين إلى مـا لا يجوز

كرفع الصوت بالدعاء والإلحـاح فيـه ، وطلب معصية ومـا لا يجوز كرتبة الأنبياء ، والصعود إلى السماء ، والإسهاب فيه والاستغراق ، وفى الحديث : « سيكون قوم يعتدون فى الظهور والدعاء وحسب المرء أن يقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، ثم قرأ إنـه لا يحب المعتدين » وكالإسراف فى الأكل والشرب واللباس ، وعن ابن جريج : الصياح فى الدعاء مكروه وبدعة ، وقرأ ابن أبى عبلة : إن الله لا يحب المعتدين .

( ولا تفسِدُوا فى الأرضِ ) بالمعاصى والشرك والدعاء إلى غير الله ( بعد إصْلاحِها ) ببعث الرسول وبيان الشريعة ، روى ذلك عـن الحسن ، وقيل : لا تعصوا الله فيمسك المطر ويهلك الحرث والأرض بعد إصلاحها بالمطر والخصب ، وقيل : لا تفسدوا شيئا بعد أن أصلحه الله ، فيدخل قتل النفس ، وقطع العضو ، وإفساد المال ، والغصب والسرقة ، وإفساد الدين بالكفر والبدعة ، وإفساد الأنسـاب بالزنى ، والعقـول بشرب المسكر ، وتغوير الماء الظاهر ، وقطع الشجر المثمر ، وهـذه الأشياء أعظم إفساد بعد أعظم إصلاح ، وقد قيل : تجارة الحكام من الفسـاد .

( وادْعُوه خَوفاً وطَمعاً ) مفعول لأجله ، أو مفعول مطلق ، أى دعاء خوف وطمع ، أو حال مبالغة ، أو بتقدير ذوى خوف وطمع ، أو خائفين وطامعين ، فالخوف منه ومن عقابه ، والطمع فيما عنده مـن جزيل ثوابه ، وعن ابن جريج : خوف العدل ، وطمع الفضل ، وقيل : خوفا من الرياء ، والذكر فى الدعاء ، أو طمعا فى الإجابة وقيل : خوف من الرد لقصور الأعمال ، وعدم الاستحقاق ، وطمعا فى الإجابة ، تفضلا وإحسانا لفرط سعة رحمته ، وذلك أمر بأن يكون الإنسان فى حال تقرب

وتحرز وتأميل ، حتى يكون الرجاء والخوف لـه كالجناحين للطـائر يحملانه فى طريق استقامة ، لا يظن الوفاء بحق الله ولو اجتهد اجتهاداً ، وإن انفرد الخوف وهو انزعاج فى الباطن لمن لا يؤمن من المضار .

وقيل : توقع مكروه أو انفرد الطمع وهو إرادة أن يقع محبوب والشوق لوقوعه هلك الإنسان ، وقيل : يهلك بالميل ، والصحيح الأول ، لأنه ما وجد أحدهما لا يكون آيسا أو آمنا ، واختار كثير من العلماء أن يغلب الخوف الرجاء حتى يحتضر ، فيغلب الرجاء ، والمشهور استواءهما ، وجزم به الأكثر للأحاديث ، ودخل صلى الله عليه وسلم على شاب محتضر فقال : « يكون أجدك ؟ » قال أرجو يا رسول الله ، وإنى أخاف ذنوبى ، فقال : « لا يجتمعان فى عبد فى هذه الحالة إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف » وهو محتمل لاستوائهما ، ومحتمل لاجتماعهما ، ولو مـع زيادة أحدها ، ونكتة تكرير الدعاء إذا فسر فى الموضعين جميعا بالسؤال أو بالعبادة ، أن يكون السؤال أو العبادة مقرونا بالتضرع والإخفاء ، والخوف والطمع ، أو أن فائدة الدعاء خوف العقاب ، وطمع الثواب ، فافهم أو إن فائدته أنكم تدعونه فى الأمرين ، فتارة فيما يخاف وتارة فيما يرجى .

( إنَّ رحمَةَ اللهِ قَريبٌ مِنَ المحْسِنينَ ) أى لازم الرحمة ومسببها وهو الإحسان ، وإلا فالرحمة بمعنى رقة القلب ، ولا يوصف الله بالقلب ولا برقته ، وهى صفة فعل الله ، وإن قيل : هى إرادة الإحسان ، فصفة ذات ، وصح التذكير فى قريب لأنه فعيل بمعنى فاعل ، وهو شبيه بالمصدر الذى هو كصهيل أو لشبهه بفعيل بمعنى مفعول ، فإنه يجوز تذكيره إذا وجد دليل الأنثى ، لا لأن الرحمة مؤنث غير حقيق لأنه يجب تأنيث ضميره ، ولو كان كذلك تقول : الشمس طالعة لا طالع ، أو لإضافته

لما ليس مؤنثا مع صلاحية الاستغناء به ، فلو قيل : الله قريب لصح ، أو لأن الرحمة لمعنى الثواب أو الفضل أو الغفران أو العفو ، وقيل : لأن الرحمة هنا المطر ، وقيل : لأن المراد النسب ، أى ذات قرب ، وقيل : ذكر فرقا بين قرب المسافة والزمان ، وقرب الرحم يجب التأنيث فى الآخر وهو ضعيف ، أو لتقدير مضاف أى حضور رحمته أو مجيئها ، أو لتأويل الرحمة بالترحم ، قيل : أو بالرحم بدون تاء مع إسـكان الحـاء ، أو لتقدير موصوف أى شىء قريب ، أو أمر قريب .

والصحيح أن المراد بالرحمة الرحمة الأخروية لا المطر كما قيل ، ومعنى قربها سهولة عضو وصلها ، لأن الدين يسر ، فقبول الله الأعمال رحمة ، ورضاه رحمة ، وفى وصفها بالقرب قبل ترجيح للطمع وترغيب فيها ، فيتوسل بقربها إلى إجابة الدعاء ، وقال الطبرى : رحمته الجنة ، ووجه قربها أنه ما بينهما وبين المحسنين إلا موتهم ، وهم فى كل لحظة فى إدبار عن الدنيا وإقبال على الآخرة ، لأن كل لحظة مضت من عمرهم لا ترجع أبداً .

( وهُو الَّذى يُرسل الرِّياحَ ) وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى الريح بالإفراد ، والرياح بالجمع حيث وقع فى القرآن ، فهو مقرون بالرحمة كقوله : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات » « وأرسلنا الرياح لواقح » والريح بالإفراد حيث وقع مقرون بالعذاب غالبا كقوله : « وفى عاد إذا أرسلنا عليهم الريح العقيم » « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصرٍ » حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح يقول : « اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحاً » .

وذلك أن ريح الرحمة تجىء من هاهنا وها هنا لينة متغايرة المهب ،

فيحسن تسميتها رياحاً ، وريح العذاب تجىء من جهة واحدة جسما واحداً شديد المر ، فهى ريح واحد ، ولذلك لما أفردت فى « وجرينا بهم بريح طيبة » وصفت بالطيب إزالة لتتوهم العذاب ، وكذلك ريح سليمان لما أفردت أوصفت بالرخاء ، وإفرادها فى الموضعين أليق بالسفينة ، ومن حملت من سليمان وغيره تجىء من جهة واحدة لئلا تعطل ، ووجه الإفراد فى هذه الآية إرادة الجنس ، ووصفه بالنشر يزيل التوهم .

وعن ابن عمر : الريح أربعة رحمة : النشر ، والمبشرات والمرسلات ، والذاريات ، وأربعة عذاب : القاصف والعاصف والصرصر والعقيم ، ويكتب « وهو الذى يرسل الرياح » إلى « يشكرون » فى وعاء من شجر الزيتون بماء التفاح وماء العنب وزعفران ، ويمحى بماء العنب أيضا ، ويجعل منه فى أصل الشجر قليل ، ويكب فوقه الماء القراح ، فتحفظ بإذن الله من الدود والنمل ، والعفن والجراد ، والفار والطير ، ويحسن أصلها وثمرها ( نشراً ) [ وفى قراء ( بُشراً ) بالباء ] وقراء ابن عامر بإسكان الشين تخفيفا حيث وقع ، وهو جمع نشور كرسول ورسل حال من الرياح ، وكذا فى قراءة ابن كثير الريح بالإفراد ، لأن المراد الجنس ، وقرأ الكسائى وحمزة بفتح النون وإسكان الشين حيث وقع على أنه مصدر وقع حالا مبالغة ، أو بتقديره يناشره ، أو بذات نشر أو مفعولا مطلقا كقعدت جلوسا ، فإن الإرسال والنشر متقاربان ، وعلى الحالين ، فصاحب الحال الريح على أنه من النشر القاصر ، وضمير يرسل على أنه من المتعدى وهو خلاف طى الشىء ، ويصح أن يكون على التعدى صاحبها الريح على التأويل بمنشور .

وهذه الأوجه فى الحالية تأتى أيضا إذا فسر بالنشر الذى هو الحياة أو الأحياء ، وكذا قرأ ابن مسعود وابن عباس وطلحة والأعمش ومسروق

وغيرهم ، وقيل : عن مسروق إنه قرأ بكسر النون وسكون الشين بمعنى منشورة كالنقض بمعنى المنقوض ، وقال أبو الفتح عنه نشراً بفتحهما وهو مصدر ، أى ذات نشر أو ناشرات من النشر بفتحهما الذى هو أن تنشر الغنم بالليل فترعى تشبه السحاب فى انتشاره بها .

وعن مسروق أيضا وابن عباس وابن أبى عبلة بشراً بباء موحدة مضمومة وضم الشين جمع بشير ، وقرأ عاصم بموحدة مضمومة وإسكان الشين تخفيفا ، وعنه بموحدة مفتوحة وإسكان الشين على المصدرية وهو حال مبالغة ، أو يؤولوا بباشرات أو ذوات بشر ، وقرأ محمد بن السميفع بشرى بضم الوحدة وإسكان الشين ، وبألف التأنيث وهو أيضا مصدر ، وإعرابه كالذى قبله .

( بَيْنَ يَدَىْ رَحْمته ) هى هنا المطر ، أى قدام رحمته ، واستعيرت لها اليدان تمثيلا بالإنسان ، فإنه إنه كان الشىء أمامه أو فى حجره فهو بين يديه ، لأن يدى الإنسان يتقدمانه عند المناولة وعند المشى استعانة ، وسمى المطر رحمة لأنه سبب لحياة الأرض وغيرها ، وهو من أجلّ النعم وأحسنها أثراً ، وبيان تقدم الريح المطر أن الصبا وهى الريح الشرقية تثير السحاب ، والشمال وهى التى تهب من جهة قطب الشمال تجمعه ، والجنوب وهى القبلية تذره ، والدبور وهى الغربية تفرقه .

اشتدت الريح بطريق مكة على عمر وغيره قاصدين الحج فسأل من حوله : ما بلغكم فى الريح ؟ فلم يكن عندهم جواب ، وبلغ ذلك أبا هريرة وهو آخر الركب ، فحث راحلته حتى أدركه فقال : يا أمير المؤمنين أخبرت أنك سألت عن الريح ، سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول : « الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها ، واسألوا الله من خيرها ، واستعيذوا بالله من شرها » وعن كعب : لو حبس الله الريح ثلاثة أيام لأنتن أكثر أهل الأرض .

( حتَّى إذا أقلَّت ) حملت ، سمى الحمل بالإقلال لا عمن حمل شيئا يراه قليلا ، ومن ذلك تسمية الإناء المعروف قلَّة ( سحاباً ) جمع سحابة ككلمة وكلم ، ولذلك وصفه بالجمع وهو قوله : ( ثِقالاً ) بما فيها من الماء ، والسحابة الغيم فيه ماء أو لم يكن ، سمى لانسحابه فى الهواء ، وهو جسم يتولد من شجرة فى الجنة ، وعن السدى تأتى به الريح من حيث تلتقى السماء والأرض وتنشره ، فيفتح له أبواب السماء فيسيل فيه الماء ، فإما أن يرى أن المسافة إلى السماء قليلة دون خمسمائة عام أو يراها خمسمائة عام ، ويعجل الماء بقدرته فى زمان قليل ، وقيل: إنه يتولد بريح شديد ويضم بعضه إلى بعض وينعقد ويحمل الماء .

( سقْناه لبلدٍ ) إلى بلد ، أو لأجل إحياء بلد أو سقيه ، والهاء للسحاب وأفرد لجواز إفراد الجمع الذى هو كالكلم والنخل والشجر ، والبلد الموضع عامراً أو غير عامر ، وفى سقنا التفات من طريق الغيبة إلى التكلم تأكيداً للمن وإظهاراً له ، فإن سوقه لبلد إنعام عظيم ( ميِّتٍ ) وقرأ أبو عمرو وعاصم والأعمش بإسكان الياء ، وصف البلد بالموت تجوزاً لسعته وعدم زيادته بالنبات ، ولحفوف نباته وشجره .

( فأنْزلْنا به الماءَ ) أى فيه فالباء صرفية ، والهاء للبلد ، ويجوز كون الباء للإلصاق ، والهاء للبلد ، ويجوز كون الباء للآلة ، والهاء لسحاب ، وكونها بمعنى من الهاء للسحاب ، وكونها للسببية والهاء للريح ، ولو فى قراءة الرياح بالجمع لدلالة الجمع على المفرد ، أو للسوق المدلول عليه بسقناه .

( فأخْرجْنا ) الفاء للاتصال ، وهو فى كل شىء بحسبه ، تقول : تزوج زيد فولد له إذا لم يكن بين التزوج والولادة إلا مدة الحمل ، أو بمعنى الواو أو يقدر ومضت مدة فأخرجنا ( بِـهِ ) أى بالماء ، والباء للسببية أو الهاء للبلد ، فالباء للظرفية أو الإنصاف أو الهاء للريح أو اسوق ، فالباء أيضا للسببية ( مِنْ كلِّ الثّمراتِ ) من جميع أصنافها ، ومفعول أخرج محذوف أى شيئا ومن كل نعته .

( كذلِكَ نُخْرِجُ الموتى ) رد على منكرى البعث ، والمعنى إنّا قادرون على إخراج الموتى كما قدرنا على إخراج الثمار ، أو كما قدرنا على إحياء البلد ، والإشارة لإخراج الثمار أو لإحياء البلد المفهوم من الكلام ، ويجوز أن يكون الكلام إخباراً بكيفية إخراج الموتى لا مسوقا للرد على منكرى البعث ، لكنه متضمنا له ، وبيان ذلك ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه ينزل على الموتى ماء من السماء ، وفى رواية من تحت العرش ، يقال له ماء الحيوان ، ولا منافاة بينهما ، وفى رواية كمنى الرجل أربعين سنة ، وفى رواية أربعين يوما ، فينبتون كما ينبت الزرع ، حتى إذا كملت أجسادهم ونفخ فيها الروح ، ويلقى عليهم النوم فينومون ، ثم ينفخ للبعث فيقومون ، وفى رءوسهم وعيونهم أثر النوم فيقولون : « يا ولينا من بعثنا من مرقدنا » وعن مجاهد : يرسل عليهم الماء من السماء فتنشق عنهم الأرض ، فيرسل الأرواح ، إلى أجسادها ( لعلّكم تذكّرونَ ) هذه ترجية أو تعليل لمحذوف ، أى قلنا ذلك أو أنزلنا الآية لعلكم تذكرون فتؤمنوا بالبعث .

( والبَلدُ الطّيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُه ) وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة وعيسى ابن عمير بضم الياء وكسر الراء ، ونصب النبات ، وعلى هذا ففى يخرج ضمير البلد أو الله ( بإذْنِ ربِّه ) متعلق بيخرج أو لمحذوف

حال ، ومعناه بتيسير الله ، وهى كناية عن أنه يخرج حسنا وافيا بسهولة كثيراً كمًّا ونفعا ، وهو فى مقابلة قوله نكداً ، فالحالية أولى ، لأن نكداً حال ، وذلك مبالغة فى المدح كما تقول العامة عند رواية ما يعجبها : ما شاء الله ، وتقول لمن اغتبطت حاله : أنت كما شاء الله ، وخرج بعض على ذلك فله ما سلف وأمره إلى الله ، واختار لفظ الرب لأنه مشعر بالتربية .

( والَّذى خَبُثَ ) بأن كان حجارة أو سبخة أو بذرها بذر شرك أو غيره مما لا نفع فيه ( لا يخْرجُ إلاَّ نَكِداً ) قليلا بمشقة وكلفة ، قليل النفع أو عدم النفع ، ويقدر مضاف ، أى لا يخرج نباته فحذف الفاعل وهو نبات ، وناب عنه المضاف إليه فارتفع واستتر ، ويجوز تقديره أولا ، أى ونبات البلد الذى خبث ، وتقديره آخراً أنسب بما قبله ، وبما تقرر أن الآخر أولى بالتغيير ، وقرأ هؤلاء بضم الياء وكسر الراء أيضا ، وعليه فنكداً مفعول به ، والفاعل ضمير البلد أو الله ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفا أى لا يخرجه ، فنكدا حال منه .

وقرأ طلحة بن مصرف بإسكان الكاف تخفيفا من الكسر ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بفتح الكاف ، قال الزجاج : وهى قراءة أهل المدينة وهو فيها مصدر أتى به مبالغة ، أو بتأويله بالوصف أو بذا نكد ، وذلك مثل للمؤمن والكافر ، فالمؤمن ينتفع بالقرآن وتظهر عليه آثاره من العبادات والأخلاق الحميدة كالبلد الطيِّب يظهر فيه أثر الغيث من حشيش وأزهار وثمار ، والكافر لا ينتفع بالقرآن ، ولا تظهر عليه آثاره ، بل يزداد كفراً كالسبخة ، إنما تزداد بالماء ضراً كالإزلاق ، وكإنبات الشوك ونحوه ، أو ذلك مثل للمؤمن والكافر من كلامه ، وعن النحاس مثل للفهم والبلد وفى الحديث : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم

كغيث أصاب أرضا فطائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ ، وطائفة أمسكت الماء فشربوا منه وسقوا زروعهم ، وطائفة لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ الأول مثل للعالم العامل ، والثانية للعالم غير العامل ، والثالثة لمن لا علم ولا عمل أو يعمل بلا علم » وزاد لهذا التمثيل ما قبله حسنا ، وقيل : ليست الآية مثلا بل تتميم لما قبلها .

( كَذَلِكَ نُصَرِّفُ ) وقرىء يصرف بالمثناة التحتية أى الله ( الآياتِ لِقَوْمٍ يشكُرُونَ ) أى مثل ذلك التصريف نصرف الآيات ، أى نكررها لقوم يشكرون النعم ، وأما غيرهم فإنها قد كررت له ، لكن لا ينتفع بها ، فكأنها كررت للمؤمنين فقط .

( لَقَدْ أرْسلنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ ) غلب قرن جواب القسم بقد الدالة على التوقع ، لأن القسم تأكيد وتعظيم للأمر ، فجوابه مظنة التوقع والانتظار ، وهو نوح بن لامك بن متوشلح بن إدريس بن فرد بن بارد بن مهلائيل بن قيتان بن أنوش بن شيث بن آدم ، وأمه قينوش بنت بركيائيل بن مجوائيل بن إدريس ، وسمى نوحاً لأنه ناح على قومه بعد هلاكهم بدعائه ، وضعف بأن لفظ نوح أعجمى ، وما صرف إلا لخفته فأشبه العربى ، وأجيب باتفاق هذه اللغة لغة العرب فى لفظ النواح ونحوه بمعنى البكاء فى صياح .

وقيل : سمى لمراجعة ربه فى شأن ابنه كنعان ، وقيل : لأنه مر بكلب مجذوم فقال له : اخسأ يا قبيح ، فقال الله أعتبتنى أم عتبت الكلب ؟ وقول ابن عباس : سمى لكثرة ما ناح على نفسه يحتمل الأقوال ، قيل : وهو أول نبى بعث بعد إدريس إلى الناس ، وفى حديث : « أن نوحا أول نبى بعث إلى الناس » والمراد أول نبى بعد الطوفان ، ولو كان قبله أيضا

أو أول نبى بعث بالعذاب والإهلاك حملا على الإيمان ، قال ابن عباس : بعث وهو ابن أربعين سنة ، قال ابن الكلبى : بعد آدم بثمانمائة سنة ، وجاء بتحريم البنات والأخوات والأمهات والعمات والخالات .

وقال وهب ابن منبه : بعث وهو ابن أربعمائة سنة ، وقيل : ابن ثلاثمائة سنة ، وقيل : ابن خمسين ، وقيل : ابن مائتين وخمسين ، وقيل : ابن مائة ، قيل : كان نجاراً ، والذى حفظته أنه ما كان نجاراً إلا بسفينته قال فى عرائس القرآن : أرسله الله إلى أولاد قابيل ومن تبعهم من ولد شيث .

قال ابن عباس : كان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان رجال الجبل صباح الوجوه ونساؤهم ذماماً ، ونساء السهل صباحا ، ورجالها ذماماً وأتى إبليس رجلا من أهل السهل فى صورة غلام فآجر نفسه منه ، وكان يخدمه ، واتخذ شيئا مثل الذى يزمر به الرعاة ، فجاء منه صوت ما سمع الناس مثله ، فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم مستمعين إليه ، واتخذوا عبداً يجتمعون إليه فى السنة ، فيتبرج الرجال وتتبرج لهم النساء ، وهم عليهم رجل من أهل الجبل وهم فى عيدهم فرأى صباحة النساء ، فأخبر أصحابه فتحولوا إليهم ، ونزلوا معهم ، فظهرت الفاحشة فذلك قوله تعالى : « ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأولى » .

وفى رواية عنه : أوصى آدم أن لا يناكح بنو شيث بنى قابيل ، فجعل آدم بنى شيث فى مغارة ، وجعل عليهم حائطاً لا يقر به أحد من أولاد قابيل ، وقال مائة من بنى شيث ، وكانوا صباحا : لو نظرنا ما فعل بنو عمنا ، يعنون قابيل ، فهبطوا إلى نساء صباح من بنى قابيل ، وأمسك

النساء الرجال ، ومكثوا ما شاء الله ، ثم قالت مائة أخرى : لو نظرنا ما فعل إخواننا فهبطوا فاحتبستهم النساء ، ثـم هبطوا كلهم ، فهـاجت المعصية وتناسلوا ، وأكثر بنو قابيل الفساد ، وبعث إليهم نوح فقال : « يا قوم اعبدوا الله » أى وحده .

وقوله : ( مَا لكُم مِنْ إلهٍ غَيرهُ ) بيان لوجه اختصاصه بالعبادة وقرأ الكسائى بجر غير اتباعا على اللفظ فى جميع القرآن ، وبه قرأ يحيى ابن وثاب ، والأعمش ، وأبو جعفر ، ووجه الرفع التبعية للإعراب المقدر ، وقرأ عيسى بن عمر بنصب غير على الاستثناء وهو مرجوح .

وقوله : ( إنِّى ) وسكن الياء غـير نافع وابن كثـير وأبى عمرو ( أخافُ عليكُم عَذابَ يومٍ عَظيمٍ ) وعد" وبيان للداعى إلى عبادته ، لأنه هو المحذور عقابه دون من كانوا يعبدونه ، وذلك تهديد وتخويف لكفار قريش وغيرهم ، وتسلية للنبى صلى الله عليه سلم ، واليوم العظيم يوم القيامة وعبر بالخوف لأنه لم يدر حينئذ أيتوبون أم لا ، ويوم الطوفان كذا قيل وهو ضعيف ، فإنه لم يدر حينئذ بالطوفان ، والتحقيق أنه أراد باليوم العظيم يوم القيامة أو يوم ما شديد فى الدنيا ، وعليه فعبر بالخوف لما مر" ، ولأنه لم يدر لعله عذابهم مختص بيوم القيامة ، وبطل بذكر اليوم فى الآية قول بعضهم إنه عبَّر بالخوف مع أنه موقن بعذابهم إن لم يؤمنوا أنه لم يعلم وقت العذاب أدنيا أم أخرى ؟

( وقَالَ الملأ ) الأشراف سموا ملأ لأنهم يملئون العيون والقلوب ، قال سلامة بن سلامة الأنصارى ، عند قفول رسول الله صلى الله عليـه وسلم من غزوة بدر : إنما قتلنا عجائز صلعا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أولئك الملأ من قريش لو حضرت أفعالهم لاحتقرت فعلك » قال أحمد

ابن يحيى : له واحد من لفظه وهو مائى وهو الذى يملأ العين بجلالته ، وقد سموا لتمايلهم واجتماعهم على أمر ، وقرأ ابن عامر الملو بالواو ، وكذا فى مصاحف الشام ، ولا يقال بالجماعة التى فيها امرأة ملأ •

( مِنْ قَوْمِهِ إنَّا لنراكَ فى ضَلالٍ ) عن الحق ( مُبينٍ ) واضح ، وزعم بعض أنهم قالوا ذلك حين خوفهم بالطوفان ، وشرع فى عمل السفينة ، أى أخطأ فى عمل شىء تنجوا به من الماء ولا ماء •

( قالَ يا قَوْمِ ) ناداهم بهذا استجلابا لهم ( لَيْسَ بى ضَلالَةٌ ) أى ليس فى شىء من الضلال ، نفى عن نفسه الضلال بوجه بليغ ، كما بلغوا فى إثبات الضلال الكامل له ، كما يقال : عندك تمر ؟ وتقول : ليست عندى تمره أو شق تمرة ، وزاد بأن عرض ولوَّح بأنهم هم فى الضلال المبين ، وأما أنا فلست منه فى شىء ، والضلال يستعمل فى القليل والكثير ، والضلالة فى الواحد ، فعلى أنه القليل فالمعنى ليس بى قطعة منه كقولك : ليس عنده شق تمرة ، وعلى أنه الكثير فالمراد أنه ليس بى ولو ضلال واحد ، أو أنه ليس بى قطعة منه •

( ولكنِّى رسُولٌ مِنْ ربِّ العَالمينَ ) أى فأنا على الصراط المستقيم الكامل كما هو لازم الرسالة ، فلذلك صح أن يكون استدراك لقوله : « ليس بى ضلالة » كأنه قال : ليس بى ضلالة لكنى على الاستقامة والهدى ، وفى هذا الاستدراك تعرض النظر منهم فى المعجزة ، ولكل رسول معجزة •

( أبلِّغكُم ) خبر ثان أو استئناف ، وأجيز أن يكون نعتا أو حالا من رسول ، ولو كان لفظ رسول للغيبة من حيث إن الظاهر من قبيل

الغيبة ، لأنه خبر لضمير المتكلم ، فهو فى معناه ، قرأ أبو عمرو أبلغكم بإسكان الباء وتخفيف اللام .

( رِسَالاتِ ربِّى ) جمع باعتبار الأمر والنهى ، والوعظ والتخويف ، والترغيب والتبشير ، وغير ذلك ، أو باعتبار الأوقات الموحى إليه فيها ، أو لذلك كله الرسالات ما أوحى إلى الأنبياء قبله كصحف شيث وإدريس .

( وأنْصحُ لكُم ) أتى باللام تأكيداً فى النصح ، فإنه يقال : نصحته ونصحت له ، الثانى أبلغ ، والنصح بالإرشاد لمصلحة ، وقيل : إرادتك الخير لغيرك كما تريده لنفسك ، وفيه أن مجرد الإرادة ليست نصحا ، ولعل المراد الإرشاد لمصلحة اللازم ، والمسبب عن إرادتها للمنصوح ، كما قيل : النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه ، وعن بعضهم أنه تحرى قول أو فعل فيه صلاح الغير ، ولعل المراد تحريه ، ولازم التحرى ومسببه وهو الإرشاد ، وعلى كل حال فالمعنى أنى أرشدكم شفقة عليكم إلى ما هو صلاح لكم وأحبه لنفسى ، وغيره ضر لكم وهو التوحيد والعبادة ، وقرر ما وعدهم به وما يذكر لهم من الرسالة وغيرها بقوله :

( وأعْلم مِنَ الله ما لاَ تعْلَمون ) من شدة بطش الله بمن أصر على الكفر فى الدنيا والآخرة ، أو فى الآخرة ، وكانوا لم يعلموا بهلاك أمة إذ لم يتقدمهم ، أو من جلال الله وتعاليه عن المعاصى وغير ذلك مما علمه بالوحى ، ومن قال إنه عالم حينئذ بالطوفان أجاز أن يزيده بما لا تعلمون .

( أوَعَجِبتُمْ ) الهمزة للاستفهام الإنكارى ، أو التوبيخى أو

التعجبى ، والواو للاستيثاق ، والهمزة مما بعدها ، وقدمت لكمال صدريتها ، أو للعطف على مدخول للهمزة أى أكذبتم وعجبتم ( أنْ جاءكُم ذِكْرٌ ) موعظة أو رسالة أو معجزة أو كتاب ، أنزل على نوح ، سماه ذكراً كما سمى القرآن ذكراً أقوال .

( مِنْ ربِّكُم علَى رجُلٍ ) أى على لسان رجل ، أو مع رجل ، وإنما صح إبقاء « على » فى ذلك على أصلها ، لأن المجىء من الله سبحانه نزول ، أو يقدر منزل على رجل ( مِنْكُم ) من جملتكم ، أو من جنسكم ، وكونه منهم أليق وأسهل لهم ، وأقرب قبولا ومزيل للتعجب ، فكيف يتعجبون ، وذلك أنهم يتعجبون من رسالة نوح وهو بشر « لو شاء ربنا لأنزل ملائكة » .

( ليُنْذِرَكُم ) يُحذركُم عاقبة الكفر والمعاصى ( ولتَتَّقُوا ) منها بالإنذار به ( ولَعلَّكُم تُرحَمونَ ) إن اتقيتم ، ولعل للتعليل أو للترجى بحسب معتقد نوح ، وحسب ما يجب عليهم أن يعتقدوه ، وهو أن يرجو رحمة الله بعد أن يؤمنوا ويعملوا الصالحات ، فإن الإيمان والعمل لا يوجبان الرحمة ، وإنما هى فضل من الله ، فليس لأحد أن يعتمد عليهما ويأمن العذاب .

( فكذَّبوهُ فأنْجيناهُ ) من الغرق ( والَّذين معَه ) فى الإيمان أو فى السكنى والاتصال والموالاة ، أو فى السفينة وهم آمنوا أيضا ، والأول أولى ، وهم أربعون رجلا وأربعون امرأة عند ابن عباس ، قال : وحمل معه آدم ميتا معرضا بين الرجال والنساء ، وقيل : تسعة بنوه : سام وحام ويافث وستة آمنوا به ، وقال إسحاق : عشرة رجال التسعة المذكورة ونوح وأزواجهم جميعا بناء على أن لنوح زوجة مؤمنة غير

الملعونة ، وقال الأعمش : سبعة بنوح ، والمؤمنون به سوى بنيه ثلاثة ، فذلك سبعة ، وقال مقاتل : اثنان وسبعون رجلا وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم ، فذلك ثمانية وسبعون .

وقال قتادة : لم يكن فى السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم فذلك ثمانية ، وامر أن لا يقرب ذكر أنثى وأصحاب حام امرأته فى السفينة ، فدعا نوح ربه أن يغير نطفته فجاء بالسودان ، وعن الكلبى : وثب الكلب على الكلبة فدعا عليه فجعله الله عسرا ، وقيل : من كان معه أربعون رجلا ، وقيل ثمانون ، وعن ابن عباس : ثمانون أحدهم جرهم ، وعن مقاتل اثنان وسبعون رجلا وامرأة ، وليس فى ذلك خبر صحيح معتمد ، فالحق أن يقتصر على أن معه قليلا كما فى آية :

( فى الفُلْكِ ) السفينة متعلق بأنجينا ، وإذا فسرنا المعية بالمعية فى السفينة علقناه بالاستقرار الذى تعلق به مع أو بمع لنيابته عنه ، أو بمحذوف حال من الموصول ، أو ضمير الاستقرار ، وإن قلت : كيف يعلق بالإنجاء ؟ قلت على معنى أن الإنجاء وقع فيها ، أو على أن فى بمعنى الباء .

( وأغْرقنَا الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنا إنَّهم ) تعليل جملى أى لأنهم ( كانُوا قَوماً عَمينَ ) والمراد عمى القلب عن الحق من الإيمان والعمل ، وقال الزجاج : عن نزول العذاب ، قيل : يقال فى عمى القلب : وهى عَمِىَ بوزن فرح ، ولكنه ناقص ، وفى عمى أعمى ، والأصل عمين ، ثقلت الكسرة على الياء فحذفت هى ثم الياء للساكن بعدها ، وقرىء عامين كقاضين ، والأول أولى ، لأن عَمًى صفة مشبهة تدل على الثبات ، وعاميا اسم فاعل لا يدل عليه ، والأولى صفة مبالغة كذا قيل ، والصواب أنها

صفة مشبهة ، لأنه يقال فى مطلق العمى : هو عم فلا تجىء منه صفة المبالغة على تلك الصيغة ، لئلا تلتبس بغير المبالغة ، وقد يقال فى الثانية : إنها صفة مشبهة كطاهر القلب .

( وإلى عَادٍ أخاهُم هُوداً ) العطف على قوله : « نوحا إلى قومه » كأنه قيل : وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، فهو من العطف على معمولى عامل ، وقدم المجرور هنا للحصر ، لأن هوداً أرسل إلى عاد ، ونوحاً إلى الكافة ، وكلهم قومه ، وهوداً عطف بيان للأخ أو بدل ، وصرف عاد مع أنه أرسل هود إلى القبيلة إما لأن المراد بعاد أبوهم على حذف مضاف ، أى وإلى قوم عاد ، ولأن المراد بعاد القبيلة معتبراً فيها معنى القوم أو الأولاد ، وذلك أنهم سموا باسم أبيهم عاد بن عوص بن أرم ابن سام بن نوح ، وأخوة هود لهم فى النسب ، وهو هود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقال ابن إسحاق : هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، بن عم أبى عاد ، وقيل بالقول الأول ، لكن بإسقاط قولك ابن عاد ، وهو كما قيل : من قبيلتهم ، وقيل : لا ، لكنه من بنى آدم لا من الملائكة أو الجن ، فسمى أخاً ، أو سمى أخاً لأنه صاحبهم ، والعرب تسمى الصاحب أخا ، وكونه أخا لهم أليق فى قبول الرسالات وفهمها كما مر .

( قالَ ) جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قال لهم ؟ وكذا قال الملأ ، ولذلك لم يقرن بالفاء كما قرن فى قصة نوح ، إذ لم يستشعر فيها سؤال فهو هنا مستأنف للبيان ، فناسبه عدم الفاء وقيل : قرن فى قصته لأنه أكثر دعوة لقومه ، فدل بالفاء الموضوعة للتعقيب على أنه كالمغرم بالشىء المولع به ، بخلاف هود فإنه دون ذلك .

( يا قَوْمِ اعْبُدُوا الله ما لَكُمْ من إلهٍ غيرُهُ ) فيه جميع ما مرَّ فى قصة نوح معنى وإعرابا ، وقراءات ، وقال : هنالك : « إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » وهنا : ( أفلا تتَّقونَ ) لأن عاداً قد علموا بواقعة قوم نوح ، وقريبُوا ، عهد بهم فقيل لهم: أفلا تحذرون أن يقع بكم مثل ما وقع ، وقوم نوح لم يتقدمهم هلاك قوم .

( قَالَ الملأ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَومه ) وصف هنا الملأ بالكفر احترازا ممن كان من الملأ ، وهم الأشراف وليس الكافر كمرتد ، بخلاف قوم نوح فليس فى أشرافهم مؤمن ، فملأ قوم هود أقرب إلى الدين ، وأما وصف ملأ قوم نوح فى سورة « قد أفلح » بالكفر فللذم لا للاحتراز والنكث لا تتزاحم .

( إنَّا لَنَرَاكَ فى سفاهَةٍ ) فى حالة رقيقة لا ثَبَاتَ لها وهى خفة عقل ، ورأى إذ فارقت دين قومك قالوا له ذلك فى مقابلة تسفيهه لهم فى عبادة الأصنام ، والعبارة بقى فى القصتين دلالة ، على التمكن والرسوخ فى الضلالة والسفاهة هو فى زعمهم على المجاز .

( وإنَّا لنظنُّكَ من الكاذِبِينَ ) أى نعلمك ، أو الظن على بابه ، فإنهم لم تكن لهم أحلام يتبصرون بها ، بتاء ونون حتى يتحصلوا على اعتقاد يسمونه علما ولو باطلا ، بل يقتصرون على ظنون تحرص ، أى نظنك فى ادّعاء الرسالة من جملة المتصفين بالكذب .

( قالَ يا قَومِ لَيسَ بى ) أى فىَّ ( سفاهةٌ ولكنِّى رسُولٌ مِنْ ربِّ العالَمينَ * أبلِّغكُم رِسالاتِ ربِّى وأنَا لكم ناصِحٌ ) فى ذلك كله ما مر فى قصة نوح كله ، والمعنى والنكتة ، وقراءة أبى عمرو ، غير

أن السفاهة بالتاء فى كلامه وكلامهم بخلاف الضلالة هنالك ، ولكن عبَّر هود بناصح ، ونوح بأنصح ، لأن نوحا كان أكثر دعوة لقومه إلى الإسلام ، فعبر بالمضارع الدال على التجدد ، وقدم لكم هنا للحصر لأنه أرسل إلى قومه خاصة وهم عاد ، وأما غيرهم فلم يرسل إليهم فضلا عن أن يتصف بالنصح لهم ، ولو عاملهم أو قاولهم لنصحهم ، فإن كان ناصح من نصحته فاللام للتقوية للضعف الحاصل بالتقدم وبتلو خفية ، وإن كان من نصحت له فهى كالتى بعد الفعل وهو أنسب لقصة نوح إذ قال : « وأنصح لكم » وكلتاهما تفيد التأكيد ، لكنها فى الوجه الثانى أشد توكيدا وعليه قصة نوح .

( أمينٌ ) على الوحى لا أزيد ولا أنقص ، أو أمين من الكذب والغش مطلقا أو أراد أمين فى ذلك كله ، فإن كانوا قد اعتبروا فيه ذلك المذكور من النصح والأمن فإنما ذكر ذلك لهم تنبيها على ما عرفوه منه واعتقدوه ليعملوا لمقتضاه فيؤمنوا به ، وإلا فإنما أخبرهم بذلك ليعرفوا حاله فيصدقوه ، لجواز مدح الإنسان نفسه بما فيه لمن لا يعلمه لمصلحه ، بل هو هنا واجب ، لأنه تقرير للرسالة والنبوة ، وانظر كيف تجيب الرسل قومهم بحلم وإغضاء ، وبما هو أجاب لهم ، وترك مقابلتهم بمثل ما قالوا من التسفيه والإضلال ، وفى ذلك تأديب وتعليم لنا ، كيف تخاطب السفهاء ، ولا سيما غيرهم وإلا كنا منفرين لهم عن الإسلام والحق ، ومبعدين لهم ومميتين للدين ، اللهم أصلحنا واعف عنا ، قد يكون التغليظ أليق فى موضع .

( أوَعَجِبْتُم أن جاءكم ذِكرٌ مِنْ ربكم على رجلٍ مِنكُم لِينْذِركم ) فيه ما مر فى قصة نوح .

( واذكروا إذْ ) مفعول به ( جَعَلَكُم خُلفاءَ مِنْ قَومِ نوحٍ ) فى مساكنهم وفى لأرض ، بأن جعلكم ملوكاً .

( وزَادكُم فى الخَلْق ) فى خلق أبدانكم ، أو فى جملة المخلوقين متميزين عنهم أو فى بمعنى على ، أى زادكم على أهل عصركم ، وقال الطبرى وقتادة : على قوم نوح فهم المراد بالخلق .

( بسْطةً ) طولا وقوة ، وقرأ قنبل وحفص وهشام وأبو عمرو وحمزة ، بخلاف عن خلاد بالسين كان أقصرهم ستين ذراعا ، وأطولهم مائة فيما قال الكلبى والسدى ، ولم يذكره فى عرائس القرآن إلا عن الكلبى ، وقال أبو حمزة التمالى : أطولهم سبعون ذراعا ، وقال ابن عباس : ثمانون ، وعنه أن الثمانين لأقصرهم ، وقيل : لأقصرهم سبعون ، وقال مقاتل : اثنا عشر ، قال وهب : ورأس أحدهم مثل القبة العظيمة ، وكانت الضباع تبيت فى عين ميتهم وتلد فيها وكذا منخره ، وكان مُلْكهم ما بين عمان وحضرموت ، وقهروا أهل الأرض ، ومنهم شداد الذى ملك الأرض المعمورة كلها ، وكانت بلادهم أخصب بلاد الله ، وردها الله صحارى .

( فاذكُروا آلاء اللهِ ) نعمه بوزن أفعال بفتح الهمزة ، والمنفرد إلى بكسر الهمزة كرضى ، وقيل ألى بفتحها كفتى ، وقيل : إلى بكسرها وإسكان اللام بعدها ياء ، والمراد بذكرها الإحضار فى القلب أنها من الله ، فيلزم على ذلك أن يفيدوه شكراً ( لعلَّكُم تفْلحُون ) راجين الفلاح ، ليفلحوا بذلك .

( قالُوا أجئتَنا لنعبُد الله وحْدهُ ونَذَرَ ) نترك ( ما كانَ يعبُد

آباؤنا ) من الأصنام صداءً وصموداً ، والمراد بالمجىء القصد على المجاز لا حقيقة المجىء ، يقال : جاءهم الرسول ولو كان فيهم هذا ما ظهر لى ، ويحتمل أنه كان يعبد الله فى موضع معتزلا عنهم ، ولما أوحى إليه جاءهم ليبلغ ، وأرادوا أجئتنا من الله على التهكم ، وكانوا يعتقدون أن الله لا يرسل إلا الملائكة ، كأنه قيل : أجئتنا من السماء كما يجىء الملك ؟ والاستفهام توبيخ أو تهكم ، استبعدوا أن يعبدوا الله وحده ، ويترك ما ألفوه من عبادة الأصنام ، ووجدوا عليه الآباء ، وكانوا يثبتون الله ، ولكن أنكروا أن يعبدوه وحده ، وقيل جحدوه وإنما ذكروه اتباعا لكلام هود ، والأول ظهر فى الآية ، ولأن عبدة الأصنام فى الغالب يثبتونه ، وجحده بعض عبدتها كما جحده من يدعى الربوبية لنفسه كفرعون ونمرود .

( فأتِنا بما تعِدُنا ) من العذاب الذى يدل عليه قوله : « أفلا تتقون » فإن الاتقاء يكون مما هو عذاب فى مثل ذلك المقام ( إن كُنتَ منَ الصَّادِقينَ ) فيه ، أو فى الرسالة ، وذلك منهم استبعاد كما يقول المولى لعبده : اضربنى اضربنى .

( قالَ قَد وقَع عليكُم منْ ربِّكم رجْسٌ ) ما يسوءكم ( وغَضبٌ ) سخط ، أى قد سبقت لكم الشقاوة عند الله فالماضى على أصله ، ويحتمل أن يريد بالرجس العذاب ، وبوقوعه نزوله ، ولو كان يقع حينئذ ، لكنه لما كان واجب الوقوع صار كأنه واقع ، ولا يخفى أن كونه واجبا وحقا لازما مسبب وملزوم لوقوعه ، فذلك من المجاز المرسل ، ويجوز أن يكون تعلق الرجس والغضب بهم مشبها بوقوع جسم من علو ، فاستعير المتعلق لفظ الوقوع ، واشتق منه وقع ، فالمجاز استعارى ، أو أراد قد وجب أن يقع عليكم الوجهان الأولان ظهرا لى ، ثم رأيتها مع الثالث فى بعض الكتب ، والحمد لله .

وعلى كل حال ، فالمعنى كأنكم بما وعدتكم ، تقول لمن طلب منك شيئا : قد كان ذلك ، ولسع زنبور عبد الرحمن بن حسان وهو طفل فجاء يبكى ، فقال له أبوه حسان : مالك تبكى ؟ قال : لسعنى طوير كان ملتفا فى بردى حيدرة ، فضمه إلى صدره فقال : يا بنى لقد قلت الشعر ، يريد تسليته عن اللسعة ، أى كأنك يا بنى كبرت وصرت رجلا عظيما تقول الشعر ، وعن بعضهم : الرجس العذاب من الارتجاس ، وهو الاضطراب ، والسخط إرادة الانتقام .

( أتُجادِلونَنى ) الاستفهام توبيخ أو تعجب أو إنكار لاستقامة جدالهم ( فى أسْماءٍ سمَّيتمُوها أنتُم وآباؤكُم ) وضعتموها لأصنامكم إذ سموا كلا منها إلهاً ، وسموها بأسماء حسان غير ما مرَّ لها من الأسماء ( ما نَزَّلَ اللهُ بِها ) أى بتلك الأسماء ( مِنْ سُلطانٍ ) دليل قوى ، أو برهان منصوب يدل على أنها مستحقة لتلك الأسماء الدالة على الألوهية والعظمة ، والمستحق للعبادة والألوهية والعظمة هو الخالق الرازق النافع الضار بالعدل ، لا من لا يملك لنفسه فضلا عن غيره دفع ضر ولا جلب نفع .

فإذا جادلتم فى تلك الأصنام وذكرتموها بأسمائها فما تحصلتم إلا على أسماء ، إذ لا توجد معانيها فى تلك الأصنام ، وإنما قال سميتموها لتضمنه معنى وضعتموه كما رأيت ، أو الأصل سميتم بها أصنامكم ، فحذف الجار والمفعول به والمضاف إليه ، وفى ذلك إظهار لجهلهم وحمقهم ، كأنه قيل : أشد بجهلهم وحمقهم إذا اشتدوا فى الألوهية التى هى أمر عظيم على تسميتهم المجردة عن الدليل مثل : أعمى التقى فى طريقه بحجر فقال : ما أعظم شأنه ، وما هو إلا إلهى .

وزعم بعضهم أن فى الآية دلالة على أن الاسم قد يكون هو المسمى ، وليس ذلك بشىء ، فإنه ليس المراد بأسماء سميتموها مسميات وضعتم لها أسماء كما توهم ، بل المراد ما تحصلتم فى أمر الأصنام إلا على أسماء مجردة عن معانيها ، فإن معنى الألوهية مفقود فى الأصنام ، وزعم أن فيها دالة على أن اللغات توقيفية وضعها الله بالوحى ، أو بخلق أصوات تدل على ذلك ، أو بخلق علم ضرورى بها ، وبيان ذلك أنه علق العتاب والبطلان بأنها مخترعة لم ينزل بها سلطان ، وليس بشىء من حيث إن العتاب والإبطال إنما وقع باتخاذهم أشياء آلهة ليس فيها معنى الألوهية ، لا بالتسمية فقط ، وقيل : وضعها إنسان أو جماعة ، وتعلمها غيرهم بالتكرر وقرينة الإشارة كالأطفال .

وقيل القدر المحتاج توقيفى والباقى محتمل ، وقيل : ابتداءها اصطلاح والباقى توقيف ، واختار بعض الوقف ، وأنا أختار التوقيف ، لقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » .

( فانتظرُوا ) نزول العذاب لإصراركم مع وضوح الحق ( إنِّى مَعَكم مِنَ المنتظِرِينَ ) نزوله .

( فأنْجيناه والَّذينَ مَعه ) فى الدين ( برحمة منَّا ) عليهم لكونهم أهلاً لها ( وقَطَعْنا دَابر الَّذين كذَّبُوا بآياتنا ) أى استأصلناهم ولم يبق خلفهم بعض منهم لتكذيبهم بالمعجزات الدالة على صدق هود ( وما كانُوا مؤمِنينَ ) عطف على الصلة ، وفيه تعريض بأن ما أصابهم إنما هو لعدم إيمانهم ، فمن آمن نجا وهم قليل ، ومن لم يؤمن هلك وهم الكثير ، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة ، قيل : كان مساكنهم الشحر بفتح الشين وكسرها إلى حضرموت إلى عمان ، والشحر ساحل البحر بين عمان

وعدن ، وكانوا مشركين ظالمين لغيرهم ، بفضل قوتهم ، فبعث الله سبحانه إليهم هوداً من أوسطهم نسباً ، وأمرهم بالتوحيد والكف عن الظلم .

قال ابن إسحاق : ولم يأمرهم بغير ذلك فيما يذكر ، فأبوا وزادوا عتواً وقالوا : من أشــد منا قوة وبنوا بكل ريع ، واتخذوا المصــانع ، وبطشوا بطشة جبار ، وآمن به مرثد بن سعد بن عفير وغيره ، وكتم إيمانه وهو وغــيره ممن آمن وهم قليل ، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ، وأجهدهم ذلك ، وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء طلبوا الفرج من الله عند البيت الحرام ، مؤمنهم وكافرهم من أى ملة ، معظمين لمكة عارفين بمكانها من الله ، وأهل مكة يومئذ العماليق ، سموا بذلك لأن أباهم عمليق بن لاود بن سام بن نوح ، وسيدهم معاوية ابن بكر ، وكانت أمه كهولة بنت الحميرى ، وقيل : كلهدة بنت الخبيرى رجل من عاد .

قال فى عرائس القرآن : فلما جهدوا قالوا : جهزوا منكم وفداً إلى مكة يستسقون فبعثوا قيل : ابن عنز ، ولقيم بن هزال ، وعسيل بن صد ابن عاد الأكبر ، ومرثد بن سعد ، وجلهمة بن الخبيرى وغيرهم ، وكانوا سبعين ، كل واحد ممن ذكرت برهط من قومه حتى تم سبعون ونزلوا على معاوية بن بكر المذكور ، وهو بظاهر مكة خارج الحرم ، فأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره ، وأن أمه من عاد لا من ثمود كما مر ، فأقاموا عنده شــهرين يشربون الخمر ، وتغنى لهم الجرادتان ، وهما أمتــان ، لمعاوية المذكور ، وكانت إحداهما اسمها جرادة ، والأخرى وردة فالجرادتان تغليب ، وكان مسيرهم شهراً ، ومقامهم عنــده شهراً فلما رأى معــاوية طول مقامهم ، وقد بعث بهم قومهم يستسقون لما بهم من البلاء ، شق عليه ذلك وقال : هلك أخوالى وأصهارى ، وهؤلاء مقيمون عندى وهم

أضيافى ، وأستحى إن أمرتهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه ظنوا أنى ضقت منهم ، وقد هلك قومهم عطشا ، فشكا ذلك إلى الجرادتين فقالتا : قل شعراً ما يدرون من قاله نغنيهم به ، لعل ذلك يحركهم فقال :

ألا ياقيل ويحك من هوينم
لعل الله يجعلنا غماما
ويروى يصحبنا ويروى يسقينا
فيسقى أرض عاد إن عادا
قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو
به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير
فقد أمست نساؤهم أياما

وروى هيامى :

وإن الوحش يأتيهم جهاراً
ولا يخشى لعادى سهاما

وروى تأتيهم ولا يخشى بالمثناة الفوقية .

وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم
نهاركم وليلكم التماما

وروى برغد عيش .

فقبح وفدكم من وفد قوم
ولا لقوا التحية والسلاما

والهينمة الكلام الخفى الذى يسمع ولا يتبين ، والمراد هنا الدعاء الذى هو كذلك فغنتا بذلك ، فقال بعضهم لبعض : يا قوم إنما بعثكم قومكم ليستغيثوا بكم من بلائهم ، وقد أبطأتم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم ، فقال مرثد : إنكم والله لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى ربكم سقيتم وأظهر إسلامه حينئذ ، وقال :

عصت عاد" رسولهم فأمسوا
عطاشاً ما تبلّهم السماء

لهم صنم يقال له صمود"
يقابله صداء والبهاء

فبصّرنا الرسول سبيل رشد
فأبصرنا الهدى وجلا العماء

وإن إله هود هو ربى
على الله التوكّل والرجاء

لقد حكم الإله وليس جور
بحكم الله إذ غاب الهواء

على عادٍ ، وعاد شر قوم
وقد هلكوا وليس لهم بقاء

وإنّى لن أفارق دين هود
طوال الدهر أو يأتى الغنساء

فأجابه جلهمة مسميا له باسم أبيه ، أو مقدرا مضافا أى يا ولد سعد أو يا ابن سعد :

ألا يا سعد إنك من قبيل
ذوى كرمٍ وأمك من ثمود
فإنّا لا نطيعك ما بقينا
ولسنا فاعلين لما تريد

بكسر الدال للقافية وهو قبيح أو بضمها فلزم الإقواء وهو عيب .

أتأمرنا لنترك دين وفدٍ
ورمل آل صد والعتود

ونترك دين آباء كرام
ذوى رأى ونتبع دين هود

ثم قال جلهمة لمعاوية وأبيه بكر وكان شيخا كبيرا ، احبس عنا مرثدا فلا يقدمن معنا مكة ، فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد ، فلما وصلوا مكة خرج مرثد فلحقهم قبل أن يستسقوا فقال : اللهم أعطنى سؤلى وحدى ، ولا تدخلنى فيما يدعونك به ، وقال قيل بن عنز رأس وفد عاد : اللهم أعطى قيلا ما سألك ، اللهم اسقنا فقد هلكنا ، وقال من معه : واجعل سؤالنا مع سؤاله ، وكان لقمان بن عاد قد جاء بعدهم متخلفا عنهم وقيل : أرساوه فتخلف عنهم ،

وجاء وحده ، وكان سيد عاد ، وقال بعد فراغ دعائهم : اللهم إنى جئتك فى حاجتى وحدى وإنى لم أجىء لمريض فأداويه ، ولا لأسير فأفاديه .

وقد قال قيل المذكور : اللهم اسقى عاداً ما كنت تسقيهم ، فأنشأ الله سحائب ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ، ونادى ملك من السحاب : يا قيل اختر لنفسك وقومك ، فقال : اخترت السوداء فإنها أكثر مـاء فناداه الملك : اخترت دمارا رقدا ، لا تبقى من آل عاد أحدا لا والدا ولا ولدا إلا جعلتهم همدا إلا بنى اللودية الهمدا ، وهم رهط لقيم ابن هزالى سكنوا مع أخوالهم بمكة ، لم يكونوا مع عاد بأرضهم وهم عاد الآخرة ، فسيقت إليهم فخرجت عليهم من واد يقال له المنيث ، فاستبشروا هـذا عارض ممطرنا ، وأول من عرفها وأبصر ما فيها من الهلاك امرأة من عـاد يقال لها مهدد ، رأتها وصاحت وصعقت ثم أفاقت ، قالوا : ما رأيت ؟ قالت : ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها .

وعن عمر بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أوحى الله إلى الريح العقيم أن تخرج إلى عاد فتنتقم منهم ، فخرجت بغير كل على قـدر منخر ثور ، حتى رجفت الأرض مشرقا ومغربا فقال الخزان : يا رب لن أطيقها ولو خرجت على حالها لأهلكت ما بين المشرق والمغرب ، فأوحى الله تعالى أن ارجعى فاخرجى على قدر خرز الخاتم ، فرجعت وخرجت على قدر خرز الخاتم فسخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسـوما فأهلكتهم إلا هوداً ومن آمن ، قد اعتزلوا فى حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم ويلتذون به ، وإنها لتمر بالطعن من عاد فتحملهم بين السماء والأرض وترضخهم بالحجارة حتى هلكوا وقيل : تحمل الظعن وتلقيها فى البحر .

قال محمد بن إسحاق ، والسدى : بعث الله على عاد الريح العقيم ، فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال نظيرهم بين السماء والأرض ، فتبادروا للبيوت ، فجاءت وفتحت الأبواب وأخرجتهم وأهلكتهم ، فأرسل الله عليهم طيرا سودا فنقلتهم إلى البحر .

قال عطاء بن يسار : لما خرجت الريح على عاد من الوادى ، قال سبعة أحدهم الجلجال وهو كبيرهم ورئيسهم : تعالوا نقم على شفير الوادى فنردها ، فجعلت الريح تدخل تحت الواحد فتحمله وترمى به وتدق عنقه ، وكانت الريح تحمل الشجرة العظيمة من عروقها وتهدم عليهم بيوتهم ولم يبق إلا الجلجال ، فمال إلى الجبل فأخذ بجانب منه فهزه فاهتز فى يده ، فقال :

لم يبق إلا جلجل بنفسه
يا لك من يوم دهى كأمسه

فقال له هود عليه السلام : يا جلجال أسلم تسلم ، فقال له : مالى عند ربك إذا أسلمت ؟ قال : الجنة ، قال : فما هؤلاء الذين أراهم فى السحاب كأنهم البخت ؟ قال هود : تلك الملائكة ، قال : إن أسلمت أفيقيدنى ربى منهم لقومى ؟ قال : ويحك ، هل رأيت ملكا يقيد من جنده ؟ قال : لو فعل ما رضيت ، فألجأته الريح بأصحابه فأهلكته .

وعن أبى أمامة الباهلى ، عنه صلى الله عليه وسلم : « يبيت قوم من هذه الأمة على طعام وشراب فيصبحون قردة وخنازير وليصيبنهم خسف وقذف ، فيقال : لقد خسف اليوم ببنى فلان ، ولنرسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عادا بشربهم الخمر وأكلهم الربا واتخاذهم الإماء للتغنى ، ولبسهم الحرير ، وقطعهم الأرحام » .

وخرج وفد عادٍ من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عنده فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة له فى ليلةٍ مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد ، فأخبرهم بهلاك عاد ، قالوا لـــه : فأين فارقت هـــودا وأصحابه ؟ قال : فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكوا فى حديثه ، فقالت هذيلة بنت بكر : صدق ورب الكعبة وذكروا أنه قيل للقمان ومرثد وقيل ابن عنز من السحائب بعد دعاء قيل : اختاروا لأنفسكم غير أنه لا سبيل إلى الخلود ، فقال مرثد : اللهم أعطنى برا وصدقا فأعطى ذلك ، وقال قيل : أختار أن يصيبنى ما أصاب قومى ، فقيل له : إنه الهلاك ، فقال : لا أبالى لا حاجة لى فى البقاء بعدهم ، فأصابه ما أصابهم ، فهلك هو ومن معه من الوفد بالريح بعد ما خرجوا من الحرم .

وقال لقمان : يا رب أعطنى عمرا ، فقال : اختر لنفسك بقاء أبعار فى جبل وعر ، لا يلقاه مطر أو عمر سبعة أنسر ، فاستحقر أمر الأبعار فاختار عمر الأنسر ، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته ويأخذ الذكر لقوته ويربيه حتى إذا مات أخذ غيره حتى أتى على السابع وكل منها يعيش ثمانين عاما ولم يبق غير السابع ، قال ابن أخيه : يا عم لم يبق من عمرك إلا هذا النسر ، فقال لقمان : يا ابن أخى هذا لبد ، وهو بألسنتهم الدهر ، وقيل : اسم لذلك النسر .

ولما انقضى عمر لبد طارت النسور من رأس الجبل إلا لبد ، وكانت أنسرة لا تغيب عنه غيبة طويلة فطلع إلى الجبل ، فلم ير النسور وراء لبد ، فناداه لينهض ، فذهب لينهض فلم يستطع فسقط فمات ، وقد وجد لقمان عند طلوع الجبال ، وهنا فى نفسه ولم يكن يجده قبل ذلك ، فمات معه ، رضى الله عنه ، وكان يقال : أتى الأبد على لبد ، قال النابغة :

أمست خـلاء وأمسى أهلها احتملوا
أخنى عليها الـذى أخنى عـلى لبـد

وسار مرثد بعد خبر الراكب حتى لحق بهود ومن معه ، وارتحلوا لناحية من اليمن ، وبقى هود ما شاء الله ، ثم مات وعمره مائة وخمسون سنة فى حضرموت •

قال على لرجل من أهل حضرموت : هل رأيت كثيبا أحمر ، تخالطه مدرة حمراء يسمى مدركا بناحية كذا من حضرموت ؟ قال : نعم والله إنك لتنعت نعت رجل قد رآه ، قال : لا ولكنى حدثت عنه ، فقال الحضرمى : وما شأنه ؟ قال : فيه قبر هود عليه السلام •

وعن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن بن ساباط : بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبيا ، وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام فى تلك البقعة ، وروى : ما هلكت أمة إلا جاء نبيها ومن آمن به مكة يعبدون فيها حتى يموتوا • انتهى كلام عرائس القرآن بزيادة يسيرة ، وفيه أن مرثدا قال حين سمع قول الراكب :

ألا نزع المهيمن خلد عـاد
فإن قلـوبهم قفـر هـواء
من الخير المبين وعنه مالـوا
وما تغنى النصيحة فى الشـقاء

بكسر الهمزة ففيه إقواء •

فنفسـى ثـم أبنـائى وأمى
لنفس نبينـا هـود فـداء

أتـــانا والقلـــوب مغمـــدات
علــى كفر وقــد ذهب الضــياء

لنا صنم يقــال لــه صــمود
يقابلــه صــداه والهبـــاء

ففـــاز مَنْ إلى الإيمان تـــاب
وأدرك مَـــنْ يكذبــه الشــقاء

وإننى ســألحق آل هـــود
وإخوتــه إذا جــن المســاء

وقيل : إن الريح دفنتهم ، وكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام ، يسمع لهم أنين ثم كشفت الريح عنهم فألقتهم فى البحر ، ولـم تبعث ريح بغير مكيال إلا هذه فإنه قيل : عتت على الخزنة كما يأتى إن شاء الله فى الحاقة .

( وإلـَى ثمودَ ) قبيلة سميت بذلك لقلة مائها ، والثمد الماء القليل ، وقيل : سميت باسم أبيها ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عائد ، قيل : ولد صالح عابر المذكور بعد أن مضى من عمره ثلاثون سنة ، وهم عاد الأخيرة ، وقرأ يحيى بن وثاب : ثمود بالصرف إما نظرا إلى الأصل فإنه اسم لأبيهم ، أو للماء القليل فى الأصل ، أو لتقدير مضاف أى إلى أولاد ثمود ، أو لتأويله بالحى ، وكذا قرأ فى جميع القرآن ، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله ، وكل من عاد وثمود عرب .

( أخَاهُم ) فى النسب ، قال الزجاج يحتمل إخوة الآدمية : فسمى

أخا لأنه بعث إليهم ( صَالحاً ) وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماشح ابن عبيد بن حاذر بن ثمود ، قال بعضهم : هود وصالح وإسماعيل عربيون ، لكن العربية فصحى لإسماعيل ومن بعده .

( قالَ يا قَوم اعبُدُوا اللهَ ) وحدوا الله ، ويلزم من توحيده أن يعبدوه ، أو المعنى تقربوا إليه بأداء الفرض وبالنفل ، وذلك يتولد عن توحيده ( مالكُم من إلهٍ غَيرهُ ) فيه ما مر وكأنه قيل : ما الدليل على حجة ذلك فقال :

( قَد جاءَتكُم بينةٌ من ربكُم ) دليل قاطع على صدقى فيما دعوتكم إليه ونبئونى ، وليس هذا من أول ما قال لهم ، فإن هذه البينة هى الناقة ، قال ذلك بعد خروجها أو قبله بقليل تحقيقا لخروجها واستحضارا له ، كأنه مشاهد والبينة الدليل أو البرهان ، وأصله وصف تغلبت عليه الاسمية هنا ، أو باق على الوصفية لاشتهار موصوفها ، أى آية أو حجة أو موعظة بينة ، وكأنه سئل ما هذه الآية فقال :

( هذِهِ ناقةُ اللهِ لكُم آيةً ) وذلك على أنه اقترحها لهم ، أعنى الناقة أو سألوه إياها فقال : قد جاءتكم بينة فلا يدرون ما هذه البينة ، لعلها غير ما سألوه ، وإنا على ما اشتهر من أنه سألوه إياها فقال لهم : نعم ، فصلى فخرجت فلا يتأتى أن يسألوه ما هذه الآية ، لأنهم قد علموها بسؤالهم إياها ، وقوله : نعم ، إلا أن ظنوا أو شكوا هل هى ما طلبوه من الناقة أو غيرها ؟ وناقة خبر ، ولكم حال من آية وآية حال من ناقة ، عمل فيها معنى الإشارة أو لكم خبر ثان ، وآية حال من ضمير الاستقرار فيه ، أو من ناقة ، أو ناقة بدل أو بيان ، ولكم خبر ، وآية حال من الضمير فيه ، وهى ولو كانت آية لهم ولغيرهم ، لكنهم هم الراءون لها ،

وليس الخبر كالعيان ، ولأنها فى شأنهم ، أو لأنهم سألوها فقيل لكم مقدما للحصر على آية ، لأن غيرهم لا يقطع عذرهم بها ، بل بغيرها .

وإنما أضيفت لله تعظيما لها ، ولأنها جاءت من عنده بلا فحل وبلا ناقة طروقة ، خلقت فى ساعة وخرجت من صخرة ، ولأنها حجة الله عليهم ولأنها لم يجر عليها ملك أحد ، ووجه كونها آية خلقها فى صخرة فى ساعة ، وخروجها وعظمها أو حلبهم منا ما شاءوا ، وقيل : شربها ماء البئر كله وحدها ، وهذا يغنى عنه عظم وإنما يكون معجزة لو كانت فى قدر الناقة ، وكانت تشربه كله ، وقد صح أنها عظيمة كما يأتى إلا إن كان صاحب هذا القول يقول إنها فى قدرة الناقة .

وقيل : إن صالحا عليه السلام أخذ ناقة من سائر النوق وجعل لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم ، فالآية فى شربها الماء كله وحلبها ، وقال النقاش ، عن الحسن : ناقة من إبلهم لم تكن تحلب ، فالآية فى الشرب وحلبها وهى لاتحلب ، وحلب ما شاءوا منها والأصح ما اشتهر أنها خرجت من الصخرة ومن الآية على كل قول ما قيل أن الدواب والوحش تمتنع الشرب فى يوم شربها بدون صاد لها عن الماء .

( فَذَرُوها تأكُلْ فى أرضِ اللهِ ) العشب فإنها ناقة الله ، والأرض أرض الله ، والعشب عشب الله ، أخرجه بلا زجر منكم ، مع أنه لو خرج بما زجرتموه ، فأنتم وما بأيديكم ملك لله ، وقرأ أبو جعفر برفع تأكل فى رواية ، فالجملة حال ( ولا تمسُّوها بسُوءٍ ) كمنع من ماء أو حشيش وكضرب وقتل وطرد ونقص من ماء يومها ، هذا هو الصحيح ، وقيل : المراد القتل ( فيأخُذكُم عذابٌ أليمٌ ) موجع ، والنصب فى جواب

النهى ، نهاهم عن المس بالسوء مبالغة إذ لم يقل لا تسوءها ، وسوء عام نكرة فى سياق السلب ، وفى ذلك إزالة للعذر إذا مسوها بالسوء .

( واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكم خُلَفاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ) فيه ما مرّ والخلفاء فيهما جمع أو خليف ( وبَوَّأَكم ) أسكنكم ومكنكم ( فى الأرْض ) أرض الحجر بين الشام والحجاز ( تتَّخذونَ مَنْ سُهولها ) جمع سهل ( قُصوراً ) أى تبنون قصورا من المواضع السهلة بعمل اللبن والآجر منها ، أو من بمعنى فى ، أى تتخذون فى سهولها قصورا ، والقصور الدور ، سميت قصورا لأنها مقصورة فى مواضعها لا كبيوت العمود تنتقل ، ولأنها قصرت عن الناس قصرا تاما .

( وتنْحِتونَ ) وقرأ الحسن بفتح الحاء ، وقرأ ابن مصرف بالمثناة التحتية وكسر الحاء ، وقرأ أبو مالك بالتحتية وفتح الحاء ، وعن الحسن أيضا تنحاتون بالفوقية والفتح وألف الإشباع ، والنحت النجر والقشر فى الشىء الصلب كالحجر والعود ( الجِبالَ ) مفعول به ( بيُوتاً ) حال قدرة ، أى تقشرون الجبال منوية أن تكون بيوتا ، أو مفعول ثان على أن تنحتون مضمن معنى تتخذون ، أو الجبال على تقدير من ، أى تنحتون بيوتا من الجبال أى تكسرها من الجبال بعملها فى الجبال أو بقلع الحجر وإصلاحه والبناء به فى السهل ، لما رأوا الأجر واللبن تتفتت وتتهدم لطول أعمارهم ، وقيل : يسكنون السهل فى الصيف والجبال فى الشتاء ، فهم متنعمون مترفهون .

( فاذْكُروا آلاءَ الله ) نعمة بالشكر عليها ( ولا تعْثَوا ) مضارع عثى بكسر الثاء كرضى ، وقرأ الأعمش بكسر الثاء الأولى ، ومعنى عثى من باب رضى وعلم ، وعثى باب رضى وضرب ، وعثا من باب دعا ونصر

أفسد ، وقيل : أفسد أشد الفساد ، والمراد النهى عن كل إفساد فى الناقة أو غيرها وهو الصحيح ، وقيل : المراد قتلها ( فى الأرْض مُفْسِدينَ ) حال مؤكدة لعاملها ، وقول الحسن : لا تكونوا فى الأرض مفسدين ، وقول قتادة : لا تسيروا فى الأرض مفسدين غير منظور فيهما إلى لفظ لا تعثوا ، بل تفسير بما تقبله الشريعة من غير نظر إلى اللغة ، فإن عثى بلغاته لا يكون بمعنى صار ولا بمعنى كان •

( قالَ ) وقرأ أبو عمرو : وقال بالواو ( الملأُ الَّذينَ اسْتكبرُوا مِن قَوْمه ) عن الإيمان بمعنى تكبروا ، ويجوز كونه بمعنى كبروا بالمال والجاه وعظموا كعجب واستعجب •

( لِلَّذينَ اسْتُضْعِفوا ) استضعفوهم واستذلوهم لفقر أو نسب ، وهم قد آمنوا بصالح ، وكذلك تكون أتباع الرسل هم الضعفاء ثم ينمو الإيمان •

( لمنْ آمنَ منْهُم ) اللام وما بعدها بدل من قوله : « للذين استضعفوا » بدل مطابق ، والهاء لثمود ، فالمراد بالمستضعفين المستضعفون المؤمنون ، أو بدل بعض والهاء للذين استضعفوا ، فالمراد بالمستضعفين المستضعفون المؤمنون والكافرون ( أتعْلمون أنَّ صالحاً مُرسلٌ مِن ربِّه ) إلينا وإليكم ، أى أتعتقدون ذلك جازمين به ، وهذا منهم سخرية واستهزاء •

( قالُوا ) أى الذين استضعفوا ( إنَّا بما أرْسِلَ بهِ مُؤمنُون ) الأصل أن يقولوا فى الجواب : نعلم أنه مرسل من ربه ، أو نعم ، لكن لوَّحوا لهم أن إرساله وما يتضمنه من الحق والهدى أمر معلوم مكشوف

لا ريب فيه ، حتى إنه لا ينبغى لكم السؤال عنه ، وإنما ينبغى الكلام فى الإيمان به ، فنحن مؤمنون به •

( قالَ الَّذين اسْتكبرُوا إنَّا بالَّذى آمنتم به ) وهو ما أرسل به صالح ، أو صالح وهما مثلان تامان والأول أولى لمطابقته حدا لما قبله ( كافِرُون ) وذلك جواب أتى به طبقا لجواب المؤمنين ، ولو أجاب المؤمنون بما ذكرت أنه الأصل ، لأجاب الكفار بأنا لا نعلم أنه مرسل من ربه •

( فعَقَرَوا النَّاقَةَ ) قتلوها ، أو قطعوا عرقوبها ، وقطعه مستلزم لموتها ، أو قطعوه ثم نحروها ، واكتفى بذكر العقر لأن من عادتهم إذا أرادوا نحر بعير أن يقطعوا عرقوبه ( وعَتَوْا ) هذا من عتى كرمى وضرب ، أو من عتا كدعا ونصر ، بدليل فتح التاء وإسكان الواو حيا فليس ماضيا للمضارع المذكور قبله ، لعدم ضمها وإسكان الواو ميتا ( عَن أمر ربِّهم ) وهو ما بلغهم صالح مطلقا ، أو المراد قوله : « فذروها » الخ وعداه بعن لتضمنه معنى استكبروا •

وإنما أسند العقر والتوبة إليهم ، مع أن فاعل ذلك بعضهم ، لأنه فيهم ولرضاهم بذلك وسكوتهم ، وأمر بعضهم بذلك ، بل روى أن قدارا ما عقرها حتى استشار الرجال والنساء والصبيان ، فتوافقوا على عقرها ، ويجوز أن يكون معنى عتوهم عن أمر ربهم أن أمر ربهم بالحق مطلقا وبتركها هو السبب فى عتوهم ، ولو لم يأمرهم لم يسموا عاصين لأمره ، كما يكون القرآن سببا لزيادة كفر الكافرين بأن يؤمروا فيه بأمر ويتركوه ويجحدوه •

( وقالُوا يا صالحُ ائتِنَا ) بإبدال ياء ائتنا واوا لسكونها بعد ضمة ، وفى ضمة الحاء وأصل هذه الياء همزة والأصل إإتنا بمهزة وصل مكسورة ، فهمزة مسكنة وهى فاء الفعل ، أبدلت ياء لسكونها بعد همزة مكسورة ، فحذفت الهمزة الأولى وهى همزة الوصل لأنها لا تثبت فى الدرج ، فاتصلت الياء بالحاء فى النطق ، ولو فصلت بينهما فى الخط همزة فقلبت الياء واوا لسكونها بعد ضمة ، وابن برى يعبر بأن الهمزة قلبت واوا أعنى الهمزة الثانية ، إذ قال فى الدرر اللوامع : أبدل ورش كل فاء سكنت ، يعنى أنه يبدل كل همزة وقعت فاء وسكنت من جنس حركة ما قبلها فيبدلها بعد فتحة ألفا نحو : ياكل ويالم ويابى وما منه : ويان وفلا تائس ويالونكم وماكول ، وبعد ضمة واو نحو : يومنوا ويولون ويوتيه وياء بعد كسرة نحو : أن ايت .

قال شارحه : سواء ذلك فى كلمة كما ذكر ، أو فى كلمتين نحو : لقاءنا ايت وإلى الهدى ائتنا ، ويا صالح ايتنا ، يقول : إيذن لى ثم ايتوا صفا الذى اوتمن ، فتمد جاء يا صالح ايتنا بواو فى موضع الياء فتنطق بالحاء ممدودة بواو تلى الواو تاء مثناة فوق لا غير ذلك : وينطق فى الهدى ائتنا بدال مفتوحة ممدودة بألف هو بدل من ياء ايتنا ، وإن شئت فقل عن همزته الثانية .

وأما ألف الهدى بعد الدال فحذفت للساكن بعدها ، وهو الألف المبدلة من الياء بدليل أنهم لم يكتبوا ألفا حمراء بعد الدال فوق صورة الياء هكذا الهدى ، وأما همزة ائتنا الأولى فهمزة وصل لم تثبت فى الدرج ، وهكذا يقرأ لقاءنا ايت ، وثم ايتوا وأما الذى اوتمن فيقرأ بدال ممدودة بياء هى بدل واو واوتمن قلبت ياء لانكسار ما قبلها ، وإن شئت فقل أبدلت الهمزة الثانية ياء لكسرة الذال .

وأما ياء الذى فحذفت نطقا لسكون هذه الياء ، وإن قلت : فكيف كتب ايتنا وايت وايتوا وإيذن لى ياء مع أنها أبدلت ألفا ، وكتب أوتمن واو مع أنه أبدلت ياء ؟ قلت : اعتبارا للوقف على الكلمة قبلها فيبدأ اوتمن بهمزة وصل مضمومة فتبقى الواو وتبدأ تلك الكلمات بهمزة وصل مكسورة ، فتبقى الياء ، وأما قالون فيبقى الهمزة الثانية فى ذلك كله ويسكنها ، ومراد صاحب الدر اللوامع بالإبدال التسهيل الضعيف المائل إلى حرف المد ، لأنه قال فى ترجمته :

سلكت فى ذاك طريق الدانى
كان ذا حفظ وذا إتقان

والدانى أبو عمرو قال : اعلم أن ورشا ليسهل الهمزة اذا كانت فاء نحو : الذى اوتمن والملك ايتونى به ، وحكى عن حمزة إبدالها حرف مد خالصا ، قال أبو عمرو الدانى : أهل الأداء من مشيخة المصريين الآخذين برواية أبى يعقوب ، عن ورش قيل وقرأ عاصم وعيسى بتخفيف الهمزة التى هى فاء الكلمة كأنها ياء ، قال أبو حاتم : قرأ أبو عمرو والأعمش بضم الهمزة مشبعة ، ولا وجه له اللهم إلا أن يقال : الضم تبع للحاء والإتباع زيادة كما قرىء تنحاتون بالإشباع ، وذلك فى الهمزة التى هى فاء الكلمة ، لأنها هى التى تثبت فى الوصل .

( بما تَعِدُنا ) من العذاب على الكفر ومس الناقة بالسوء ، وإنما لم يقولوا إنما توعدنا من أوعد الذى هو المستعمل فى الشر ، لأنه معلوم أن المراد الوعيد ( إنْ كُنتَ مِنَ المرسَلينَ ) وذلك استعجال منهم لعذاب إقحاما لصالح ، لاعتقادهم أنه لا يكون ، وأنه غير مرسل ، وعرضوا بأن الله ينصر رسله ؛ فإن كنت منهم فلينتقم منا ربك لك .

( فأخَذَتْهم الرَّجْفَة ) تحرك الأرْض تحركا شديدا ويسمى الزلزلة قاله الحسن والفراء والزجاج ، وفى آيـة أخرى : « أخـذتهم الصيحة » فيكونون قد أجيبوا بزلزلة مـن فوقهم ، وبصيحة مـن تحتهم ، وقال مجاهد والسدى : الرجفة هى الصيحة الشديدة التى يخال بها أن الأرض تحركت وهو الصحيح عندى .

( فأصبْحوا ) صاروا ( فى دَارِهم ) أى فى أرضهم ، كما يقال : دار عدل ودار إسلام ، ودار جور ودار شرك ودار حرب ، ولذلك أفرد وحيث جمع فالمراد ما لكل واحد من مسكن أو موضع صعق فيه ، ويحتمل أن يكون المعنى فى ديارهم ، وأفرد لإضافته للجمع الدال على ذلك .

( جاثِمينَ ) ملتصقة صدورهم بالأرض ، لأنها انشقت بالصيحة كما جثم الطائر إذا نام أو سكن ليلا ، ويلزم من التصاق صـدورهم بالأرض التصاق وجوههم بها ، وقيل : المعنى هامدين لا يتحركون ، وقيل : حمما محترقين كالرماد ، نفتته ونفرقه ، فتكون الصيحة مقترنة بصواعق محرقة .

( فتولَّى ) أعرض ( عَنْهم ) عقب هلاكهم ( وقَالَ يا قَوْم لَقَد أبلغتكم رسالاتِ ربِّى ونَصحتُ لكُم ولكنْ لا تُحبُّون النَّاصحِينَ ) وذلك أن كلام الناصح صعب لمضادته لشهوة المنصوح ، وإنما كلم الموتى تفجعا عليهم وتحسراً على إيمانهم ، أو لأنهم يسمعونه توبيخا وتقريعا ، وقد اشتهر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم موتى بدر الكفرة بعد إلقائهم فى القليب : « يا فلان يا فلان إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » وقال عمر : يا رسول الله كيف تكلم أقواما موتى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم بأسمع لمـا أقول منهم لكن لا يجيبون » كما يأتى إن شاء الله .

وفى خطاب صالح بذلك عبرة لمن يأتى وزجر ، وقيل : تولى عنهم وهم أحياء ، وخاطبهم بذلك أحياء قبل نزول العذاب ، والصحيح عندى الأول ، وأما الثانى فترده الفاء إلا أن يقال : الترتيب الذكرى ، أو بمعنى الواو العاطفة المقدم على الآخر ، ولا دليل له فيما قيل إنه لم تهلك أمة ونبيها ، فإن معناه ونبيها بينهم ، وأما أن تهلك هو بمعزل عنهم ، خارج عنهم فواقع ، نعم يتعين ذلك القائل الثانى أن الأصح ما روى أنه ارتحل بمن معه حتى جاء مكة فما أقام بها حتى صيح عليهم .

قال فى عرائس القرآن : عزت ثمود وكثرت بعد عاد ، وجعل أحدهم يبنى المسكن من المدر فيهدم وهو حى ، فاتخذوا الجبال بيوتا ، وكانوا فى سعة معاش وخالفوا أمر الله ، وعبدوا غيره ، فبعث الله إليهم صالحا وهو شاب يدعوهم حتى كان أشمط ، ، وما آمن إلا قليل مستضعفون قلت : وقيل : بعث إليهم وهو غلام ، فكان يدعوهم حتى شمط .

وقيل : بعث إليهم لأربعين عاما من عمره ، وبقى فيهم عشرين عاما ، ولما ألح عليهم صالح بالدعاء وأكثر التحذير والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصدقة لما يقول ، ويعتبرون بها ، قال : أى آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا ، وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم فى يوم معلوم من السنة ، فتدعو إلهك وندعوا إلهنا ، فإن استجاب لك اتبعناك أو لنا اتبعنا ، قال : نعم ، فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم فدعوا أن لا يستجاب لصالح فى شىء مما يدعو به .

ثم قال جندع بن عمرو بن حواش ، وروى جدع بإسقاط النون بعد ما دعوها ولم تستجب ، وهو سيد ثمود : ياصالح أخرج لنا من هذه الصخرة ، وكانت صخرة منفردة عن البلد فى ناحية البحر يقال لها

الكاثبة ، وقيل : قالوا من هذه الهضبة وهى أيضا الصخرة أخرج نـاقة مخترجة ، أى على صورة البعير جوفاء ، أى لها بطن كبير ، أو فى بطنها جنين وبراء ، أى لها وبر ، فإن فعلت ذلك صدقناك ، فأخذ عليهم الميثاق على ذلك ، فصلى ركعتين ودعا الله فتمخضت الصخرة تمخض الثلـوج لولدها ، وتحركت فانصدعت عن ناقة مخترجة جوفاء وبراء كما قالوا عشراء أى أتى عليها عشرة أشهر منذ نتجت ، لا يعلم ما بين جنبيهـا وعظمها إلا الله ، وخرج معها سَقَبَها بفتح السين والقاف ، وهو ولد الناقة الذكر .

وقيل : خرجت وهى حامل به ثم ولدته وهو مثلها فى العظم ، وقد فسر بعضهم العشراء بالتى أتى عليها عشرة أشهر منذ حملت ، فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه ، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به ، فنهاهم دواب بن عمرو بن لبيد ، وروى ابن لبيب والحباب صاحبا أوثانهم ، وربان بن صمغر كاهنهم ، وكان لجندع ابن أم له اسمه شهاب أراد أن يؤمن فنهاه هؤلاء .

وقيل : خرجت الناقة وحدها غير حامل ، وضاربها جمل من جمالهم فحملت بفصيلها المشهور ، ولما خرجت قال لهم : « هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » فكانت ترعى هى وولدها ، وإذا كان يومها وضعت رأسها فى بئر الحجر يقال لها بئر الناقة ، فيرتفع الماء إليها فما ترفع رأسها حتى يفرغ الماء ، ولم تبق فيها قطرة ، ولعل فصيلها يشرب مما يجتمع بعد ذلك فى اليوم أو من غيره أو فى يومهم .

وقيل : إن ماءهم من جبل لآخر تشربه كله فى يومها لعظمها ، وإذا شربت وسعت ما بين رجليها فيحلبون ما شاء من لبن ويشربون ويملئون

أوانيهم ، ويدخرون ، وتصدر من غير الفج الذى وردت منه لضيقه عنها بعد شربها •

قال أبو موسى الأشعرى : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا ، وإذا كان الغـد شربوا هم ودوابهم وادخروا ليومها ، وكانوا منها فى ساعة ونصف بظهر الوادى ، فتهرب أغنامهم ودوابهم كلها خوفا منها إلى بطنه فى حر وجدب ، وتشتوا فى بطنه فتهرب دوابهم إلى ظهره فى برد وجدب ، فأضر ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار ، وكانت الناقة ترعى وادى الحجر كله ، وشق ذلك عليهم وقالوا : مـا نصنع باللبن ، الماء أحب إلينا منه ، نسقى حروثنا به ، ونستقل بـه نحن ودوابنا ، وننتفع وحدنا بالحشيش ، وحملهم ذلك على عقرها •

وكانت امرأة من ثمود يقال لها : عنيزة بنت غنم بن مخلد ، وكانت عجوزا مسنة ولها بنات حسان ومال كثير مـن الإبل والبقر والغنم ، وامرأة أخرى يقال لها : صدق بنت المحيا بن دهر ، وقيل بنت المختار ابن دهر ، وكانت غنية جميلة ذات مواش كثيرة من إبل وبقر وغنم ، وكانتا شديدتى العداوة لصالح عليه السلام لماشيتهما •

وكانت صدوق عند ابن خال لها يقال له : خيثم بن مراوة بن سعيد ابن الغضريف بن هليل ، أسلم وحسن إسلامه ، وقد وضعت مالها عنده فأنفقه على من أسلم ، فعاتبته على ذلك وما بقى إلا قليل ، فأظهر للها دينه ودعاها إلى الله فأبت وشنعت ، فأخذت أولادها منه فغيبتهم فى بنى عبيد الذين هى منهم ، فقال لها خيثم : رديهم علىَّ ، فقالت : لا ، وألح عليها ، فقالت : حتى أنافرك إلى بنى عبيد وبنى جدع بن عبد فقال خيثم : أنافرك إلى بنى مرداس بن عبيد وهم مسلمون ، فقا

لا أنافرك إلا لمن دعوتك إليهم ، فقال لها : بنو مرداس والله لتعطينهم له طائعة أو كارهة ، فأعطته إياهم ٠

ثم إن صدوق وعنيزة تحيلتا فى عقرها للشقاء الذى كتب الله عليهما ، فدعت صدوق رجلا من ثمود يقال له الحباب لعقرها ، وعرضت عليه نفسها إن فعل فأبى ، فدعت ابن عم لها يقال له : مصدع بن مهرج بن المحيى ، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة ، وكانت من أوفر الناس حالا وأكثرهم مالا وأحسنهم نسبا ، فأجابها إلى ذلك ٠

ودعت عنيزة وهى امرأة دواب بن عمرو ، قدار بن سالف من أهل قرح ، واسم أمه قديرة ، وكان أحمر أزرق قصيرا وقالوا : إنه لزنى من رجل يقال له ضبيان ، ولد على فراش سالف ، فقالت له : أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة ، وكان عزيزا فى قومه شريرا ، فذهبا فاستغووا غواة ثمود فاتبعهم سبعة ، فذلك تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، تأتى أسماؤهم فى النمل إن شاء الله ، قيل : منهم داعر بن دواب بن أخى مصدع ، واجتمعا على عقرها ٠

قال السدى : أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة ، فقال لهم ذلك ، قالوا : ما كنا لنفعل ذلك ، فقال إنه سيولد لكم فى شهركم غلام يعقرها ، ويكون هلاككم على يديه ، فقالوا : لا يولد ولد فى هـذا الشهر إلا قتلناه ، فولد التسعة منهم فى ذلك الشهر بنون فذبحوهم ، وولد للعاشر فأبى ذبحه لأنه لم يولد له قبل ذلك ، وكان أحمر أزرق ، نبت نباتا سريعا ، وكان إذا مر بالتسعة فرأوه ندموا على ذبح أولادهم ، وغضبوا على صالح لأنه السبب فى قتل أولادهم ، ولم يكن قتلهم برضا منهم ، فتقاسموا : لنبيتنه وأهله ، نخرج فيرى الناس أنا قد خرجنا

إلى السفر ، ونأتى الغار فنكون فيه ، حتى إذا جاء الليل خرج صالح إلى مصلاه فنقتله ، ثم نرجع إلى الغار فنكون فيه حتى تمضى ليال وأيام ، ثم نرجع فنقول : ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقوننا .

وكان صالح لا ينام فى القرية معهم ، وكان يأوى إلى مسجد يقال له : مسجد صالح فيبيت فيه ، فإذا أصبح توعّدهم وذكرهم ، فإذا أمسى خرج إلى المسجد ، فدخلوا الغار ليخرجوا القتلة ليلا ، فسقطت عليهم صخرة فقتلتهم ، فانطلق رجال ممن قد اطلع على ذلك ، فإذا هم قد رضخوا ، فرجعوا يقولون ويصيحون : أيا عباد الله ، أما قنع صالح بأن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم ، فاجتمعوا على عقر الناقة .

وقال ابن إسحاق : إنما تقاسمت التسعة على قتل صالح بعد عقر الناقة وقالوا : تعالوا نقتله ، فإن كان صادقا كنا قد عجلنا قتله ، وإن كان كاذبا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلا فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطئوا انطلق أصحابهم إلى منزل صالح فوجدوهم مشدخين ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، وهموا بقتله ، فقامت عشيرته دونه ، وأخذوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلوه أبدا وقد وعدكم أن العذاب واقع بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقا لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا .

قال السدى : كان ابن العاشر يشب فى اليوم ما يشب غيره فى جمعة ، وفى الشهر ما يشب غيره فى السنة ، وهو قدار ، فلما كبر جلس مع أناس يشربون الخمر ، فأرادوا ماء يمزجونها به ، وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة ، فوجدوا الماء قد شربته الناقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فقال لهم : هل لكم أن أعقرها ؟ قالوا : نعم .

وقال كعب : كان سبب عقرهم الناقة ، أن امرأة يقال لها ملكة ، كانت قد ملكت ثمود ، فلما أقبل الناس على صالح ، وصارت الرياسة إليه ، حسدته فقالت لامرأة يقال لها قبال ، وكانت معشوقة مصدع بن مهرج ، ومصدع بن دهر ، وكانا يجتمعان معها كل ليلة ، ويشربون الخمر فقالت لها ملكة : إن أتاك الليلة قدار ومصدع فلا تطيعهما وقولى لهما : إن الملكة حزينة لأجل صالح وناقته ، ولا نطيعكما حتى تعقرا الناقة ، فإن عقرتماها أطعتكما ، فلما أتياها قالت هذه المقالة ، فقالوا : نحن نكون من وراء عقرهـــا ، فانطلقوا قدار ومصدع وأصحابهما السبعة ، فرصدوا الناقة حين صدرت من الماء ، وقد كمن لها قدار فى أصل شجرة على طريقها ، وكمن لها مصدع فى أصل شجرة أخرى ، فمرت الناقـــة على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم فى عضلة ساقها ، وخرجت لهم غنم وعنيزة ، وأمرت ابنتها ، وكانت من أحسن النساء ، فأسفرت لقدار وحرضته على عقرها ، فشد عليها بالسيف ، فكشف عن عرقوبها فخرت ورغت رغاءة واحدة ، ثم طعنها فى لبنها فنحرها ، وخرج أهل البلد فقسموا لحمها وطبخوه .

فلما رأى سقبها ذلك انطلق حتى أتى جبلا منيعا يقال له ضوء ، وقيل : صبور ، وقيل : قاره ، وروى ذلك مسندا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى صالحا آت فقال له : أدرك الناقة فقد عقرت ، فأقبل صالح عليهم فخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه ، ويقولون : يا نبى الله إنما عقرها فلان وفلان ، ولا ذنب لنا ، فقال لهم صالح : انظروا اهل تدركون فصيلها ؟ فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب ، فخرجوا إليه يطلبونه ، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله إلى الجبل فتطاول فى السماء حتى لا يناله الطائر ، وجاء صالح إلى الجبل ، فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ، ثم رغا ثلاثا فانصدعت لـــه

الصخرة حتى دخلها قال صالح : لكل رغوة أجل تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ثم يأتيكم العذاب .

وقال محمد بن إسحاق : اتبع السقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة ، وفيهم مصدع وأخوه دواب ، فرماه مصدع بسهم فأصاب قبله ثم جروه برجله وألقوا لحمه مع لحم أمه ، فقال لهم صالح : انتهكتم حرمة الله ، فأبشروا بالعذاب ، فقالوا له مستهزئين : ومتى ذلك يا صالح ؟ وما آية ذلك ؟ وكانوا يسمون الأحد أولا ، والاثنين أهون ، والثلاثاء جبار والأربعاء دبار ، والخميس مؤنسا ، والجمعة عروبة ، والسبت شبار ، قال شاعرهم :

أؤمل أن أعيش وأن يومى
بأول أو أهون أو جبارا
أو التالى دبارا فإن ابته
فمؤنس أو عروبة أو شبارا

وكان عقرها يوم الأربعاء فقال لهم حين سألوه عن وقت العذاب : إنكم تصبحون غداة مؤنس ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم عروبة وجوهكم محمرة ، ثم تصبحون يوم شبار وجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب يوم أول .

فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنها طليت بالخلوق ، فطلبوه ليقتلوه ، فخرج هاربا إلى بطن من ثمود يقال له : بنو غنم ، فنزل بسيدهم واسمه نفيل ويكنى أبا هدب وهو مشرك ، فكلموه فى ذلك فقال :

نعم عندى صالح وما لكم إليه سبيل ، فتركوه وأعرضوا عنه ، وأشغلهم ما بهم من العذاب .

وقيل : إنهم عذبوا أصحاب صالح ليدلوهم عليه ، فدلّهم عليه مبتدع بن هرم ممن آمن وقال : إنه عند فلان بأمر صالح ، فكلموه فأبى أن يعطيهم إياه ، ثم أعرضوا واشتغلوا بما هم فيه ، فجعل بعضهم يخبر بعضا ما يرون فى وجوههم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم : ألا قد مضى يوم من الأجل فلما أصبحوا فى اليوم الثانى إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم ، فصاحوا وضجوا وبكوا ، وعرفوا أنه صادق ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل ، فلما أصبحوا فى اليوم الثالث إذا وجوههم مسودّة كأنها طليت بالقار ، فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب .

فلما كانت ليلة الأحد خرج صالح عليه السلام من بين أظهرهم ، وخرج معه من أسلم حتى أتوا الشام ، فنزل رملة فلسطين ، ولما أصبحوا فى اليوم الرابع تكفنوا وتحنطوا ، وكانت أكفانهم الأنطاع ، وحنوطهم الصبر والمر ، ثم ألقوا بأنفسهم فى الأرض مرة ينظرون إلى جهة ، وأخرى إلى جهة ، ولا يدرون من أين يأتيهم العذاب .

فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة ، وصوت كل شىء له صوت فى الأرض ، وقيل : صوت كل شىء كمثل الصوت ، فتقطعت قلوبهم فى صدورهم ، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك ، كما قال الله تعالى : « فأخذتهم الصيحة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » ولم ينج منهم إلا جارية مقعدة يقال لها دريعة بنت سابق ، كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام ، أطلق الله رجليها

بعد ما شهدت العذاب ، وخرجت كأسرع شيء حتى أتت وادى المعرى حد ما بين الحجاز والشام ، وأخبرتهم بما رأت من العذاب ، وما أصاب ثمود ، ثم استسقت الماء فسقيت فماتت .

وروى ابن الزبير ، عن جابر بن عبد الله : لما مر النبى صلى الله عليه وسلم بالحجر فى غزوة تبوك قال لأصحابه : « لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خوفا أن يصيبكم مثل ما أصابهم » وأمرهم أن لا يستقوا من مائها ، ولا يعجبوا ، فقالوا : قد فعلنا فقال : « أريقوه واعلفوه لعجين الإبل » وروى : « واطرحوا العجين » وأمرهم أن يستقوا من بئر النـــــاقة .

قال : « ولا تسألوا رسولكم » الآيات هؤلاء قوم صالح سألوها فبعث الله إليهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، وتشرب ماءهم يوم ورودها وأراهم موثقى فصليها من الغارة ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، فأهلك مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجل واحد يقال له أبو رغال ، وهو أبو ثقيف ، كان فى حرم الله فمنعه حرم الله من العذاب ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب ، وأراهم قبـــره ونزلوا فابتدروه بأســـيافهم وحفروا فاستخرجوا ذلك الغصن ، ثم اعتجر صلى الله عليه وسلم بعمامته ، وأسرع السير حتى جاوز الوادى .

وقال قوم من أهل العلم : توفى صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، كان يعبد الله فيها بعد ما بلغ الشام بعد مهلك قومـــه ، وقيل : خرج منهم إلى مكة ، وقيل : كانت الفرقة المؤمنة من قومه أربعة آلاف ،

خرج بهم إلى حضرموت ، ولما دخلوها مات صالح فسمى حضرموت ، وبنوا مدينة سموها حضرموت ، وفى خبر أبى رغال ما يبطل قولهم أنه كان دليل أصحاب الفيل إلى مكة .

وذكر الطبرى : أن امرأتين من ثمود من أعداء صالح ، جعلتا لقدار ومصدع أنفسهما وأموالهما على أن يعقراها ، وقيل : إن قداراً شرب الخمر مع قوم فطلبوا ماء يمزجون به الخمر ، فلم يجدوه لشرب الناقة إياه ، وعزموا على عقرها ، وكمن لها قدار خلف الصخرة ، فلما دنت منه رماها بالحربة ، ثم سقطت فنحرها ، ثم اتبعوا الفصيل فهرب منهم حتى علا ربوة ورغا ثلاث مرات ، واستغاث فلحقوه وعقروه .

وروى أنهم وجدوه على رابية من الأرض ، وقيل : صخرة فارتفعت الرابية أو الصخرة حتى حلقت به فى السماء ، فلم يقدروا عليه فرغا ثلاثا مستغيثا بالله ، وعن الحسن : أنطق الله الفصيل فنادى : أين أمى ؟ وروى أن المسافة التى أهلك الله أهلها بتلك الصحيفة ثمانية عشر ميلا ، وروى أنه خرج عنهم فالتفت فرأى الدخان ساطعا فبكى ، وهم ألف وخمسمائة ، وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم ، والله أعلم .

( ولُوطاً ) عطف على نوح وصالحا ، فكأنه قيل : وأرسلنا لوطا ( إذْ ) ظرف لأرسلنا ، ولوطا مفعول ، وإذ بدل اشتمال ، والرابط بالضمير فى المضاف إليه وهو جملة « قال لقومه » ويقوى الأول قوله : « وإلى مدين أخاهم شعيباً » ( قالَ لِقَوْمِهِ أتأتُون الفَاحِشَةَ ) هى فالزنى فى أدبار الذكور ، والفاحشة ما عظم قبحه ، والاستفهام توبيخ وتقريع وإنكار لجوازها .

( ما سَبَقَكم بِها مِنْ ) صلة مؤكدة للنفى ( أحدٍ مِنَ ) للتبعيض ( العَالمينَ ) المراد الثقلان لكن غير الثقلين من الدواب ، والدواب كذلك لم تسبقهم بها أيضا ، أو المراد الثقلان وغيرهم تغليبا ، قال عمرو بن دينار ما نزا ذكر على ذكر فى الدنيا حتى كان قوم لوط ، والجملة حال من الفاحشة زيادة فى تقبيح أمرها كما تقول : أتشتم المسلمين فى المسجد ما على استك ثوب ؟ أو مستأنفة من الزيادة التقبيح أيضا ، وذلك أن إتيان الأدبار أقبح ، وابتداعه أقبح ، وأسوأ منه ، وعامل اللواط يرجم أحصن أو لم يحصن ، وروى أن أبا بكر حرق رجلا يسمى الفجأة عمل عمل قوم لوط ، وكتب عبد الملك بن مروان إلى شعيب قاضى حمص : كم عقوبة اللواطى ؟ فقال : أن يرمى بالحجارة كما رمى قوم لوط ، فإن الله تعالى قال : « وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » وقال : « وأمطرنا عليهم حجارة » فقبل عبد الملك ذلك واستحسنه ، وقيل : يجلد إن لم يحصن ويرجم إن أحصن وهو أظهر ( إنَّكم ) بهمزة واحدة على الإخبار تفسيرا للفاحشة عند نافع والكسائى وحفص ، وعن عاصم ، وقرأ غيرهم بهمزتين على الاستفهام مثل المذكور ، لكن أول على مجمل ، والثانى مفسر بتسهيل الهمزة الثانية ، وقرىء بتحقيقها وبإدخال ألف بينهما مع تسهيل الثانية ، وبالإدخال مع تحقيقها وقرأ الكسائى بهمزة واحدة فى رواية عنه .

( لتأتُونَ الرِّجالَ ) أى تجيئونهم أو كناية عن الجماع ( شَهْوةً ) أى لاشتهاء أدبارهم ، فهو مفعول لأجله ، ويجوز كونه حالا مبالغة ، أو بتقدير مضاف ، أو بالتأويل مشتهين ، وكونه مفعول مطلقا تضمينا لتأتون معنى تشتهون ، ويقال : يشهيه يشهاه كرضى ، وفى ذلك تشبيه لهم بالبهيمة إذ لا حامل لهم ذلك إلا مجرد الشهوة ، والعاقل ينبغى أن يكون داعيه إلى الجماع طلب الولد ، فإن أصل الجماع إنما هو

للتناسل ، وعمارة الدنيا ليعمل فيها للآخرة ، وإنما يكون ذلك بجماع النساء فى القبل ، وهم يجامعون الرجال .

( مِنْ دُونِ النِّساءِ ) ذكره مع إغناء ما قبله عنه ، تلويحا بأن الحق أن تأتوهن لأنهن محل النسل ، أو تصريحا أو بأنهم مقتصرون على الرجال ، تاركين للنساء ( بَلْ أنتُم قَومٌ مُسرِفُون ) إضراب عما مر من التوبيخ والتقريع والإنكار ، إلى الإخبار عن حالهم الداعية لهم إلى تلك الفاحشة وغيرها ، وهى أن من عادتهم الإسراف فى كل شىء ، حتى الذى بهم فى باب قضاء الشهوة إلى غير المعتاد ، أو إضراب عما ذكر إلى ذمهم إلى مطلق الإسراف الشامل للفاحشة المذكورة وغيرها من المعايب ، أو ضرب عن محذوف ، أى لا أتوسط لكم فى ذلك ، أو لا عذر بل أنتم قوم معتادون الإسراف .

( وما كانَ جَوابَ ) خبر كان ( قَومِهِ إلا أنْ قالُوا ) المصدر اسم كان ، وقرأ الحسن برفع جواب فهو الاسم ، والمصدر الخبر ، ويأتى كلام فى غير هذه السورة إن شاء الله ، أى قال بعضهم لبعض : ( أخْرجُوهم ) أى أخرجوا لوطا وأهله ، وهم من آمن به من أقاربه أو غيرهم ، ولم يجر لهم ذكر ، ولكن المقام يقتضيهم ، وقد قيل : لم يكن معه إلا بنتاه ، وعليه فالضمير له ولهما .

( مِنْ قَرْيتكُم ) سدوم ( إنَّهم ) تعليل جملى ( أناسٌ يتَطهَّرونَ ) يتنزهون عما تفعل من إتيان أدبار الرجال وغيره ، أخبرنا الله أنهم لم يأتوا بجواب يقابل كلام لوط ، بل قابلوه بقهر كما هو دعاة المتجبر إذا فخم ، وذلك أنهم ضجروا بوعظهم ونصحهم ومخالفتهم فعلا وقولا وعقدا ، فأمروا بإخراجهم ليستريحوا منهم ، وتتم لهم لذاتهم ،

ويحتمل أن يكون قولهم : « إنهم أناس يتطهرون » استهزاء بهم وسخرية ، وافتخارا بما هم فيه من الفواحش ، كما إذا وعظت فاسقا فقال : أبعدوا عنا هذا الصالح أو هذا الزاهد ، يريد الاستهزاء باجتنابك الفسق الذى هو فيه ، ويحتمل أن يكون : « إنهم أناس يتطهرون » من كلام الله سبحانه ، كأنه قال : إنما أمروا بإخراجهم لأنهم متطهرون عن فواحشهم ومباينون لهم .

( فأنْجيناهُ وأهْله ) أى من آمن به قريبا له ، أو حبيبا أو لم يؤمن به إلا من هو قريب معدود من الأهل كما مر ( إلا امرأته ) زوجته وأهله ، وقيل : اسمها واغلة ، وقيل سلفع ، وكانت مشركة جهرا وقيل سرا ( كانَتْ مِنَ الغَابرينَ ) الباقين فى ديارهم فهلكوا ، أو الماضين فى أهل العذاب غير متخلفة عنهم ، يقال غبر بمعنى مضى ، وغفر بمعنى بقى وهو المشهور ، وقال أبو عبيدة معمر : أخبرنا الله بقوله : « إلا امرأته » أنها لم تنج ، وبقوله : « كانت من الغابرين » أنها ممن أسن وبقى من عصره إلى عصر غيره ، حتى أدركها الهلاك ، مع هؤلاء المهلكين ، وإنما قال : « من الغابرين » ولم يقل من الغابرات مع أنها منهن لا منهم ، لأن المراد من الناس الغابرين ، أو تغليبا للرجال .

( وأمْطَرنا عَليهم مَطراً ) نكر للتعظيم وهو حجارة معجونة بالكبريت والنار ، رجموا بها ، ووصلتهم بإذن الله بعد قلب الأرض بهم ، أو قلبت الأرض بهم ورجم بها من كان خارج القرية أو القرى من مسافر فى بر أو بحر ، وغير مسافر كطالب الحشيش أو الكلأ قال أبو عبيدة المذكور : يقال فى العذاب : أمطر ، وفى الرحمة مطر ، والصحيح أنهما فى الخير والشر جميعا ، ويقال أيضا : مطره بدون همزة بمعنى أصابه بمطر ، وأمطرته بالهمزة أرسلته كالمطر ، وأمطرت عليه أرسلت

عليه ، ومن أمطر فى الخبر « هذا عارض ممطرنا » لأنه ظنوه سحابة ماء يرحمون بها ، نعم الأكثر فى أمطر أن يكون فى الشر .

( فانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقبةُ المجْرِمينَ ) المشركين ، كانت تدميرا عليهم وتصبيرا إلى النار ، وجملة كان واسمها الذى هو عاقبة ، وخبرها الذى هو كيف مفعول لانظروا ، وإنما كان مفعوله جملة للاستفهام ، وذلك نوع من التعليق ، وجاز كان مع اسمه مؤنث لأنه ظاهر مجازى التأنيث .

قال فى عرائس القرآن : إن لوطا هو بن هارون بن تاريخ ، وهو ابن أخى إبراهيم ، فإبراهيم عمه ، وروى لوط بن هاران وليس هارون المذكور أخا موسى ، فإنه متأخر عن لوط ، وسمى لوطا لأن حُبَّه لاط بقلب إبراهيم أى التصق به وتعلق ، وكان إبراهيم يحبه حبا شديدا ، يقال : الولد البر ألوط بالقلب ، وهاجر لوط مع عمه إبراهيم عليهما السلام من بابل إلى الشام ومعهما سادة ، اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن خوخ بن عملاق بن لاود بن سام ابن نوح ، فخرجوا حتى وصلوا أرض الشام .

فنزل إبراهيم فلسطين ، ونزل لوط الأردن بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال وتشديد النون ، وهى بأعلى الشام ، فأرسله الله إلى سدوم وما يليها ، وكانوا أهل كفر وفواحش ، وكانوا يتناكحون فى مجالسهم وطرقهم ويتضارطون فيها ، ويرمون من مر بهم بالحصى ، ونهاهم عن ذلك وأمرهم بالإيمان والطاعة ، وأوعدهم على ما هم عليه إن لم يتوبوا فزادهم ذلك عتواً ، واستعجلوا العذاب تكذيبا ، فبعث الله جبريل وميكائيل وإسرافيل لإهلاكهم وتبشير إبراهيم بإسحاق ، وأخبروه

قوم لوط ، ووصلوا سدوم فلقوا لوطا فى أرض له يعمل فيهـا رواه قتـــادة .

وعن حذيفة : أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطا أربع شهادات ، فأتوه فقالوا : إنا مضيفوك الليلة ، فانطلق بهم ، فلما مشى ساعة التفت إليهم وقال : أو ما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا : وأما أمرهم ؟ قال : أشهد بالله إنها لشر قرية فى الأرض ، ولا أعلم على الأرض ناسا أخبث منهم ، قال ذلك أربع مرات ، ويأتى كلام فى « إنا مهلكوا أهل هذه القرية » .

وعن السدى : لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، بلغوها نصف النهار ، ولما بلغوا نهر سدوم ولقاوا ابنة لوط تسقى ، وكان له بنتان اسم الكبرى ربتا والأخرى عربتا ، فقالوا لها : يا جارية هل منزل ؟ قالت : نعم مكانكم لا تبرحوا حتى آتيكم ، خافت عليهم قومها ، فأتت أباها فقالت : يا أبتاه أدرك فتيانا على بـاب المدينة ، مـا رأيت قط وجوها أحسن من وجوههم لئلا يأخذهم قومك فيفضحوك ، وقد نهوه أن يضيف الرجال ، فجاء بهم إلى منزله ولـم يعلم بهم أحـد إلا أهل بيته ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها : إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثلهم .

قال أبو حمزة الثمالى : جعلت لقومها علامة لنزول الضيف أن تقول هبوا لنا ملحاً تدعوهم بذلك إلى الفاحشة ، وقيل : تجعل دخانا ، فقيل : مسخت ملحا وهو باطل ، لأن الله سبحانه أخبر أنها لم تنجُ وأنه يصيبها ما أصابهم ، فجاءوا فعالجوا الباب ليفتحوه فدافعهم لوط ، واشتد عليه الأمر كما قال الله سبحانه ، فقالت الملائكة له : دعنا وإياهم ،

فإنا رسل ربك ، فاستأذن جبريل الله سبحانه فى عقوبتهم ، فأذن له ، فنشر جناحيه وعليه وشاح من در منظوم ، وهو براق البنايا ، أجلى الجبين ، ورأسه حبك مثل المرجان ، وكأنه الثلج بياضا ، وقدماه إلى الخضرة ، فضرب وجوجهم بجناحيه فطمس عيونهم وأعماها ، فلا يعرفون الطريق ، وانصرفوا قائلين : النجاة النجاة ، فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض ، قد سحرونا ، وجعلوا يقولون : يا لوط كما أنت حتى تصبح وسترى ما يوعدونه ، وقال لهم لوط : أهلكوهم الساعة ، فقالوا : « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » .

فلما أصبحوا ، أدخل جبريل جناحه تحت أرضهم ، فاقتلع قرى أهل لوط الأربعة فى كل قرية مائة ألف ، ورفعهم على جناحه حتى سمع أهل السماء صياح ديوكهم ، ونباح كلابهم ، وبكاء صبيانهم ، ثم قلبها وأصابوا من لم يكن منهم فى تلك البقع المقلوبة بحجارة ، وكان الرجل يتحدث فى قرية فيأتيه الحجر فيقتله ، وسمعت امرأة لوط وقد خرجت معه الهدة ، فالتفتت فقالت : واقوماه ، فأدركها حجر فقتلها ، وكانت قراهم خمسا : سدور وغامور وداودما وصبايم وسدوم وهى العظمى ، وقيل : حملهن جبريل بريشة ، والخامسة زحزحت سميت بهذا لأن أهلها آمنوا وتابوا ، فمنعت من العذاب .

وقال صلى الله عليه وسلم لجبريل : « ان الله تعالى سماك ذا قوة مكينا ومطاعا وأمينا ، فسر لى ذلك » قال : أما قوتى فإنى رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناح حتى سمعت الملائكة فى السماء أصواتهم وأصوات الديوك وقلبتها ، واما كونى مطاعا فإنى متى أمرت مالكا خازن النار ، أو رضوان خازن الجنة بفتحهما فتحاها لى ، وأما أمانتى فإن الله تعالى أنزل من السماء مائة كتاب وأربعة كتب لم يأتمن عليها غيرى .

قال أبو بكر بن عياش : سألت أبا جعفر أعذب الله نساء قوم لوط بعمل رجالهم ؟ قال : الله تعالى أعدل من ذلك ، استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، وسأل مقاتل مجاهداً : هل بقى من قوم لوط أحد ؟ قال : لا إلا رجل قام بمكة أربعين يوما بعد مصابهم ، جاءه حجر ليصيبه فقام إليه ملائكة الحرم وقالوا له : ارجع من حيث جئت ، فإن الرجل فى حرم الله تعالى ، فرجع فوقف خارجا من الحرم أربعين يوما بين السماء والأرض فقضى الرجل تجارته فخرج فأصابه الحجر خارج الحرم ، وعن ابن عباس : ما عمل ذلك من قوم لوط إلا ثلاثون رجلا ونيف ، أهلكهم الله تعالى جميعا ، لأنهم لم يأمروا ولم ينهوا ، انتهى كلام عرائس القرآن •

وقيل : قلعت منهم خمس مدن ، وقيل : ست ، وقيل : أربع ، وقيل : أربع آلاف بين الشام والمدينة ، أمطر الله عليهم الكبريت والنار ، وقيل أمطر عليهم ثم خسف بهم ، وسبب فعلهم ذلك فيما قيل الشيخ ، وذلك أن بلادهم أخصب بلاد الله ، فقصدهم الناس فضيقوا عليهم ، فقال لهم إبليس فى صورة شيخ : إن نكحتموهم فى أدبارهم لم يأتوكم فأبوا ، فلما ألح الناس عليهم أصابوا غلمانا حسانا ففعلوا بهم ، واستحكم ذلك فيهم •

قال الحسن : كانوا لا ينكحون إلا الغرباء ، وقيل : فشى فيهم حتى نكح بعضهم بعضا ، وقيل : تمثل إبليس شابا أمرد ، ودعا إلى إلى نفسه فكان أول من نكح فى دبره ، قيل : قال الله سبحانه للملائكة : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، ولما انطلق بهم لوط ليضيفهم وقد حمل الحطب قال لهم كما مر : أو ما بلغكم أمر هذه القرية ؟ فقالوا : وما أمرها ؟ قال : أشهد أنها أخبث قرية ، ومر على جماعة فتغامزوا فقال :

إن هذه القرية أخبث قرية ، ومروا بأخرى فتغامزوا مثل ذلك ، ومروا بأخرى فمروا بالحصى ، فقال مثل ذلك ، فقال جبريل للملائكة : اشهدوا .

( وإلىَ مَدينَ ) اسم قبيلة سميت باسم أبيها ، ومنع الصرف للعلمية والتأنيث ، وفيه العجمة أيضا ، وكذلك على القول بأنه اسم مدينة على حذف مضاف ، أى أهل مدين ، ويجوز أن يراد به أبوهم على حذف مضاف ، أى إلى أولاد مدين فمانعه من الصرف العلمية والعجمة ، وهو مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقيل : مدين اسم لعين ماء كانوا عليها على حذف مضاف ، أى أهل مدين ، فالمنع للعملية والعجمة ، مع أن العين يؤنث .

( أخاهـُم ) فى نسب على حد ما مر فى أمثاله ( شُعيباً ) هو شعيب بن ميكيل بن يشخر بن مدين بن إبراهيم ، وأم ميكيل بن إسحاق ، فلوط جد شعيب لأمه ، وقال مكى : كان زوج بنت لوط ، وقيل : هو شعيب بن صفوان بن عنقاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم ، ونسب هذا لأهل الكتاب ، وقيل : هو شعيب بن ثوبة بن مدين بن إبراهيم ، وقيل : هو شعيب بن يترون بن ثويب بن مدين بن إبراهيم ، واسمه بالسريانية يقرون ، وكان أعمى حدث له العمى بعد تبليغ الرسالة والاجتهاد فيها ، ومضى مدة ، قال جار الله : يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال : « ذلك خطيب الأنبياء » لقوله لقومه : « ما أريدُ أن أخالفكم إلى ما أنْهاكم إنْ أريدُ إلا الإصْلاح ما استْطعتُ ومـا توفيقى إلا باللهِ علَيه توكلتُ وإليه أنيب » يريد لحسن مراجعته وجمال تلطيفه .

( قالَ يا قوم اعبْدُوا الله ما لَكُم مِنْ إلهٍ غَيرهُ قدْ جاءتكُم

بيِّنَةٌ مِنْ ربِّكُم ) تدل على صدقى فيما أقول من توحيد الله وعبادته ورسالتى ، وقرأ الحسن : قد جاءتكم آية من ربكم ، ولم يذكر الله سبحانه فى القرآن هذه الآية البينة التى هى معجزة لشعيب ، كما لمـا يذكر معجزات أكثر الرسل ، ولا معجزات أفضل الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا رسول إلا بمعجزة ، وقيل : أراد بالبينة مجىء شعيب بالرسالة إليهم ، كما قال بعض فى البينة فى قصة صالح ، وعليه فالمعنى : أنى جئتكم بما هو بين واضح لا ينكره العقل ، وإلا فالرسالة نفسها تحتاج إلى برهان معجز •

وقيل أراد بالبينة الموعظة كالأمر بالإيفاء ، والنهى عن الإفساد ، وعن المنع عن سبيل الله ، وكتذكيره إياهم النعم ، وتنظيرهم فى عاقبة المفسدين ، كما ذكر عقب ذلك ، وقيل : بينة محاربة عصى موسى التنين حين أعطاها إياه يرعى بها غنمه ، ويرتفق بها ، وولادة غنمه الأدرع وهو أسود رأسه وأبيض سائره حين وعده أن يكون له الدرع من أولادها ، ووقوع تلك العصى وهى عصى آدم فى يده سبع مرات من جملة العصى ، فتركه يأخذها وهو مرادى بإعطائه إياها ، وغير ذلك من آياتها الواقعة قبل استنباء موسى ، ورد بأن ذلك كله متأخر عن مقاولة شعيب لقومه ، وهو بعد كونه شيخا كبيراً ، فهو كرامة لموسى ، وتمهيد لرسالته ، وقد يجاب بأنه قال : « قد جاءتكم بينـــة من ربكم » بعـــد وقـــوع ذلك أو بعضه ، ولا تشترطوا المعجزة أول الدعوة ، وقد تكـــون أول وقـــد تتأخر •

( فأوْفُوا ) أتموا ( الكَيْل ) والميزان أى الوزن فهو مصدر لآلة كالمعياد والميلاد بمعنى الوعد والولادة ، أى كيلوا كيلا تاما ، وزنوا وزنا تاما ، أو الكيل أطلق على آلة الكيل كما يطلق العيش على ما به

الحياة ، أو يقدر مضاف أى آلة الكيل ، وعليهما يكون الميزان آلة ، وهما أنسب بظاهر قوله : « أوفوا المكيـال والميزان » ويجـوز أن يقـدر المضاف هكذا فأوفوا الكيل ووزن الميزان ، فالكيل مصدر ، والميزان آلة ، وكانوا أهل كفر بالله وتطفيف للمكيال والميزان ، وقد وسع الله لهم فى العيش والخصب استدراجا .

( ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشْياءهُم ) لا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل والوزن ، فهو تأكيد لما قبله ، أو لا تنقصوهم أموالهم بالمكس ، وكانوا مكاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوم جليلا أو حقيراً ، قليلا أو كثيرا فقوله : « أشياءهم » تعميم ، أو لا تنقصوهم أموالهم فى المبايعة ، أو المراد ذلك كله ، وقد قيل : إنه دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا هى زيوف فقطعوها قطعا ، وأخذوها بنقصان ظاهر ، وأعطوه بدلها زيفا .

( لا تُفْسِدوا فى الأرْض بَعْد إصْلاحِها ) لا تفسدوا فيهـا بالكفر والظلم والحيف وغير ذلك ، بعد إصلاحها بالإيمان والعدل والعبادة بواسطة الرسل وأتباعهم ، والإضافة بمعنى فى ، أى بعد الإصلاح فيها ، أو على تقدير مضاف ، أى بعد إصلاح أهلها ، أو الإصلاح مصدر مضاف لفاعله على الإسناد المجازى ، بأن جعل الأرض مصلحة ، كما جعل الليل والنهار ماكرين .

( ذلكُم ) أى ما ذكر من الإيفاء وعدم النحس والإفساد ( خَيْرٌ ) نفع أو أفضل مما أنتم فيه ( لكُم ) تنموا به أموالكم ، ويكثر عددكم ، وتكونون فى أمان وعافية ، وتنجون من عذاب الآخرة ، فإن من عرف منه الأمانة رغب الناس فى متاجرته ، ومن عرفت منه الخيانة أو الجور

تباعد الناس عنه ، وإن قلت : كيف جاز أن يكون خير اسم تفضيل ؟ قلت : من حيث إنهم يظهر لهم ربح فى التطفيف والبخس والإفساد فقيل لهم : إن ترك ذلك أربح وأولى .

( إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ) مصدقين لى ، وإلا فلا يكون عندكم خيراً ، بل تعتقدونه نقصانا لكم ، أو إن كنتم موحدين لله عاملين ، وإلا فلا ينفع عمل بلا قول ، كما لا ينفع قول بلا عمل ، وهذا على أن المراد بالإفساد غير الكفر ، وبالخير النفع الأخروى .

( ولا تقْعُدوا بكلٍّ ) فى كل أو على كل ( صِراطٍ ) طرق فى الأرض ( تُوعِدُونَ ) حال من واو تقعدوا ، وهو من أوعد المستعمل فى الشر ، كانوا يقعدون بمراصد يقولون لمن جاء لشعيب : إنه كاذب لا تؤمن به ، ويخوفونه بالقتل أو الضرب أو السلب أو بذلك كله على الإيمان ، قاله السدى فى رواية ، وابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد ، وقال السدى فى رواية أخرى ، وأبو روق : كانوا يقعدون فى الطرق معشرين ويخوفون صاحب المال بالقتل ، أو بأخذ ماله إن لم يذعن للعشر .

وقال أبو هريرة : كانوا يقعدون للسلب وقطع الطرق ، مخوفين من تعاصى ، وفى الحديث : « رأيت ليلة أسرى بى خشبة على الطريق لا يمر بها أحد إلا خدشته أوشقت ثوبه ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فينقطعون ثم تلا : ( ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ) » ويحتمل أن يريد بالصراط صراط الله ، وهو ولو كان واحدا لكنه منقسم إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة ، وكانوا إذا رأوا إنسانا شرع فى شىء منها أو قصده منعوه وأوعدوه عليه ، فلذلك قيل : « بكل صراط » والنهى هنا لعموم السلب لا لسلب

العموم ، ولو تأخر عنه كل فهو كالنفى فى قوله تعالى : « لا يحب كل مختال فخور » ونحوه •

( وتصدّون ) تمنعون ( عَن سَبيلِ اللهِ مَنْ آمن بهِ ) بالله أو بسبيل الله ، فإن أريد قبله ، والسلب أو قطع الطريق فلا تنازع ولا وضع ظاهر موضع المضمر ، وإن أريد المنع عن الإيمان فسبيل الله ظاهر وضع موضع الضمير ، أى لا تقعدوا بكل طريق من طرق الدين ، موعدين وصادين عنها مَنْ آمن به ، وفى مرجع الضمير ما مر ، يزيد هنا عوده لكل صراط ، والطريق والسبيل يذكران ويؤنثان ، ولا ضمير بتأنيث بعد تذكير ، ولا فى عكس ذلك ، وفائدة وضع الظاهر موضع المضمر هنا بيان المراد بكل صراط ، وزيادة فى تقبيح أمرهم ، ودلالة على عظم ما يصدون ، عنه ، وذلك لإضافة السبيل إلى الله ، ومن تنازع فيه توعدون وتصدون ، وأعمل الثانى فيقدر ضميره لتوعدون ، ولو أعمل توعدون لظهر الضمير فى تصدون عند الجمهور ، وأجاز السيرافى حذف الضمير من الثانى إذا أعمل الأول ، وكان الضمير فضله ، وعليه فيجوز أن تقول بإعمال توعدون •

( وتبغُونها ) أى السبيل ( عِوجاً ) جعلتم العوج عوضا عنها ، أو تطلبون لها عوجا بإلقاء الشبه فيها ، وبوصفها للناس بالعوج لئلا يدخلوها ( واذْكُروا إذْ كنتُم قَليلا ) فى ذل ( فَكَثَّركُم ) فى عز ، ويدل على هذا أن الكلام فى ذكر النعمة والتكثير فى ذل ليس بنعمة ، فإن الكثير فى ذل بمنزلة القليل ، ويجوز أن يكون المعنى واذكروا إذ كنتم ملقين أى فقراء ، فجعلكم مكثرين أى موسرين ، فالمراد قلة المال وكثرته ، قيل : تزوج مدين بن إبراهيم بنت لوط ، فرمى الله نسلها بالبركة والنماء ، ويجوز أن يراد القلة فى العدد والمال ، والكثرة فيهما مع العز •

( وانْظُرُوا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المفْسِدِين ) كقوم نوح ، وقوم وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لـوط ، وكانوا أقرب عهدا بقـوم لوط ، كانت عاقبة المفسدين التدمير والمصير إلى النار .

( وإن كان طائفة" ) جاز التذكير لأن المرفوع ظاهر مجازى التأنيث ، ولأنه بمعنى فريق أو قوم ( منْكُم آمنُوا ) فيه دليل على جواز خبر كان ماضويا مجردا من قد مثبتا ، ومن منع ذلك قدر هنا وهو خـلاف الأصل ( بالَّذى أرسلْتُ به وطائفة" ) معطوف على طائفة ( لَم يؤمنُوا ) معطوف على آمنوا ( فاصْبِرُوا ) تربصـوا يا أيهـا الكفرة وانتظروا ( حَتَّى يحكُمَ اللهُ ) يقضى ويفصل ( بينَنَا ) بين من آمن ومن كفر ، ينصر الله من آمن ويهلك من كفر ، ويميز المحق من المبطل ، فهذا وعيد عظيم للكفرة ، يتضمن وعدا للمؤمنين وتسلية لهم عما يصيبهم من الكفرة هذا هو الأظهر والأكثر ، وبه قال مقاتل بن سليمان ، ويجوز أن يكون الخطاب بالصبر للمؤمنين ، فيكون وعدا لهم ، وأى وعد وتسلية عمـا يصيبهم ، وحثا على الصبر يتضمن وعيدا عظيما للكفرة ، وبه قال ابن عباس ، وأن يكون الخطاب للمؤمنين بـأن يتحملوا الأذى ، وللكفرة بالتربص ، أو بتحمل ما يسوءكم من المؤمنين .

( وهُوَ خَيرُ الحَاكمِينَ ) لأنه لا يجوز ، ولا يحيف ، ولا راد لحكمه ، بخلاف سائر الحكَّام ، فقد يجورون ويحيفون ، وقد يعدلون ، وقد ترد أحكامهم .

( قالَ الملأ الَّذينَ استَكبرُوا مِنْ قَومِه ) عَن الإيمان واتباع شعيب ( لنُخرجنَّكَ يا شُعيبُ والَّذينَ ) معطوف على الكاف ( آمنوا مَعَكَ ) وقوله : ( مِنْ قَريتنَا ) متعلق بنخرج ، قيل : سميت القرية

قرية لأنها تجمعت أو جمعت إن شاء الله ( أو لتعوُدنّ ) ترجعن ( فى ملَّتنا ) كما كنتم فيها من قبل ، وهذا تغليب لمن آمن من قوم شعيب لكثرتهم وانفراده ، فإنهم الذين كانوا فى ملتهم ثم آمنوا .

وأما شعيب فلم يكن فيها قط ، لأن النبى لا يفعل صغيرة منفردة فضلا عن كبيرة ، فضلا عن شرك ، أو كانوا معتقدين أن شعيبا كان مشركا مثلهم ، ثم آمن بالله وادعى ما ادعى ، يتوهمون ذلك من سكونه قبل أن يبعث ، أو المراد بعودهم فى ملة الكفر رجوعهم إليها ، وبعوده فيها عوده فى أمر يليق بها عندهم وهو سكونه كما قيل البعثة ، أو شبهوا سكونه قبلها بالكون فيها ، لكن هذان الوجهان ضعيفان لاستعمال الكلمة فى معنيين مجازى وحقيقى ، وهذا كله إبقاء للعود على أصله ، وهو الرجوع فى الشىء بعد الانصراف عنه كقوله :

ألا ليت أيام الشباب جديد
وعصراً تولى يابثين يعود

ويجوز أن يكون العود بمعنى الصيرورة فلا إشكال كقوله :

تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

أى صارا وقوله :

فإن تكن الأيام أحسن مرة
إلىّ فقد عادت لهن ذنوب

أى صارت لمن أساءت لا رجعت كما كانت قبل الإحسان ، ومثل به الثعالبى لمعنى رجعت ، وهو محتمل ، قالوا : لكم أحد الأمرين : إما إخراجكم عن القرية ، وإما العود والتمكن فى ملتنا ، كما تدل فى على التمكن ، ويجوز كونها بمعنى إلى .

( قالَ أوَلَو كُنَّا كَارهينَ ) الهمزة داخلة على محذوف ، أى أنعود فيها ولو كنا كارهين ، والواو للحال أو للعطف على محذوف آخر ، أى أنعود فيها لو كنا غير كارهين ، ولو كنا كارهين ، والاستفهام تعجب أو إنكار أو تقرير ، والمراد التشنيع عليهم كيف تكرهوننا على أعظم المعاصى والإزراء بأحلامهم ، كيف ندين بشىء كرهناه بإكراههم ، فإن أمر الديانة يكون برضا من القلب لا بالإكراه ، وهب أنا اتبعناكم بألسنتنا ، فهل يكون فى قلوبكم تصديق لاتباعنا لكم ، فإن صدقت به فلا أقل عقلا منكم .

( قَدِ افْتريْنا عَلى اللهِ كَذباً ) أو وجدنا كذبا ، أو كذبنا كذبا ، والماضى للاستقبال ، لأنه دليل جواب الشرط بعده ، وقد للتحقيق أو الفعل على أصله من المضى مبالغة يجعل غير الواقع واقعا ، فقد لتقريب ما مضى من الحال ، أو لتقريب المستقبل من الحال ، كأنه قيل : افترينا الآن على الله كذبا .

( إنْ عُدنا فى مِلَّتكُم ) فى المستقبل ، كقولك فى المبالغة إنى ظالم من الآن إن كلمتك غدا ، والمراد افترينا على الله كذبا الآن إن هممنا بالعود فيها .

( بَعْدَ إذ نجَّانا اللهُ مِنها ) والمراد بالتنجية منها عدم الإيقاع

فيها مطلقا ، سواء من أول الأمر وهو حال شعيب ، أو بعد الوقوع وهو حال المؤمنين به ، تقول : نجاه الله من هوة ، أى لم يوقعه فيها ، أو أخرجه منها بعد الوقوع ، وتضمن ذلك تعجبا ، فإن الارتداد أقبح من الكفر لشموله إياه وزيادة ، دلالته على أن الحق قد تبين لصاحبه فى الكفر ، فكيف نرتد ، وعبر بعدنا مع أنه لم يكن فيها أصلا لتغليب من آمن به ، أو لجعله العود بمعنى الصيرورة ، أو تبعا لمعتقدهم أنه قد كان فيها ، أو لأن سكوته عنهم قبل البعثة مشابه لكونه فيها من حيث عدم النهى ، وأجاز بعضهم أن يكون ذلك جواب قسم مقدر ، أى والله لقد افترينا وهو ضعيف لعدم ما يدل عليه .

( وما يَكُون لَنا ) أى ما يصح لنا ( أنْ نعُودَ ) حجية ما مر ( فِيها إلا أنْ يشاءَ اللهُ ) عودنا فيها ، فإن الإيمان والكفر كليهما بمشيئة الله عند أهل الحق ، وبه قالت الشافعية ، فإن سبق فى علم الله خذلاننا وارتدادنا بالعود فيها وقع ذلك لا محالة ، ومشيئة الله الكفر بمعنى ترك التوفيق لا محبته حاشاه ، وذلك بالنظر إلى شعيب مثل قول إبراهيم : « رب اجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام » وقول نبينا صلى الله عليه وسلم : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » .

وقال : ( ربنا ) تلويحا بأنه المالك لنا ، المتصرف فينا بما يشاء من إيمان وكفر وغيرهما ، ويجوز أن يريد بقوله : « إلا أن يشاء الله ربنا » قطع طمعهم فى العود بأن علق العود بمشيئة الله للعود ، ومشيئته للعود غير واقعة ، وذلك يكون بإخبار الله له أن لا يرتد أحد ممن آمن به ، وأنه لم يسبق فى علمى أن يرتد أحد منهم ، أو أراد قطع طمعهم فى العود بتعليق العود على مشيئة الله له ، أى على حبه له ، وأمره به ، وهذا محال ، فالعود محال .

هذا ما ظهر لى وهو صحيح على مذهبنا ومذهب الشافعية وغيرهم ، وعن عياض : أن ذلك تأويل للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله ، وهب أنه تأويل لهم فما المانع من القول به مع ترك مذهبهم الذى ذكره ؟ قيل : ويحتمل أن يكون الاستثناء استثناء لما يمكن أن يتعبد الله به المؤمنين مما يفعل الكفار من القربات ، فلا يعارضهم ملحد به إن وقع ، وأن يكون تسننا وتادبا للخلق ، قيل : يضعف هذا أنه لم يقل إن شاء الله .

( وَسِعَ ربُّنا كلَّ ) مفعول به ( شَىْء عِلْماً ) تمييز عن الفاعل ، أى شمل علمه ما كان وما يكون من سعادة وشقاوة ، وكفر وإيمان ، وقسوة قلب ورقته ، ومرضه وصحته ، وثباته وتردده وارتداده ، وغير ذلك شمولا أزليا ( عَلَى اللهِ توكَّلْنا ) لا على غيره أى استندنا ف أمورنا من الثبوت على الإيمان والنجاة وغيرهما ، وليس التوكل منافيا للتسبب ، فإن محله القلب ، ومحل التسبب الجوارح كما توهم بعض أنه مناف له .

( ربَّنا افْتَح ) أى اقض أو احكم أو افصل ، وذلك لغة عمان ، وقيل : حمير ، وقيل : مراد ، قال ابن عباس : ما كنت أدرى ما معنى « ربنا افتح » ( بيْنَنا وبيْنَ قَومنا بالحقِّ وأنْتَ خيرُ الفاتحِينَ ) بين الناس بالحق ، حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك ، أى أحاكمك وأقاضيك ، قال الشاعر :

ألا بلغ بنى غضم رسولا
بأنى عن فاتحتكم غنى

أى عن حكومتكم ، وروى عن فتى حكم عنى ، أى الفتى الحكم ، أى الفتى الحاكم جدا ، ووجه ذلك أنه بحكم الحاكم ، أو قضاء القاضى ، أو فصلهما ينفتح الأمر أى ينكشف الحق والباطل ، ولذا قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ربنا أظهر أمرنا حتى يتميز ما بيننا وبين قومنا ، والمراد طلب نزول العذاب الدال على بطلانهم ، قال الحسن : كل نبى أراد الله إهلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ، وقيل : إذ أيس دعا ، وإنما قال : « بالحق » تأكيدا واشتياقا إليه ، وتلذذا به ، وإلا فالله لا يحكم إلا بالحق .

( وقالَ الملأ الَّذينَ كَفرُوا من قَوْمه ) لأتباعهم وسائر الناس ، مثبطين لهم عن الإيمان ( لئنِ اتَّبعتم شُعيبا إنكم إذاً لخاسِرُونَ ) باستبدال ضلالته بهداكم ، أو بترك فوائد البخس والتطفيف ، قولان ، وإن وما بعدها جواب قسم وجواب الشرط محذوف دل عليه ، وقيل : سد ذلك مسد الجوابين .

( فأخَذَتهُم الرَّجْفة ) الصيحة العظيمة عند قتادة ، وزلزلة الأرض عند الكلبى ، روى أن جبريل صاح بهم فهلكوا ، وفى الحجر : « فأخذتهم الصيحة » قيل : ولعلها كانت من مبادىء الزلزلة ، أو الزلزلة رجفة لأنها تقضى إلى الرجفة التى هى الصيحة ، وهم أهل مدين ، وأما أصحاب الأيكة فقد أرسل إليهم أيضا فكذبوه ، فأهلكتهم الظلة كما يأتى فى الشعراء إن شاء الله ، التهبت عليهم من فوقهم ، والأرض من تحتهم كالمقلاة ، فهم كالجراد المقلى ، وصاروا رملداً .

روى أن الله فتح عليهم بابا من أبواب جهنم ، وأقول : المراد بأهل مدين وأصحاب الأيكة وأحد أخذتهم الظلة من فوقهم ، وزلزلت الأرض

من تحتهم ، وزلزلتها هى الرجفة ، أو أخذتهم الظلة وفيها صيحة سماها رجفة ، وذكر الطبرى وابن إسحاق كما فى عرائس القرآن : أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن جلهاء ، لما رأى العذاب فى الظلة قال :

يا قوم إن شعيبا مرسل فذروا
عنكم سميراً وعمران بن شداد

إنى أرى غيمة يا قوم قد طلعت
تدعو بصوت على صمانة الوادى

وإنه لن تروا فيها ضحاه غد
إلا الرقيم يمشى بين أنجاد

وسمير وعمران كاهنان ، والرقيم كلب مصغر ، قال أبو عبد الله البجلى : أسماء ملوك مدين : أبجد ، وهوز ، وحطى ، وكلمن ، وصعفص ، وقرشت ، وروى سعفص ، واسم ملكهم وقت الظلة كلمن رثته أخته بقولها :

كلمن قد هدّ ركنى
هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه
الحتف نار وسط ظله

جعلت نار عليهم
دارهم كالمضمحلة

( فأصبحوا فى دارهم ) صاروا أو المراد الإصباح فى اليوم التالى لهلاكهم ( جاثمين * الذين ) مبتدأ ( كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ) خبره أى كأن لم يقيموا فيها فى رغد عيش ، والمعنى بغين معجمة المنزل المقترن بتنعم فيستغنى به عن غيره ، وقيل : المنزل مطلقا .

( الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ) الخسران العظيم دينا ودنيا ، إلا الذين صدقوا ، به فإنهم الرابحون دينا ودنيا ، وبلغ فى رد مقالة الملأ وتسفيه رأيهم واستهزائهم بتكرير الموصول والاستئناف بجملتين اسميتين ، وأنا ما جعل المسند إليه موصولا لبنيه بصلته على سبب خسرانهم ، أو على أن الخبر المبنى عليه مبنى عن الخيبة والخسران ، وتعظيم لشأن شعيب .

( فتولى عنهم ) بعد مجىء العذاب ، وليس حال نزوله فى وسطهم ، أى فى قريب منهم ، أو قبل مجيئه على ما مر من البحث ( وقال ) بعد العذاب أو قبله على ما مر ( يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ) وإذا كان حالى هذا ( فكيف آسى ) أحزن ، وقيل : الحزن الأسى الشديد ، ، أى فكيف يشتد حزنى ، وقرأ ابن وثاب وطلحة بالمصرف ، والأعمش إيسى بكسر الهمزة وقلب الألف ياء ، وذلك لغة من يكسر حرف المضارعة ولا كسر الياء إلا شذوذا ، فانظر شرحى على اللامية أو غيره ، ويحتمل أنه لو فتحت الهمزة تبعا لإمالة فتحة السين فتوهم الراءون أنهم كسروا وقلبوا ، وقد تسمى الإمالة كسراً ، وقد قال البيضاوى وقرىء آسِى بإمالتين .

( على قوم كافرين ) أى عليهم ، وإنما أحزن عليهم لو هلكوا ، وقد قصرت فى التبليغ والنصح ، وإذا اجتهدت فلا أحزن لاختيارهم

ما يوجب عذابهم ، واستحقاقهم إياه فلم يحزن عليهم أصلا ، ووضع الظاهر موضع المضمر تقبيحا وتشنيعا عليهم بالكفر ، وإيذانا ما لأنه الموجب لهلاكهم ، وقيل : إنه آسى عليهم أولا وترك الأسى بعد ذلك ، وآثار القسوة عليهم ، والتسلي عنهم بقوله : « فكيف آسى على قوم كافرين » •

( وما أرسَلْنا فى قَرْيةٍ مِنْ نَبىٍّ ) فكذبه أهلها ( إلا أخَذْنا أهلَها ) لتكذيبهم ( بالبأساءِ ) قال ابن مسعود : المصائب فى المال ، والهموم وعوارض الزمان ( والضَّرَّاء ) قال المصاب فى البدن كالأمراض ونحوها ، وكذا قال كثير من اللغويين ، وعن ابن مسعود : الباساء الفقر ، والضراء المرض ، وليس فى معنى قول الزجاج إن الباساء كل منالهم من الشدة فى أموالهم ، والضراء ما نالهم من الأمراض ، فإن الإنسان قد تناله الشدة فى ماله ولا يسمى فقيرا ، مثل أن تقل عروضه ، أو تذهب ، وله أصول ، وقيل : البأساء الشدة وضيق العيش ، والضراء الضر وسوء الحال ، يعنى ناله ضر البدن وهو قريب من قول ابن مسعود الأول ، وحكى السدى ما يقتضى ترادف البأساء والضراء ، ويقال : كل واحد من اللفظين على المعنيين •

( لعلَّهم يضَّرَّعونَ ) ينقادون للإيمان ويخضعوا ، ولعل الترجى بحسب اعتقاد البشر ، وللتعليل ، وأصل يضرعون يتضرعون ، أبدلت التاء ضادا وسكنت ، وأدغمت ، وفى ذلك وما بعده تخويف لكفرة قريش وغيرهم •

( ثمَّ بدَّلنا مكانَ السَّيئةِ ) ما يسوءهم من البأساء والضراء المذكورين ( الحسَنَةَ ) ما يستحسنه الطبع كالسعة والخصب ، والنبات

وصحة الأبدان ( حَتَّى عَفَوْا ) حتى للابتداء ، أى فهم قد عفوا بذلك ، ومعنى عفوا كثروا ، والمراد كثرة نفس ومال ، قال صلى الله عليه وسلم : « احفوا الشوارب واعفوا اللحى » أى لا تقلوا شعرهن بالنتف والحلق أو القص أو غير ذلك •

( وقالُوا قَدْ مَسَّ آباءنا الضَّراءُ والسَّراء ) ما يفرح كما مسنا ، وذلك عادة الدهر فلم يتركوا ما هم عليه ، فليس ما مسنا عقوبة على ما نحن عليه ، فلا نترك ، وذلك كفر نعمة ونسيان لذكر المنعم تعالى ( فأخذْناهم ) بالإهلاك ( بغْتةً ) فجأة حال أمر وذلك أعظم حسرة ( وهُم لا يشْعُرونَ ) الآخذ غير متحسسين له ، ولا مستدلين على شىء منه •

( ولَو أنَّ ) المصدر من خبرها فاعل لثبت محذوفا مقدرا بعد لو ، وفى مثله أوجه تأتى إن شاء الله ( أهْل القُرَى ) يعنى القرى المذكورة ، فإن قوله : « وما أرسلنا فى قرية » ذكر لهن لأن قرية نكرة فى سياق السلف ، فهى عامة ، وإن قلنا : العموم منصب على نبى فقط ، فالمقام وعموم النبى يدل على قرى فهى المراد بالقرى هنا ( آمنُوا واتَّقوْا ) حذروا معصيته ( لفَتَحْنا ) وقرأ ابن عامر ، وعيسى الثقفى ، وأبو عبد الرحمن بتشديد التاء للتكثير ( عَلَيْهم بَرَكاتٍ ) خيرات نامية والبركة فى الأصل النمو ، وقيل : ثبوت الخير الإلهى فى الشىء ، وقيل : المواظبة ، فمعنى بارك عليه تابع الخير عليه •

( مِنَ السَّماءِ والأرضِ ) أى غمرناهم بالخيرات النامية ، وغطيناهم بها من كل جهة كتوسيع الرزق ، والأمن والعافية ، وصحة البدن والسلامة من الآفات ، كما تقول : غيب الله فلاناً فى الثمر تريد أنه كثر له

الثمر ، ويحتمل أن يريد ببركة السماء المطر ، أو تبركة الأرض الخصب ( ولكنْ كذَّبُوا فأخذْناهُم ) بالإهلاك ( بما كانُوا يكْسِبُونَ ) من التكذيب والمعاصى ، ويجوز أن تكون أل فى القرى للجنس ، وقيل : المراد بالقرى مكة وما حولها ، وبأخذهم تضييق المعيشة عليهم لكفرهم ومعاصيهم .

( أفأمِنَ أهلُ القُرَى ) الهمزة للاستفهام الإنكارى ، والمراد إنكار استقامة الأمن ، أو للتوبيخ وهى مما بعد العاطف ، قدمت لتمام صدارتها ، والعطف على قوله : « أخذناهم بغتة » وهو عطف طلب ، والمعنى على أن القرى هذه غير المذكورة بالإهلاك بعد ذلك أمن أهل القرى ، وإن جعل الترتيب ذكريا ، أو الفاء بمعنى الواو صح المعنى مطلقا على إخبار أو الهمزة داخلة على معطوف عليه محذوف ، أى أغفل أهل القرى ، فأمن أهل القرى ، والمراد بالقرى الجنس ، وقيل : ما ذكر ، وقيل : مكة وما حولها ، وقيل : المراد بالقرى فى الموضعين قرى أقوام نوح وهود وصالح وشعيب .

( أنْ يأتيهُم ) المصدر مفعول أمن ( بأسُنا ) عذابنا ( بَيَاتاً ) ظرف ، أى وقت بيات وهو الليل ، أو حال من الهاء ، أى ذوى بيات ، أو يقدر ببائتين ، أو مفعول مطلق ، لحال محذوف ، أى بائتين بياتا ، أو ليأتى مضمنا معنى التبييت ، أى أن يبيتهم بأسنا بياتا أى تبييتا كالكلام بمعنى التكليم ، والسلام بمعنى التسليم ، فهو اسم مصدر أو حال من بأس ، أى بائتا بهم ، أو ذا بيات بهم ، أو هو فى نفسه بيات مبالغة ، ويجوز تأويله بمبيتا أو بمبيتين ( وهُم نائمونَ ) حال من الهاء ، أو بأس أو من ضمير بياتا المؤل بالوصف العائد لما عادت إليه الهاء أو لباس .

( أوَ أمِنَ أهْل القُرَى ) العطف على أمن أهل القرى ، أو على أخذناهم بغتة واو عاطفة ، وهى لأحد الشيئين ، لكن نقلت فتحة الهمزة بعدها إلى واوها على قراءة ورش عن نافع ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع فى غير طريق ورش بإسكان واوها تركا للنقل ، وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائى أو بهمزة الاستفهام ، والواو العاطفة بعدها ، وإثبات همزة أمن وفتحها ، ويجوز على قراءة أو بالنقل أو تركه أن تكون للاضطراب الانتقال خلافا لبعضهم .

( أنْ يأتيهُم بأسُا ضحىً ) صدر النهار بعد طلوع الشمس ، وأصل الضحى ضوء الشمس إذا ارتفعت ، وأعاد ذكر القرى والبأس بالظاهر تأكيداً ( وهُم يلْعبُون ) ويلهون من فرط غفلتهم ، أو يشتغلون بالكفر ونحوه مما هو كاللعب فى أنه لا يجدى شيئا ، والجملة حال من الهاء أو من البأس ، والأول أولى لحصول الربط عليه بالواو الحالية والضميرين ، بخلاف الثانى فالربط عليه بالواو الحالية ، وكذا يقال فيما مر .

( أفَأمنُوا مَكْر اللهِ ) أخذه العبد باستدراج وهو لا يشعر ، وسمى مكراً لنزوله فى غفلة ، وذلك استعارة تصريحية أصلية تحقيقية ، قيل : قرن بالفاء كأنه تقرير لقوله : « أفأمن أهل القرى » وسمى مكرا لوقوعه فى مقابلة ملهو كالمكر ، وهو كفرهم بعد الرسالة ، وظهور دعوة الله ، فيكون كقوله تعالى : « يخادعون الله وهو خادعهم » « ويمكرون ويمكر الله » « إنا كنا مستهزئين » « الله يستهزىء بهم » « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله سبحانه لا يمل حتى تملوا » وعلى العاقل أن يخاف مكر الله ويحاذره أكثر مما يخاف ويحاذر مكر عدو نخيف له ليغتال به وقت غفلة ، قالت

للربيع بن خيثم ابنته : مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ فقال : يا بنتاه إن اباك يخاف البيات ، قيل : أشار إلى قوله عز من قائل : « أن يأتيهم بأسنا بياتا » .

( فَلا يأمنُ مكْرَ الله إلا القَوْم الخَاسِرونَ ) دنياهم وآخرتهم بالكفر والمعصية المترتبين على ترك النظر والاعتبار ، والفاء فى جواب شرط محذوف ، أى إن أمنوا مكر الله فلا يأمن الخ ، وهو نائب عما هو جواب تحقيقا ، كأنه قيل : إن أمنوا مكر الله فهم خاسرون ، وباعتبار هذا تكون تعليلية ، ويجوز أن تكون تعليلا للخطأ المفهوم من « أفأمنوا مكر الله » .

وقوله سبحانه : « أفأمن أهل القرى » إلى « الخاسرون » لطرد الحيات والأفاعى والعقارب والهوام المؤذية من المنزل ، يكتب فى أول يوم من المحرم فى قرطاس ، ويغسل بالماء ويرش فى زوايا المنزل .

( أو لَمْ ) الهمزة للإنكار أو للتقرير والعطف على محذوف ، أى أعموا ولم ، أو أغفلوا ولم ، أو على الاستفهام ( يَهْد ) تبيين ( للَّذينَ يرثُون الأرْضَ ) يعمرونها ويستخلفون فيها ( مِنْ بَعْد أهْلها ) وهم الذين كانوا قبلهم وماتوا ، فكأنه قيل : من بعد هلاك أهلها .

( أنْ ) مخففة واسمها ضمير الشأن والمصدر مما بعدها فاعل يهدِ ، وإنما عدى باللام وكان قاصرا لأنه كما علمت بمعنى يتبين ، ويجوز أن يكون متعديا وفاعله ضمير الله ، فيكون الالتفات فيما بعد أن والمصدر مفعول ، أى أو لم يبين الله لهم أن الخ ، ويؤيده قراءة بعضهم : أو لم نهد بالنون ، وقيل : يهد أو نهد للذين الخ بمعنى يعلمهم أو نعلمهم ،

فيكون اللام صلة فى المفعول على هذا وهو ضعيف للمجىء باللام صلة ، مع أنه لم يلحق العامل ضعف ، ويجوز فيما يظهر أن يكون يهد بمعنى يحضر من حضر ، فالمصدر فاعل ، أو بمعنى يحضر من أحضر فالمصدر مفعول والفاعل ضمير الله ، ونهد بالنون بمعنى نحضر من أحضر كذلك ، وإن جعل يهد بمعنى ينته فاللام بمعنى إلى ، والمصدر فاعل ، وإن جعل نهد بالنون بمعنى ننه فاللام بمعنى إلى والمصدر مفعول •

( لَو نَشاءُ أصَبْناهم بذُنُوبهم ) خبر لأن المخففة ، والمراد لو نشاء أهلكناهم بسبب ذنوبهم ، أو منعنا عنهم سعة الرزق أبدا ( ونَطْبع ) نختم ( على قلُوبهم ) وهذا مستأنف أو معطوف على يرثون ، وعلى محذوف دل عليه أو لم يهد ، أى يعقلون عن الهداية ونطبع لا معطوف على أصبناهم لاقتضائه أنه لم يطبع من حيث أن لو امتناعية ، فجوابها ممتنع فكذا ما يعطف عليه مع أنه قد طبع وذلك فى الكفار ، وإن فرضناه فى المؤمنين جاز العطف ، والتزمنا انتقاء الطبع ، أى لو نشاء أصبناهم بذنوبهم وطبعنا على قلوبهم •

وذكر أبو حاتم أن أبا عمرو قرأ : ونطبع على بإسكان العين الأولى تخفيفا وإدغاما فى الثانية ، أو أسكن للجزم بلو حملا على أن الشرطية ، وتضمينا لمعناها ، وهذا إنما يتم بالعطف على أصبناهم كذا قيل ، ويرده رفع المضارع بعدها فكيف تجزم محل الماضى مع بعده حتى يعطف عليه بالجزم ( فَهُم لا يسْمعُون ) تذكير إسماع تفهم للطبع على قلوبهم ، وإن فرضنا الكلام فى المؤمنين فهو مستند على ممتنع ، فهو ممتنع فيثبت السمع •

( تِلكَ ) مبتدأ ( القرى ) خبر ، وإنما أفاد ذلك بواسطة الحال

وهى جملة قوله : ( نقصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنبائها ) أى نقص عليك بعضا من أخبارها وأخبار أهلها دون بعض ، فإن أنباءها عام للأخبار الواقعة بها ، والواقعة بأهلها ، والعامل فى الحال معنى الإشارة ، ويجوز أن يكون أل فى القرى للكمال والتعظيم ، فتفيد الجملة بنفسها كقولك : زيد الرجل ، والمراد هى قرى عظيمة أهلكناها ولم نبال لكفرهم ، أو جاء على طريق تحسر العرب فى كلامهم ، والجملة بعد ذلك حال أو خبر ثان ، ويجوز كون القرى نعتا أو بيانا أو بدلا ، والجملة بعده خبر .

( ولقد جَاءَتْهُمْ ) أى أهل تلك القرى ( رُسُلُهم بالبيِّنات ) الكاشفة عن صدقهم ( فَمَا كانُوا ليؤمنُوا ) هذه اللام مؤكدة للنفى قبلها ، أى ما صلحوا للإيمان أصلا لمنافاته حالهم من الطبع والتصميم على الكفر ، وهى الموسومة بلام الجحود ( بما كذَّبُوا ) أى بتكذيبهم ، فما مصدرية ، والجار متعلق بما النافية على جواز التعليق بحرف المعنى مطلقا ، وبما كذبوه ، فما اسم ، والجار متعلق بيؤمنوا ، من قبل متعلق بكذبوا ، والفاء للتعقيب وهو أبلغ فى الذم ، أى جاءتهم الرُّسل بالبينات ففاجئوهم بالتكذيب الكلى مقدرين الدوام عليه ، فكأنه قيل : لن يؤمنوا حتى يموتوا بما كذبوه من الآيات من قبل ذلك ، مع تتابع الآيات ، فالمراد بالقبلية حين تبليغ الرسالة ، أو المعنى لا يؤمنون عند مجىء الرسل بما كذبوا به من قبل مجيئهم ، وذلك أنهم سمعوا الرسالة الواقعة قبلهم ، فكذبوا بها ، أو كذبوا عند خروجهم كالذر من صلب آدم فى قلوبهم ولو آمنوا بألسنتهم كرها حينئذ ، فلن يعدوا ما سبق لهم ، وبه قال أبىّ واختاروه ، أو ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به قبل هلاكهم لو رددناهم إلى الدنيا ، وبه قال مجاهد ، وذكر النقاش وجها آخر ، وهو أنهم لا يؤمنون لتكذيب من قبلهم ، فهم يجرون على سنن واحد تقليدا ، فالواوان الأولان للآخرين والثالثة للقدماء .

( كذلكَ ) أى كالطبع المدلول عليه بنفى الإيمان ، أو كالطبع المذكور قبل ( يَطْبعُ اللهُ علَى قلُوب الكافِرينَ ) مطلقا فلا تلين خشونتهم ، وقيل : المراد بالكافرين كفار هذه الأمة .

( وما وَجدْنا لأكْثرِهم ) أى لأكثر الأمم المذكورين الماضين ، أو لأكثر الناس ، وعلى الأول يكون ذلك من تتمة الكلام السابق ، وعلى الثانى يكون معترضا ( مِنْ عَهدٍ ) أى من وفاء عهد ، أى من وفاء بما عهد الله إليهم أن يعملوه أو يعتقدوه من الفرائض على ألسنة الرسل وفى الكتب ، أو بما عهد الله فى حين المخافة أن يفعلوه إذا نجاهم لئن أنجيتنا لنؤمننّ ، ولئن أنجيتنا لنشركنّ ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ، أو بما عهدوا إليه يوم أخذ الميثاق وهو قول أبى بن كعب .

( وإنْ ) مخففة واسمها ضمير الشأن ( وَجَدْنا ) علمنا ( أكْثَرَهم لَفاسِقينَ ) اللام لام الفرق بين النفى والإثبات ، وهل هى لام الابتداء أو لام أخرى قولان ، وقال الفراء وغيره من الكوفيين : إن نافية واللام بمعنى إلا .

( ثمّ بعثْنا مِنْ بَعْدِهم ) أى من بعد الرسل أو الأمم ( مٰوسى بآياتِنَا ) معجزاتنا كاليد والعصى والعقل ، يجيز الرسالة بلا معجزة ، وكون الرسول ملكا ولم يكن ذلك ، وسمى البرهان آية لأنه علامة تدل على الله ، ومعجزة لأنه يعجز من ليس برسول أن يأتى به ، وتكون من نوع قدرة البشر ، ويعجزون عنها كتمنى الموت المذكور فى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » وخارجة عن قدرتهم كاليد والعصا وإحياء الموتى ، وكلام الشجر والجماد ، ونبع الماء من بين الأصابع ، والله قادر أن يخلق الإيمان فى قلوب عباده بلا واسطة ، ولكن أرسل

رسلا لئلا يكون بعدهم حجة لمن يدعيها ، والتحدى الدعاء إلى الدين ببرهان معجز ، فقد تحدى باليد ، وتحدى بالعصا ، وقيل : التحدى الدعاء إليه بعد العجز عن معارضة المعجزة ، فقد تحدى بالعصا ، وقيل : الدعاء إلى الإتيان بمثل المعجزة .

( إِلَى فِرْعَوْنَ ) نهته أمه عن القمار فقال لها : دعينى فإنى فرعون نفسى ، يعنى مهلكها ومتمرد عليها ، فسمى بذلك تلقيبا ، ويكنى أبا العباس ، واسمه الوليد بن مصعب بن الريان بن أراسة بن بروان ابن عمرو بن قارون بن عملاق بن لاود بن سام بن نوح ، وقيل قابوس ابن مصعب ، وكان ملك القبط ، وقيل : هو فرعون يوسف الصديق ، عمر نيفاً وأربعمائة سنة ، ومات حاجبه وهو العزيز قبل ذلك ، وقيل : فرعون يوسف غير يوسف المذكور على خلاف فى قول موسى : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات » كما يأتى إن شاء الله ، وأحب الأسماء إلى هذا الجبار لفظ فرعون ، وكان لقبا لكل من ملك مصر فى الكفر ، كنمرود فى يونان ، وقيصر فى الروم ، وكسرى فى فارس ، والنجاشى فى الحبشة ، ولزقين فى الأندلس ، والنعمان فى العرب ، وتبَّع فى اليمن ، وجالوت فى البربر ، وبلهوم فى الهند .

( وَمَلَئِهِ ) أشراف قومه ( فَظَلَمُوا بها ) أى ظلموا أنفسهم ، ومن أرسل إليهم بسببها أو كذبوا بها ، وكذبوا من أتى بها ، وأوعدوا من آمن بها ، وقيل : وضع ظلموا موضع جحدوا وكفروا ، فعدى بالباء ، وذلك أنهم كفروا بها مكان الإيمان الذى هو من حقها لوضوحها ، فقد نقصوا حقها فذلك ظلم لها تضعه الكفر بها ، كقوله : قد قتل الله زياداً أعنى حيث أنزل قتل منزلة صرف .

( فانْظُرْ ) يا محمد ( كيفَ كانَ عاقبةُ ) آخر أمر ( المفْسِدينَ ﴿
وقالَ مُوسَى يا فِرعَونِ إنِّى رسولٌ مِنْ ربِّ العَالمينَ ) إليك
إلى قومك ، وقيل : أرسل إليهم فى شأن بنى إسرائيل ليرسلهم ، وأنه
رسول إلى بنى إسرائيل فقط .

( حَقِيقٌ ) خبر ثان لأن ( عَلى ) متعلق بحقيق ( أنْ لا أقُولَ )
فى تأويل الفاعل لحقيق ، أو حقيق خبر مقدم ، وأن لا أقول فى تأويل
المبتدأ أو حقيق خبر ثان ، أو صفة لرسول ، وعلى خبر ، وأن لا أقول مبتدأ
قال ذلك وما بعده ترغيبا فى الإيمان ، أو قال له فرعون : إنك كاذب ، فأجابه
بذلك ، وما بعده ، ولم يذكر تكذيبه ، لأن قوله سبحانه : « فظلموا بها »
يدل عليه ، وقراءة غير نافع : على أن لا أقول بدون ياء المتكلم ، فيكون
حقيق خبرا ثانيا ، وعلى أن لا أقول متعلق به ، أى إنى واجب ولازم
على أن لا أقول على طريق القلب لا من اللبس ، وأصله قراءة نافع ،
أو على إنما لزمك فقد لزمته .

فالاقتصار على قول الحق لازم لموسى ، فموسى أيضا لازم له ،
أو على أن حقيق مضمن معنى حريص ، ونسبه الطبرى لقوم ، قيل :
وهو بعيد ، وقد يقال لا بعد فيه ، فإن وجوب الشىء عليك وكونك أجدر
به يستلزمان أن تحرص عليه ، أو على أن على بمعنى الباء ، وبه قال
أبو على الفارسى وابن هشام ، وعبر عنها بلفظ على للدلالة على التمكن ،
ويؤيده قراءة أبىّ والكسائى فى رواية عبد الله عنه : حقيق بأن لا أقول
أو على المبالغة جدا فى وصف نفسه بالصدق ، أى حق واجب على القول
الحق أن أكون أنا قائله ، لا يرضى إلا بمثلى ناطقا وهو داخل فى نكت

القرآن ، وقرأ الأعمش وأبو عمرو فى رواية عنه : حقيق أن لا أقول بإسقاط الجار على تقديره ، أو على أن لا أقول مبتدأ لحقيق أو فاعل له .

( عَلى الله إلا الحقَّ ) من تنزيهه عن شريك وغير ذلك مما يأمر به ( قَدْ جئتُكُم ببيِّنةٍ منْ ربِّكم ) خطاب لفرعون وذويه ، والبينة كاليد والعصا وغيرهما ، قيل : المراد جمع آيات والإفراد ، لأن مدلولها ومبينها بفتح الباء واحد وهو توحيد الله وتوابعه ( فأرْسِل مَعِيَ ) وفتح حفص الباء ( بَنِي إسْرائيلَ ) أطلقهم أمش بهم إلى أرضهم وأرض آبائهم ، وهى الأرض المقدسة ، وكان قد فرقهم فى الأعمال ، واستبعدهم أربعمائة سنة ، فمن حارث وضارب لبن وبان ، وناقل عذرة وغير ذلك ، ومن لم يتأهل للعمل أضرب عليه الجزية .

( قالَ إنْ كنتَ جئْتَ بآيةٍ فأتِ بهـا ) أحضرهـا عنـدى ( إنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقينَ ) فى الدعوى .

( فألْقى عَصاهُ ) يأتى كلام عليها فى غير هذه السورة إن شاء الله ( فإذا هيَ ثُعبانٌ ) حية عظيمة على صورة الثعبان ، وهو ذكر الحيات ، كما يأتى الجمع بين التعبير بالحية تارة ، وبالثعبان أخرى ، والتشبيه بالجان فى سورة طه إن شاء الله ( مُبينٌ ) لا شك فيه ، أو موضح لصدق موسى ، أو مميز السحر من الحق ، وكان بين لحييه ثمانون ذراعا فيما قيل عن ابن عباس والسدى ، وارتفعت من الأرض بقدر ميل ، وقامت على ذنبها غارزة له ، وارتفعت بصدرها ورأسها إلى فرعون .

وروى أنها وضعت لحيها الأسفل فى الأرض ، والأعلى على سور البلد ، وقيل : الأسفل على السور والآخر فى الهواء وهو أنسب ، وتوجهت

نحو فرعون لتأخذه ، فوثب عن سريره هاربا وأحدث ولم يكن — قيل — أحدث قبل ذلك ، والحق أنه كان يحدث لكن كل أربعين يوما مرة ، لأنه كان يأكل الموز ولا ثفل له ، وقيل : أحدث فى ذلك اليوم أربعين مرة ، وقيل : أربعمائة ، وبعد ذلك كل يوم أربعين مرة إلى أن غرق ومات .

وروى أنه دخل البيت وقال : يا موسى خذها فأنا أفعل ما أردت ، وقيل : أخذته بين أنيابها وحمات على الناس فانهزموا وصاحوا ، فمات فمات فى اليوم بالازدحام وهولها خمسة وعشرون ألفا ، وهذا على أن ذلك فى غير بيته ، وقيل : بيته فجعل يميل يمينا وشمالا ويقول : خذها وأحدث العدد المذكور ، وروى أنه دخل عليه وحاوره فأعجزه وقال لمن معه : خذوه فألقى عصاه فكانت ثعبانا فهمت به ، فهرب هو ومن معه واستغاث أن يردها فأخذها عصا .

( ونَزَعَ ) أخرج ( يَدَهُ ) وهى اليمنى من جيبه أو إبطه ( فإذا هِىَ بَيْضاءُ ) كالمصباح ، وقال مجاهد : كاللبن أو أشد ، وقيل : كالشمس ، وقيل أضوء منها شفافة تتألق ، وكان لونه أدمة شديدة ( للنَّاظِرينَ ) متعلق ببيضاء ، كأنه قيل : ابيضّت لمن ينظر إليها ويتعجب من بياضها الخارج عن العادة ، الداعى عليها للنظر ، ويحتمل أن يكون المعنى أنها بيضاء فى تلك الحال لمن ينظر إليها لا بالأصالة فإنها فى الأصل أدماء .

( قالَ الملأ مِنْ قَوم فِرعَونَ إنَّ هَذا لسَاحرٌ عليمٌ ) يخيل بسحره أن العصا حية ، وأن يده بيضاء ، وكان السحر فى ذلك الزمان شائعا فرموه به وهم كاذبون ، فإن عصاه إذا كانت ثعبانا فهى ثعبان حقيق ، وبياض يده حقيق فى ذلك الوقت ، والله قادر على قلب

حقائق الأشياء ، وإنما قالوا ذلك بعد ما قاله فرعون كما قال فى الشعراء : « قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم » أو قاله وبلغه الملأ لعامة ، أو قاله موسى وهم على سبيل التشاور محكى عنهم مرة ، وعنهم أخرى ، وعليم صفة مبالغة ، أى ماهر فى السحر .

( يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم بِسِحْرِهِ ) من أرضكم أيها القبط ، وهى أرض مصر قال فرعون : ( فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ) أى تأمروننى أن أفعله فى دفعه ، وقرأ نافع فى رواية كردم منا ، وفى الشعراء بكسر النون ، وماذا مبتدأ فخبر ، أو خبر فمبتدأ ، وتأمرون صلة ذا ، وذا واقعة على الأمر ، والرابط ضمير الأمر مفعول مطلق ، أى فما الأمر الذى تأمرونيه ، أو ماذا مفعول تأمرون ، أى أى أمر تأمروننى ، وذلك أولى من كون التقدير فماذا تأمروننى به ، وتم كلام الملأ فى قوله : « من أرضكم » .

واستدل بعضهم بالآية على أن لفظ الأمر يطلق ولو من الأدنى إلى الأعلى ، وقد يجاب بأن الأمر هنا بمعنى الإشارة من آمرته بالمد فأمرنى بالقصر ، أى شاورته فأشار علىّ ، كأنه قال : فماذا تشيرون علىّ أو بأن الأمر هنا بمعنى الشأن كأنه قال : فما الشأن الذى ندخل فيه أو نعمل به ، أو قال ذلك تواضعا لهم وتسفلا ، بأنه محتاج إلى رأيهم ، أو أراد ماذا تأمرون رعيتكم لو كنتم سلاطين ، ووقعت هذه الواقعة فيها ، وهذا لا يناسبه رواية كردم ، وقيل : الخطاب لفرعون ، وكان بلفظ الجميع تعظيما له ، ولأن الرعية تحت حكمه ، فكأنه هم والأول أوضح ويدل قوله :

( قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ ) أخر أمرهما لعل العجلة تكون عليك ، ولعلك إن قتلته قال الناس إنما قتله لعجزه عن محاروته وسحره ،

وقال قتادة : أرادوا بإرجائهما الحبس والسجن ، ورد بأنه ما كان ليقدر على حبسهما بعد ما رأى من أمر العصا ولا يشيرون إليه فى وقت الجد بما لا يمكن ، وهمزة « أرجه » مفتوحة وجيمه مكسور وهاءه مشبعة بياء ، ولا ياء ولا همزة بين الجيم والهاء ، هذه قراءة نافع رواها ورش وإسماعيل ، وهى من أرجأ بالألف بعد الجيم يرجيه بالياء بعده ، وكذلك قرأ الكسائى وقرأ نافع فى رواية قالون بلا ياء بعد الهاء اكتفاء بالكسر .

ونظرا للياء المحذوفة قبل الهاء قال المبرد : يجوز أن يكون المعنى أطمعه من الرجاء ، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب أرجئه من أرجأت بالهمزة ساكنة بعد الجيم وضم الهاء بدون واو بعدها ، والمعنى التأخير أيضا ، وقرأ ابن كثير أرجئه كذلك لكن بالواو بعد الهاء إشباعا نظرا لأصل الهاء مع إلغاء حكم الكسون قبلها ، وبهذا قرأ هشام كما قال الإمام أبو عمرو الدانى ، وقرأ عاصم وحمزة بسكون الهاء ولا ياء ولا همزة بينهما وبين الجيم ويكسران الجيم ، وقيل : ذلك على لغة الوقف على هاء الضمير فى الوصل إذا تحرك ما قبلها .

وقال القاضى : على تنزيل الجيم والهاء المكسورتين المختلستين ، ووو العطف المنفصل عنهما بكونه كلمة وبالخط منزلة كلمة ثلاثية مكسورة الوسط ، والأول مخفف بإسكان الوسط ، وهو هنا الهاء كما يقال فى إبل بكسر الهمزة والباء إبل بسكون الباء ، ونسب القاضى بهذه القراءة إلى حفص يعنى عن عاصم ، واعترضه شيخ الإسلام بأن الصواب تركه ، لأن عاصما قرأ بذلك من طريقه .

وأقول وجه كلام القاضى أن عاصما قرأ بذلك فى رواية عن حفص

عنه ، وروى عن حفص عنه أنه قرأ أرجه بكسر الجيم وضم الهاء مختلستين ، وهو رواية عن الكسائى ، وعن إبان عن عاصم القراءة التى قبل هذه القراءة المروية عن الكسائى ، وقرأ ابن عامر فى رواية ابن ذكوان : أرجئه بالهمزة وكسر الهاء ، قال الفارسى وهو غلط أى لأن الهاء لا تكسر إلا بعد كسرة أو ياء ساكنة ، وأجيب بأن الهمزة لما كانت تقلب ياء أجريت مجراها ، وإذا وقف على الهاء سكنت بلا خلاف إلا فى مذهب من ضمها بإشباع أو باختلاس ، فإن الروم والإشمام جائزان فيها .

( وأرْسِلْ فى المدائنِ ) أى إلى المدائن أو فى على أصلها ، كأنه قيل : مكن وأوغل فى المدائن ، وهو جمع مدينة بوزن فعيله ، من مدن بالمكان أقام به ، فلذلك يهمز ومن قال الميم زائد والوزن مفعلة ، ونقلت حركة العين للدال من دان يدين لم يهمزه ( حَاشِرِينَ ) جامعين يجمعون لكن من المدائن ما تريد وهو السحرة كما قال :

( يأتوكَ بكلِّ ساحرٍ عليمٍ ) وهؤلاء الحاشرون طائفة من أعوان ولاته ، ويقال لهم الشرط بضم ففتح ، لأن عليهم علامات ، والاه شرط العلامات ، ويطلق الشرط أيضا على أعوان الملك أيضا ، قال الحسن : قال له أصحابه : لا تقتله فإن سحْر سحرتك يغلب سحره ، وإن قتلته أدخلت الشبهة فى أمره ، قال النقاش : لم يكن يجالس فرعون ولد سوء ، وإنما كانوا أشرافا ولذا أشاروا بالإرجاء لا بالقتل ، وقالوا : إن قتلته أدخلت على الناس شبهة ، ولكن اغلبه بالحجة .

فأرسل إلى أقصى مدائن الصعيد وفيها رؤساء السحرة ، فإن غلبهم موسى صدقناه ، وإن غلبوه علمنا أنه ساحر ، فقال : نعم ، لا

بنعم ، وأنه يجوز الجمع بينهما لا على سبيل التأكيد ، والذى أقول به : إن المعطف على نعم ، لأنها فى معنى إن لكم لأجراً كما مر ، وليست الجملة مقدرة بعد حرف الجواب كما قالا ، وإذا جمع بين حرف الجواب فتأكيد .

( قالُوا يا مُوسَى إمَّا أنْ تُلْقىَ ) السحر أى توجده ، أو تلقى عصاك ، وذلك خبر لمحذوف ، أى الأمر إما أن تلقى ، أو مفعول لمحذوف أى إما أن تفعل الإلقاء ( إمَّا أنْ نكُونَ نحنُ المُلْقِينَ ) سحرنا ، الموجدين له ، أو الملقين عصيانا وحيالنا ، خيروا موسى تأدبا معه كما يفعل أهل الصناعة إذ التقوا ،وإظهار للجلادة كما يفعل الواثق بنفسه ، ولكن لهم رغبة فى الإلقاء أولا ، لوحوا إليها بذكر نحن ، وبتعريف الخبر ، وبتغيير النظم ، إذا لم يقولوا وإما أن نلقى ، فإن التقدم فى التخييلات والمخارق أنجح ، لأن بدايتها تمضى بالنفوس .

قيل : ولتأدبهم معه عوضوا الإيمان والهداية ، وإن قلت : من أين يعلم من مجرد هذه الأية أن هناك إلقاءين مقصودين يقع أحدهما أولا أو الآخر ثانيا ، مع أنهم عاندوا بها ما بين إلقائه هم ؟ قلت : إن المقام مقام مغالبة ، وإنما تتبين الغلبة بفعل هذا وبفعل هذا .

( قالَ ألقُوا ) قدمهم تهاونا بأمرهم ، وثقة بتأييد الله له تقدم أو تأخر ، وكرما وتسامحا كما تسامحوا بالتخيير ، وإنما أمرهم بالإلقاء مع أنه كفر لإباحة الله سبحانه له أن يأمرهم ليتبين عجزهم ، وليؤمنوا ، أو لأن الأصل ألقوا إن كنتم محقين لا لمجرد علمه بوقوع الإلقاء ، والتخيير فى التقدم والتأخر فقط ، لا كما قيل : لأنه لا يجوز

الأمر بالمعصية ، ولو علم أنها لا بد واقعة ، ويأتى كلام فى ذلك إن شاء الله تعالى ، وفى إلقائهم أولا فائدة ، لأنهم إذا أتو بجهدهم وأتى هو بما يفوقه ويبطله كان أظهر غلبة .

( قلمَّا أَلقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ) خيلوا لها الشىء على خلاف ما هو عليه ، وهو باق على حقيقته ، بخلاف أمر السماء الجارى على يد موسى أو غيره ، فإن الله سبحانه قادر على قلب الحقائق كرد العصا لحما ودما وعصبا ( واسْتَرْهَبُوهم ) استعملوا طاقتهم فى طلب ما يرهبهم ، أى يخوفهم من السحر ، فالسين للطلب والتأكيد معا ، ويجوز أن تكون تأكيدا ، أى أرهبوهم إرهابا شديدا .

( وجَاءُوا بسحْرٍ عَظيمٍ ) فى باب السحر ، جاءوا بحبال وخشب غلاظ طوال كثيرة ميلا فى ميل ، لونوها بألوان ، وجعلوا فيها ما يوهم الحركة ، روى أنهم طلوها بالزئبق ، وأدخلوه وسط كل خشبة وحبل ، فطلعت عليها الشمس فتحركت للزئبق ، أو تخيل بالشمس كأنها تتحرك ، وكانت كالحيات ركب بعض بعضا والتوت وملأت الوادى ، وروى أنها وقر ثلاثمائة وستين بعيرا حبالا وعصيا .

( وأَوْحَينا إلى مُوسَى أنْ أَلْق عَصَاكَ ) خاف فذهل عن إلقائها ، فأوحى إليها أن ألقها فألقاها ، فصارت ثعبانا ( فإذا هِىَ تَلْقَفُ ) تبتلع ، والأصل تتلقف ، حذفت إحدى التاءين ، وقرأ حفص عن عاصم تلقف بإسكان اللام ، وكذا فى طه والشعراء ، وفى رواية عن ابن كثير تشديد التاء على ثبات التاءين ، وإدغام الأولى فى الثانية ، وإنما يصح هذا فى الوصل ، وأما فى الابتداء فلا لاحتياجه إلى همزة وصل ، ولم يخلق الله همزة وصل فى أول المضارع ، وقرأ سعيد بن جبير تلقم تبلع كاللقمة .

( مَا يأفِكُونَ ) يكذبون ، سمى الكذب إفكاً لأنه قلب كلام عن الوجه الصحيح ، والإفك القلب ، وما اسم تلقف ، ما يقلبونه ويصرفونه عن حاله وهو العِصىّ والحبال إذا غيروها بالزئبق وصارت بهيئة الحيات ، وجعلها مصدرية ، والمصدر بمعنى المفعول ضعيف لتعدد التأويل فيه مع الغنى عنه ، ولما بلعت حبالهم وعصيهم حبلا حبلا ، وعصا عصا ، حتى لم يبق منها شيء ، أخذها موسى عليه السلام فكانت عصا صغيرة كما كانت أولا ، قالت السحرة : لو كان هذا سحر لبقيت حبالنا وعصينا ، فآمنوا بالله الذى أعدمها فى عصى موسى أو فرقها أجزاء لطيفة كالهباء .

( فَوقَعَ ) ثبت وظهر ، أو وقع فى قلوبهم ، أى أثر فيها ، كقولك : عباس وقيع ، وهذا بديع ( الحقُّ ) الذى جاء به موسى عليه السلام ( وبَطَلَ ما كانُوا يعْملونَ ) من السحر والسعى فى المعارضة .

وروى أنه لما رأى الوادى مملوءًا حيات قال فى نفسه : ما تعمل عصا واحدة فى يدى وخاف ، وأوحى إليه أن ألقها فألقاها ، فكانت كما مر من العظم ، وقيل : كانت تشرف فوق حيطان المدينة ، وتكسر بقوائمها الصخور الصم الكبار ، ولها أربع قوائم ، كقوائم الجمل غلاظ ، وتضرم البيوت والحيطان نارا تلتهب من عينيها ، ولها منخران ينتفخان سموما ، وعلى عرفها شعر كالرماح ، وصارت الشعبتان فما سعته اثنى عشر ذراعا بأنياب وضروس وفحيح وكشير وصرير .

وروى أنها لما بلغت ذلك تبعت موسى تبصبص حوله وتلوذ به كالكلب الألوف ، والناس ينفرون ويتعجبون ، حتى دخل عسكر بنى إسرائيل فأخذها ، فكانت عصا وهم ينظرون .

( فغُلبُوا هُنالكَ ) فى ذلك المقام ( وانقلبُوا ) صاروا أو رجعوا إلى المدينة ( صَاغِرِينَ ) أذلاءَ .

( وألْقِيَ السَّحرةُ ساجِدِينَ ) أسرعوا إلى السجود ، كأن ملقيا ألقاهم على وجوههم ، وذلك مبالغة فى إسراعهم إلى السجود ، أو ألقاهم الحق واضطرهم إلى السجود ، لما رأوا غلبته حتى كأن أبدانهم ليست فى اختيارهم فيمكسوها عن الوقوع للأرض ، أو ألقاهم الله للسجود ، كسرا لفرعون بجنده الذين أراد بهم كسر موسى ، فانقلب عليه الأمر ، فصار من هو من أعوانه عليه لا له ، ويأتى كلام فى ذلك فى غير هذه السورة .

( قالُوا آمنَّا بربِّ العَالمينَ ) فخافوا أن يتوهم فرعون ، أو من حضر أنه أراد برب العالمين فرعون ، وقد قيل لهم : قال فرعون : إياى تعنون فقالُوا :

( رَبِّ مُوسَى وهَارُونَ ) يحتمل أنهم قالُوا ذلك قبل السجود ، فالجملة مستأنفة تأخرت فى الحكاية ، ولو تقدمت فى الوجود ، أو حال ماضية أى ألقوا ساجدين ، وقد اتصفوا بهذا القول كقولك : جاء زيد وقد أكل ، تريد أنه جاء بعد الأكل ، ويحتمل أنهم قالوه بعد السجود ، فالجملة مستأنفة أو حال مقدرة ، لما ظهر لهم ما ظهر بادروا بالسجود شكرا للهداية ، وتعظيما لله سبحانه ، والفعل أدل على الرسوخ من القول ، وما قال لهم فرعون : إياى تعنون إلا مكابرة ، قال مقاتل : قال موسى لكبير السحرة : أتؤمن بى إن غلبتك ؟ قال : لآتينَّ بسحر لا يغلبه سحر ، وإن غلبتنى لأومنن بك .

( قالَ فِرعَون آمنتُم ) الاستفهام توبيخ وتهديد أو إنكار أن يكون إيمانهم جائزا مسرعا ، قال الإمام أبو عمرو الدانى : قرأ قنبل : وآمنتم يبدل فى حال الوصل من همزة الاستفهام واواً مفتوحة ويمد بعدها مدة فى تقدير ألفين ، وقرىء فى طه : آمنتم على الخبر بهمزة وألف ، وفى الشعراء على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة بعدها فى بتقدير ألفين ، وحفص فى الثلاثة بهمزة وألف على الخبر ، أى توبيخا ، فإن الجملة تفيد ما يناسب المقام بالقرائن إذا ألقيت لعالم بهـا ، أو عـلى تقدير همزة الاستفهام ، وعلى أنها للاستفهام ، وحذف همزة افعل ، وأبو بكرة وحمزة والكسائى فيهن على الاستفهام بهمزتين محققتين بعدهما ألف ، والباقون على الاستفهام وبهمزة ومدة مطولة بعدها فى تقدير ألفين ، ولم يدخل منهم أحد ألفا بين الهمزة المخففة والملينة فى هذه المواضع ، كما أدخلها بعضهم فى أنذرتهم وبابه لكراهية اجتماع ثلاث ألفات بعد الهمزة .

وذكر القاضى أن روحا قرأ يعقوب كقراءة حمزة والكسائى ، وأن من عدا حمزة والكسائى وأبا بكر وروحا وقنبلا يحقق الهمزة الأولى ، ويلين الثانية ، وذكر بعض أنه قرأ عاصم فى رواية حفص عنه فى كل القرآن آمنتم على الخبر ، وأن نافعا وأبا عمرو وابن عامر قرءوا آمنتم ومدة على الاستفهام ، وأن حمزة والكسائى قرآ جميعا آمنتم بهمزتين الثانية ممدودة ، وروى هذا عن أبى بكر عن عاصم ، وأن قنبلا قرأ عن القواس آمنتم بإبدال همزة الاستفهام واوا وترك همزة أفعلتم ، وأن أبا بكر قرأ فى رواية أبى الإخريط عنه ، وآمنتم بواو بـدل مـن همزة الاستفهام إجراء للمنفصل مجرى المتصـل فى قولهم توده بالواو فى تؤد بالهمزة ، وبعد الواو ألف فقط .

( بِهِ ) أى برب العالمين الذى يزعمون قال بعضهم أو بموسى

( قَبْلَ أنْ آذنَ لكُم ) فى الإيمان به ، هذه مكابرة أيضا ، فإن الحق إذا اتضح لا يحتاج إلى الإذن فى اعتقاده وتصويبه ، ولا سيما فى مقام أعد لقطع الحجج ( إنَّ هَذا لمكْرٌ ) احتيال ( مَكرتُموه ) احتلتموه أو صنعتموه ( فى المدِينَةِ ) قيل : الخروج إلى هذه الصحراء هى مصر أنتم وموسى ٠

( لتخْرِجُوا مِنْها أهْلهَا ) القبط وتستولوا عليها أنتم وبنو إسرائيل وموسى ، وظن أنهم اتفقوا مع موسى أن يصنع فيصدقوه ، أو قال ذلك تمويها على الناس وإثارة للغضب منهم ، فلا يتابعوا موسى إذ كان مراده إخراجهم ، وقال ابن عباس ، وابن مسعود رضى الله عنهم : إن موسى اجتمع مع رئيس السحرة واسمه شمعون فقال : أرأيت إن غلبتك أتؤمن بى ؟ قال : نعم ، وقد مرت رواية مقاتل ، فعلم بذلك فرعون ، فلذلك قال : إن هذا لمكر الخ ، وقيل رآه يحدثه بذلك فظن أنه مكر ( فَسَوف تعْلمُون ) وعيد مجمل على ما فعلوا من الإيمان فصله بقوله :

( لأقَطّعنَّ ) بالتشديد للمبالغة ، وقرأ حميد المكى وابن محيصن ومجاهد بفتح الهمزة والطاء وإسكان القاف بينهما ( أيْدِيكم وأرْجُلكم مِن خِلافٍ ) اليد اليمنى والرجل اليسرى ، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى ( ثم لأصَلّبنّكم ) أى أربطكم على الخشب على شاطىء نيل مصر ، والتشديد للمبالغة ، وقرأ الثلاثة بفتح الهمزة وإسكان الصاد وضم اللام ، وروى بكسرها ( أجْمعِينَ ) توعد لجميعهم ، ولم يكن فى القرآن نص على إنفاذ هذا الوعيد فقيل : قطع وصلب الجميع وهو المشهور ، وقيل : فعل ذلك ببعض دون بعض ، ولعله بعظمائهم أو بمن ابتدأ الإسلام واتبعوه ٠

قال ابن عباس : أول من قَطَع من خلاف وصلب فرعون ، وعنه أول من صلب وقطع الأيدى فرعون ، وشرع الله قطع الأيدى للقطّاع تعظيما لجرمهم ، لكن على التعاقب لفرط رحمته ، وسمى فعلهم محاربة لله ورسوله ، وذكر فى كتاب عرائس القرآن أنهم كانوا أول النهار كفارا سحرة ، وفى آخره شهداء بررة ، ومثله عن ابن عباس وقتادة ، قال الحسن : تراه أى الإنسان ولد فى الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا ، وهؤلاء كفار نشئوا فى الكفر ، بذلوا أنفسهم لله تعالى ، وقيل : لم ينفذ ذلك الوعيد ولم يقدر عليهم ، لقوله تعالى : « أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .

( قالـوا ) مجيبين لفرعون ( إنـَّا إلى ربـِّنا ) قدموه حصرا وتلذذا وسجعا ( مُنقلبُونَ ) بموتنا بقطعك وصلبك لنا ، فنعم القطع والصلب إذا كانا يوصلان إلى المحبوب ، أو إنا ميتون ولا بد ، فلا نبالى أمتنا بقطعك وصلبك أو بغيرهما أو لم نبال بالموت لانقلابنا إلى ربنا ورحمته ، والتخلص ، منك ، أو ننقلب بعد الموت إلى الله يوم الجزاء فيحكم بيننا ، أو ذلك مجرد اتكال على الله .

( وما تنقـِمُ مـِنـَّا ) مستأنف فى كلامهم أو حال ، وقرأ أبو حيوة ، وأبو البرهسن ، وابن أبى عبلة ، والحسن ، بفتح القاف ، ولغة الكسر أفصح ، أى ما تكره منا وتعيب وتنكر ( إلا أنْ آمنـَّا بآيات ِ ربـِّنا لمـَّا جاءتْنا ) أى إلا الإيمان الذى هو أصل المفاخر وخير الأعمال بحيث لا يمكن تركه إلى ما تريد ، وذلك من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، كقوله :

ولا عيب فيهم غـير أن سيوفهم
بهن فلول مـن قراع الكتـائب

فتضمن ذلك أن مؤاخذتك لنا بالإيمان فى غاية القبح وسوء الرأى ، واستأنفوا فزعا إلى الله تعالى بقولهم :

( ربَّنا أَفْرِغ علينا صَبْراً ) على وعيد فرعون ، فلا نفتتن به عن الإيمان الذى يظهر لى أن هذا مجاز مركب ، وهو استعارة تمثيلية ، أى افعل بنا من توسيع الصبر علينا ، وتغميدنا به ، ومحو الذنوب به ما يكون شبيها بإكثار الماء وإفراغه على الشىء المتوسخ لإزالة وسخه ، ويجوز أن يكون توسيع الصبر مشبها بإفراغ الماء مستعارا له لفظ الإفراغ استعارة أصلية واشتقا من هذا اللفظ بمعنى التوسيع ، أفرغ بمعنى وسع ، فأرغ استعارة تصريحية تبعية ، وصبرا قرينته ، ويجوز أن يكون فى « صبراً » استعارة مكنية شبه بالماء فى إزالة المكروه ، وأفرغ رمز إلى هذا التشبيه ، فإن الإفراغ من لوازم الماء .

( وتَوفَّنا ) أمتنا ( مُسْلمِينَ ) ثابتين على الإسلام دين موسى وهو دين إبراهيم عليهما السلام .

( قالَ الملأُ مِنْ قَوم فِرعَونَ ) لفرعون ( أتذَرُ مُوسَى وقَومَه ) بنى إسرائيل ( ليفْسِدُوا فى الأرْض ) اللام للصيرورة ، أى أتذرهم فيصير أمرهم إلى الإفساد فيها ، أو للتعليل إعظاماً لتركه وترك قومه ، كأنه قيل : ليس فيهم إلا الإفساد ، فإذا تركتهم فكأنك ما تركتهم إلا للإفساد ، أو اللام زائدة ، ومصدر الفعل بعدها بدل اشتمال ، أو مفعول لحال محذوف أى مريدا إفسادهم ، وهذا مرادف للتعليل ، ويضعف جعل اللام بمعنى على أو إلى أو مع ، لأن أن لا تضمر مع هذه الحروف ، فكذا ما ناب عنها .

( ويذَرَكَ ) عطف على يفسد بأحد هذه المعانى ، أو نصب على معنى مع كقوله :

ألـم أك جـاركم ويكـون بينى
وبينكم المـــودة والإخـــاء

فانتصابه بأن مضمرة له على حدة ، فهذه هى الواو التى يقال لها واو المعية التى مع الفعل وواو الجمع الحرفية ، وواو الصرف ، وقرأ ابن عامر ، ونعيم بن ميسرة ، والحسن فى رواية عنه بالرفع عطفا على تذر ، أو للاستئناف أو للحالية بلا تقدير شىء على القول بجواز قرن الجملة الحالية المضارعية المثبتة بواو الحال ، ومن لم يجز ذلك قدر مبتدأ أو قدر على الحالية ، أى وهو يذرك ، وقرأ الأشهب العقيلى بإسكان الراء تخفيفا من ضمها أو من فتحها ، ولو كان الفتح خفيفا لكثرة توالى الحركات لا جزما بالعطف على المعنى المسمى فى غير القرآن عطف التوهم كما قيل ، لأن ذلك إنما يصح هنا لو كان يفسدوا مقرونا بالفاء ، فيكون منصوبا بعد فاء السببية فى جواب الاستفهام ، فيقدر إسقاطها ، فيكون الفعل مجزوما فى جواب الاستفهام ، فيعطف عليه بالجزم ، وقرأ أنس ابن مالك : ونذرك بالنون ورفع الفعل أو نصبه روايتان عنه ، توعدا منهم أو إخبارا بأن الأمر يئول إلى هذا ، بأن يصرفنا عنك فنذرك ، وقرأ أبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود : وقد تركوك أن يعبدوك ، وقرأ الأعمش وقد تركك .

( وآلهتَكَ ) جمع إله وهى كواكب كان يعبدها ، وعن بعضهم أنه منكر لوجود الصانع ، وقائل : إن مدبر العالم السفلى هو الكواكب فاتخذ أصناما على صور الكواكب يعبدها ويأمر بعبادتها تقربا إليه ،

وقائل فى نفسه : إنه المطاع المخدوم فى الأرض ، ولذا قال : أنا ربكم الأعلى ، ويقول : أنا ربكم ورب هذه الأصنام ، وقيل آلهته البقر ، وكان يعبد بقرة له ، ويأمرهم بعبادة كل بقرة حسنة ، ولذلك جعل السامرى ربه عجلا ، وتنسب كل بقرة عبدت بأنها آلهة من حيث إنها كانت إلها بأمره .

وعن الحسن وغيره : شرع لهم عبادة الأوثان من بقر وأحجار وغيرها ، وقيل : كان يعبد حجرا يعلقه فى صدره كياقوتة ، وعن الحسن : كان لفرعون حنانة معلقة فى نحره يعبدها ويسجد لها ، وقيل : كان يعبد الشمس ولهم آلهة كالكواكب أو البقر وغيرها ، فصح الجمع ، وقد قرأ ابن عباس ، وعلى ، وابن مسعود ، وأنس ، والشعبى ، والضحاك ، وإلاهتك بكسر الهمزة وهى الشمس أو العبادة ، أى يترك عبادتك ويعبد سواك ، وهو المروى عن هذه الجماعة .

قال ابن عباس : كان يُعْبد ولا يَعْبد ، قال سعيد بن جبير ، ومحمد بن المكندر : عاش ستمائة سنة وعشرين ، لم ير مكروها قط ، ولو حصل له جوع يوم أو حمى ليلة أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية ، وملك من ذلك أربعمائة سنة ، وروى أنهم قالوا ذلك لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف إنسان ، وأن هذه الموافقة على الإيمان هى الإفساد ، وخافوا أن يغلبوا على الملك .

( قالَ ) فرعون ( سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ ) لئلا يتقوى بهم موسى ومن معه ، ولئلا يتوهم الناس أن موسى هو الذى أخبر المنجمون أنه يخرب ملكنا فيتبعوه ، وأما القتل الذى قبل ولادة موسى فليوافق من يخرب ملكه وتركه بعد ولادته ، وقرأ غير نافع وابن كثير : سنقتل بالتشديد للمبالغة ( وَنَسْتَحِي نِساءهُمْ ) للخدمة ولما نريد ، أى يبقيهن أحياء ،

ولم يقدر أن يصل موسى بشىء لقوته بالمعجزة ( وإنَّا فوقَهُم قَاهِرونَ ) كما كنا قبل ، فأبشروا بدوام دينكم ، وبقاء ملككم ، وشرع فى استعمال بنى إسرائيل بما لا طاقة لهم به مع وعده بقتل أبنائهم ، وجزعوا وضجروا وشكوا إلى موسى •

( قالَ مُوسَى لِقومهِ ) يسليهم ويعدهم النصر ( استْعينُوا باللهِ ) على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء ( واصبْرِوا إنَّ الأرْض ) أرض مصر ، فأل للعهد الحضورى ، أو الأرض مطلقا ، فأل للجنس ، وعلى كل حال فهى أرض الدنيا ، وهو الأظهر ، وقيل : أرض الجنة ( للهِ يُورِثُها ) من أورث ، أى بالهمزة لاثنين ، الأول من والثانى ها ، وفى رواية عن حفص ، عن عاصم : يورث بالتشديد للتعدية لا للمبالغة كما قيل ، إلا إن قيل : إن فيه تلويحا إليها من حيث إنه يجىء فى الجملة لهـا وهو قراءة الحسن ، وفى يورث على القراءتين ضمير الله سبحانة ، وقراءة فرقة ورثها بفتح الراء والتخفيف ، فمن نائب الفاعل وهاء مفعول به •

( مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ) إسرائيليا أو قبطيا ، وجملة يورث مستأنفة أو خبر ثان ( والعاقِبةُ ) الظفر والنصر ، وقرأ ابن مسعود بالنصب عطفا على اسم إن ، وعليه فقوله : ( للمتَّقينَ ) معطوف على معمولى عامل ، كأنه قيل : وإن العاقبة للمتقين ، وقيل : العاقبة الجنة ، وذلك كله وعد من موسى جاءه من الله أنه سيملك بنو إسرائيل أرض مصر ، ويكون الظفر لهم ، وقيل طمع ، وشمل المتقين كل متق إسرائيلى أو قبطى ، وقد ملكوا مصر بعد هلاك فرعون ، واستخلفوا فى مصر فى زمان داود وسليمان ، وفتحوا بيت المقدس مع يوشع •

( قالُوا أوذينا ) ضررنا بالأعمال الشاقة والهوان ، والجزية

وقتل الأبناء ( مِنْ قَبلِ أنْ تَأتِينَا ) بالرسالة ( ومِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا ) بها ، وذلك منهم شكوى بعموم الإيذاء وعدم انقطاعه ، لا كراهة للرسالة ، فإن كراهتها كفر أو استبطاء للوعد ، فإن موسى وعدهم النصر فظنوه عاجلا ، فلما رأوا أن الشدة زادت ، وكان يستعملهم إلى نصف النهار بأعمال شاقة ، وبعد مجيئه بالرسالة وأمر العصا ، أعاد على أبنائهم القتل ، واستعملهم النهار كله ، وكلفهم عمل الطوب بلا تبن ليشق ، قالوا ذلك •

وبعد فإن بنى إسرائيل مضطربون على أنبيائهم قليلو الصبر واليقين ، فلا بعد فى كراهتهم الرسالة لازدياد العذاب بها ، وليس كل بنى إسرائيل مؤمنين ، وقال السدى ، وابن عباس فى رواية عنه ، قالوا ذلك حين اضطرهم فرعون إلى بحر القلزم ، فهو أمامهم وفرعون خلفهم •

( قالَ عَسَى ) ترجية وإطماع من مجرد نفسه ، أو بوحى من الله كما قال الحسن : عسى من الله واجبة ، أو عبر بعسى لأنه لم يدر أنهم المستضعفون أم أولادهم ( ربُّكم أنْ يُهلكَ عَدوَّكم ) فرعون أو فرعون وقومه ، فإن العدو يطلق على الواحد والجماعة ، وهلاكه هلاك لهم ( ويسْتَخْلفكُم فى الأرْض ) هذا تصريح لهم بما كنا عنه بقوله : « استعينوا بالله واصبروا إن الأرض » الخ لما رآهم لم يكتفوا بالكناية ، وكان يدعو نفوسا نافرة تستعجل ما تحب •

( فينْظُر كَيفَ تعمَلونَ ) أخَيْراً فيجازيكم بجزائه أو شراً فيجازيكم بجزائه كما يجازيهم على شرهم ، والله عالم بما يعملون قبل أن يعملوه ، لكن قال ذلك لأن قطع العذر والجزاء على العمل •

التاء طاء وسكنت وأدغمت ، وقرأ عيسى بن عمر ، وطلحة بن مصرف : تطيروا بالياء وتخفيف الطاء على الأصل لكن بالماضى (ألاَ إنَّما طائِرهُم ) أى سبب خيرهم وشرهم ، وهو أعمالهم ، وعن ابن عباس : نصيبهم يعنى ما قضى لهم أو عليهم ، وقيل : سبب شؤمهم ، وعن ابن عباس : طائرهم شؤمهم ، وذلك كله مأخوذ من زجر الطائر فيمشى يمينا أو شمالا ، وكانت العرب وغيرهم يعتقدون أن خيرهم وشرهم بحسب ما فى الطائر ، وقرأ الحسن : طيرهم وهو اسم جمع لطائر كراكب وركب ، وقال أبو الحسن الأخفش : جمع تكسير .

( عِنْدَ اللهِ ) مكتوب عنده وهو أعمالهم ، فإن كانت خيرا فهى سبب خيرهم ، وإن كانت شراً فهى سبب شرهم وشؤمهم وهو الواقع ، وما أصابهم من خير فاستدراج ، أو سبب شرهم وشؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده ، الموجب لما يسوءهم دنيا وأخرى ، أو سبب خيرهم وشرهم بمشيئة الله ، وهو الذى شاء ما يصيبهم من حسنة وسيئة ، وليس يُمن أحد أو شؤمه سببا فيه ، أو الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله فى الآخرة .

( ولكنَّ أكْثرهُم لا يعْلَمُون ) أن الكل من الخير والشر من عند الله ، قل كلٌ من عند الله ، أو أن الشر من شؤم أعمالهم ، وكانوا يضيفونها لأسباب ، وعبر بالأكثر وأراد الجميع تجوزا ، أو لأن بعضهم قد علم ، أو لأن فيهم من آمن كمؤمن آل فرعون ، وآسية امرأته رضى الله عنهما على القول بأنهما منهم ، أو لأن من رأى كثرتهم يخالجه الشك أن فيهم من يعلم ، فأتى بلفظ الأكثر نظرا إلى هذ الإمكان المخالج للبشر كالتحرر ، أو المضارع للاستقبال لا للاستمرار ، أى وأما القليل فسيعلم بأن يوفقه الله للإيمان ، أو يلهمه ذلك ، وأجيز أن يكون المعنى

أكثرهم لا يمكن أن يعلم لإنعامه فى الكفر وبعده ، والقليل بخلاف ذلك ، قيل : ويجوز أن يكون الضمير فى طائرهم لجميع الناس ، فيجىء تخصيص الأكثر على ظاهره .

( وقالُوا مَهْمَا ) لفظ بسيط ، والأصل عدم التركيب ، وألفه التأنيث أو للإلحاق عند ابن هشام ، ومعناه كمعنى ما الشرطية إلا أنها أقوى فى العموم ، فهى اسم لغير العاقل غير ظرف ، ويدل على اسميتها عود الضمير عليها ، وخطأ جار الله من يقول : مهما ظرف زمان بمعنى متى ، وهو الحق ، لكن الأحوط أن يقال : تأتى بمعنى ما كما فى الآية ، فإنها مبتدأ خبره جملة الشرط أو الجواب أو كلتاهما ، أو مفعول على الاشتغال أى مهما تحضر تأتنا به على حد زيداً مررت به ، وتأتى بمعنى متى كقوله :

فـإنك مهمـا تعط بطنك سـؤله
وفرجك نالا منتهى الذم أجمعـا

فجعلها فيه بمعنى متى أولى من جعلها مفعولا مطلقا واقعة على الإعطاء ، ولو كان المانع يجعلها مفعولا مطلقا إبقاء لها على معنى مـا قيل ، وقد تأتى بمعنى إن الشرطية فتكون حرفا ، وجعلها فى الآية بمعنى إن أو متى ، ورد الضمير إلى مبهم مفسر بالبدل بعده تكلف به ، وقيل : مركبة من ما الزائدة وما الشرطية ، أبدلت ألف الشرطية وهى الأولى هاء لثقل التكرير ، وبه قال البصريون وسيبويه ، واختاره غـيرى ، ويضعفه كتبه بالياء ، وأن الأصل عدم التركيب .

وقيل : من مه وما الشرطية ، ونسب للخليل ، وقد فسرها بعضهم هنا بمه وما الشرطية ، أى كف عن ذلك يا موسى ما تأتنا به الخ . وهذا التفسير لا يتأتى له فى كل موضع .

( تأتِنَا بِهِ ) الهاء عائدة إلى مهما كما مر ، ومهما واقعة على الآية فلذلك بين ضميرها بقوله : ( مِنْ آيةٍ ) فإنه متعلق بمحذوف حل من الهاء ، ويجوز تعليقه بمحذوف حال من مهما إذا جعلت مفعولا على الاشتغال ، وإنما أعيد إليها الضمير مذكرا مع وقوعها على الآية نظرا للفظها ، وليس ما يأتى به موسى عندهم آية ، ولكن سموه آية باعتبار ما عنده ، وتبعا لتسميته ، واستهزاء بدليل قولهم :

( لِتسْحَرَنا بها ) أى لتلبس بها على على أعيننا ، وهذا الضمير عائد إلى مهما باعتبار معناها ، فإنها بمعنى الآية ، وإنما اعتبر المعنى لتقدم تفسيرها بالآية ، ويجوز عوده إلى الآية ، واختاره ابن هشام ( فَمَا نَحْنُ لكَ بمؤمنِينَ ) الياء علامة الجر بالياء الصلة ، وتقدر ياء علامة لنصب خبر ما الحجازية ، ومنع من ظهور اشتغال الذى تكون فيه بتلك الياء ، وإن جعلها جاعل تميمية قدر الواو كذلك .

( فأرْسَلنا عليهِمُ الطّوفانَ ) قال فى عرائس القرآن : قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم : دخل حديث بعض فى بعض لما آمن السحرة وصلبهم عدو الله فرعون ، وانصرف موسى وهارون إلى عسكر بنى إسرائيل ، أمر فرعون أن يكلف بنى إسرائيل ما لا يطيقونه ، وكان الرجل من القبط يجىء إلى الرجل من بنى إسرائيل فيقول له : انطلق معى فاكنس خبثى ، أو اعلف دوابى ، واستق لى ، وتجىء القبطية إلى الكريمة من بنى إسرائيل فتكلفها ما لا تطيق ، ولا يطعمونهم شيئا ، فإذا انتصف النهار قالوا : اذهبوا فاكسبوا لأنفسكم ، ومر ما يخالف هذا فشكوا ذلك لموسى فقال : استعينوا بالله الخ ، فقالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا الخ كنا نطعم

إذا استعملونا ولا يطعمونا الآن ، قال : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض » يعنى مصر والشام « فينظر كيف تعملون » .

فلما أبى فرعون وقومه إلا التمادى فى الشر والإصرار ، دعا موسى ربه وكان حديدا مجاب الدعاء ، وكان إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارا لشدة غضبه فيما قيل ، قال : رب إن عبدك فرعون طغى فى الأرض وعتا عتوا كبيرا ، وإن قومه نقضوا عهدك ، وأحلفوا وعدك ، فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ، ولقومى عظة ، ولمن بعدهم من الأمم عبرة ، فتابع عليهم الآيات : السنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، وغير ذلك ، والطوفان هو كل طافٍ بالشىء وأتى عليه ، والمراد هنا الماء من مطر وسيل ، كثر عليهم حتى كادوا يهلكون ، وكانت بيوت القبط يدخلها الماء حتى يصل إلى صدر القبطى ، فلو جلس غرق ، ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل قطرة وبيوتهم مختلطة ببيوت القبط ، وفاض الماء على وجه أرض القبط وحروثهم ، فلم يقدروا على الحرث ، ولا على عمل شىء ، وجهدوا ودام ذلك عليه سبعة أيام من السبت إلى السبت فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فنؤمن بك ، ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا ، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، وعادوا إلى شر ما كانوا عليه .

وروى أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة ، ولا يرون شمسا ولا قمرا ، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره ، وبذلك قال ابن عباس ، وقال مقاتل : الطوفان ماء طفا فوق حرثهم فأهلكها ، وقال الضحاك : الغرق ، وقال مجاهد وعطاء : الموت الذريع ، وهو رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم روتها عائشة رضى الله عنها ، وقيل : الموتان بضم الميم وهو هلاك الدواب .

وعن ابن عباس ، والضحاك ، ومجاهد : المطر الشديد تولى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيق عليهم ، وقيل : أفيض النيل عليهم ، وعن ابن عباس : مصدر معمى عنى به شىء أطافه الله بهم ، يعنى أنه مصدر من طاف يطوف فهو عام فى كل ما يطوف ، وعن الأخفش : جمع طوفانة ،

وقال وهب : الطوفان الطاعون بلغة اليمن ، قيل : أرسل إلى أبكارهم فلم تبق واحدة ، وفى الحديث : « الطاعون رجز أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به فى الأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارا منه » وقال أبو قلابة : الجدرى ، ولم يكن قبل ذلك ، قيل : صرخ الناس إلى فرعون وخافوا الغرق ، فأرسل فرعون إلى موسى فأتاه فقال : يا موسى اكشف عنا هذا فنؤمن ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا فأقلعت السماء وانشقت الأرض ماءها ، وأنبتت من الكلأ والزرع ما لم يروا مثله قط فى مطر ، فقالوا : لا والله لا نؤمن ولا نرسل بنى إسرائنل ، ولقد جزعنا من أمر كان خيرا لنا ، فنكثوا وعصوا فأقاموا شهرا فى عافية ، ثم بعث الله عليهم الجراد كما قال الله سبحانه :

( والجَرَادَ ) الواحدة جرادة للمذكر والمؤنث ، فأكل عامة زروعهم وثمارهم ، وورق الشجر ، وأكل الأبواب ومسامير الحديد التى فيها ، والسقوف والخشب ، والأمتعة والثياب ، ابتلاه الله بالجوع ، فكان لا يشبع ، ولم تصب بنى إسرائيل جرادة" ، وكتب فى صدر كل جرادة جند الله الأعظم ، وكثر فيهم حتى ركب بعضه بعضا ذراعا ،

وروى أن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يدعو على الجراد ويقول : « اللهم اقطع الجراد ، اللهم اقطع دابره ، اللهم اعقم

كباره ، وأمت صغاره ، وأفسد بيضه ، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء » فقيل : كيف تدع على جند من جنود الله بذلك ؟ فقال ، « إنما الجراد نثر حوت من البحر » قال أبو قلابة : حدثنى من رأى الحوت ينثره ، وقلّ الجراد فى سنة من خلافة عمر رضى الله عنه ، فأرسل راكبا إلى اليمن ، وراكباً إلى الشام ، وراكبا إلى العراق ، فأتاه الراكب إلى اليمن بقبضة منه فكبر ثلاثا ، وقال : خلق الله ألف أمة ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر ، وأول أمة تهلك الجراد ، فتتابع غيره كالنظام إذا قطع .

وسألت مريم ربها أن يطعمها لحما بلا دم فأطعمها الجراد فقالت : اللهم أعشه بغير رضاع ، وتابع بينه بغير شياح ، أى صوت . وعن الأوزاعى ببيروت رجل صالح راكب على جرادة ، عليه خفان طويلان ، قال الراوى : أظنه قال أحمران أيضا ، يقول : الدنيا باطل ما فيها ، ويشير بيده إلى موضع فينساق إليه الجراد ، وذلك ملك الجراد ، وأقام عليهم سبعة أيام من سبت لسبت ، وقيل ثمانية ، فضجوا إلى موسى لئن كشفته عنا لنؤمنن ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، وقيل : ضجوا إلى فرعون فأرسل إلى موسى فأتاه فقال : ادع ربك يكشفه عنا نؤمن ونرسل ، فدعا فكشف .

وروى أنه خرج إلى الفضاء فأشار بعصاه إلى المشرق والمغرب ، فرجع الجراد من حيث جاء وقالوا : قد بقى لنا ما يكفينا من الزرع والثمر ، فلا نترك ديننا ولا نرسلهم ، وروى أنه بقى لهم ما يقوم به رمقهم ، فعادوا إلى شر ما كانوا ، وقاموا شهرا فى عافية ، فأرسل الله سبحانه عليهم القمل كما قال :

( والقَمَّل ) قال ابن عباس ، وابن جبير : هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، كان يخرج أحدهم إلى الرحى عشرة أجرية ولا يرد منها إلا يسيرا ، أو روى يخرج عشرة أقفزة فيرد ثلاثة ، وروى أن موسى مشى بأمر الله إلى قرية من قرى مصر تسمى عين الشمس ، فضرب بعصاه كثيب رمل أعفر بجانبها فانهال ، فملأ فأكل ما بقى من زرعهم وثمارهم وشجرهم حتى لحس الأرض ، ويدخل بين الثوب والجلد ، فيعض ويأكل أحدهم طعاما ويمتلىء قملا .

وقال ابن عباس فى رواية ، ومجاهد وقتادة والسدى والكلبى : الجراد الذى يثب ولا يطير فهو كما قيل عن قتادة : أولا الجراد ، وكما قيل عن على : الجراد التى لا أجنحة له ، يعنى لما تنبت ولم يبْق لهم عودا أخضر ، وقال أبو عبيدة : صغار القردان ، وقيل : كباره ، يأكل ويعض ، وعن أبى العالية : أرسل صغار القردان على دوابهم فأهلكها ، فلم يستطيعوا الميرة ، وقال عبد الرحمن بن أسلم : البراغيث ، وقال حبيب بن أبى ثابت الجعلان ، وقال عطاء الخراسانى : هو القمل بفتح القاف وإسكان الميم كما قرأه الحسن ، لزم جلودهم كأنه الجدرى ، ومنعهم النوم والقرار ، وأخذت أشعارهم وحواجبهم وأشفار عيونهم ، ويمتلىء طعامهم ، ويبنى أحدهم أسطوانة من جص ويزلقها حتى لا يرقاها شىء ، ويجعل عليها طعامه فيجده ممتلئا قملا ، وما أصيبوا ببلاء أشد عليهم منه .

وقيل : حيوان صغير جدا أسود ، وإن فى أرض مصر منه الآن شيئا ، فجزعوا وضجوا ، لئن كشف ليؤمنن وليرسلن ، وقد قام فيهم سبعة أيام ، وقيل ضجوا إلى فرعون ، وأرسل إلى موسى مثل ما مر ، فدعا فكشف فانتشر إلى أطراف الأرض ، ونقضوا العهد ، ورجعوا أخبث

مما كانوا ، وقالوا تحققنا الآن أنه ساحر ، حيث جعل الرمل دواب ، كيف نؤمن ونرسل وقد أهلك زرعنا وأشجارنا وأموالنا ، فماذا يفعل أسوأ من ذلك ، لا نؤمن به وعزة فرعون ، وبقوا شهرا ، وقيل : أربعين يوما فى عافية ، فأرسل الله عليهم الضفادع كما قال :

( والضَّفَادِعَ ) أوحَى الله سبحانه أن يقوم على ضفة النيل فيغرز عصاه فيه ، ويشير بالعصى إلى أدناه وأقصاه وأسفله وأعلاه ففعل ، فتداعت له الضفادع بالنقيق من كل جانب ، وأسمع بعضها بعضا ، وخرجت من النيل كالبحر سراعا نحو باب المدينة ، فدخلت عليهم بيوتهم ، وامتلأت أفنيتهم وأبنيتهم وأطعمتهم ، ولا يكشف أحد ثوبا ولا إناء ولا شرابا إلا وجد فيه ضفادع ، وكان الضفدع يراعى ذقن الرجل إذا هم أن يتكلم وثب فيه وينام على فراشه وسريره ، فيستيقظ وقد ركبته الضفادع حتى لا يستطيع أن ينصرف للشق الآخر ، ولا يعجنون عجينا إلا انشدخت فيه ، ولا يطبخون قدرا إلا امتلأت ، وكانت تثب فى نيرانهم فتطفيها ، وفى طعامهم فتفسده .

وعن عكرمة ، عن ابن عباس : كانت الضفادع برية ، فلما أرسلها الله على فرعون سمعت وأطاعت ، وجعلت تقذف نفسها فى القدور وهى تفور ، وفى التنانير وهى مسجورة ، أثابها — بحسن طاعتها — برد الماء ، وعن ابن جبير : كان الرجل يجلس فى الضفادع إلى ذقنه ، وإذا فتح فاه يتكلم أو يأكل وثبت فيه ، وضجوا إلى موسى أو إلى فرعون ، فأرسل إلى موسى كما مر ، وقالوا : هذه المرة لا نعود ، فأخذ مواثيقهم وكانت طرقهم ودورهم مملوءة بما مات منها بأرجلهم ، فدعا موسى فلحق ما حيى منها بالبحر ، وأرسل الله الريح فنقلت عنهم ما مات ، وقيل : المطر وقد قامت عليهم من سبت لسبت ، وقاموا فى عافية شهرا ، وقيل

أربعين يوما وقد نقضوا العهد ، فأرسل الله سبحانه عليهم الدم كما قال :

( والدَّمَ ) صارت مياههم كلها دما ، روى أن الله جل جلاله أمر موسى عليه السلام أن يضرب النيل بعصاه ففعل ، وسال عليهم دما عبيطا فشكوا إلى فرعون لا شراب لنا إلا الدم ، فقال : إنه سحركم فيجتمع الإسرائيلى والقبطى على إناء ماء ، فيخرج للقبطى دم وللإسرائيلى ماء ، ويأتى القبطى أو القبطية إلى إسرائيلى أو إسرائيلية ، يصب من مائه فى القربة ، فيصير فى الوعاء دما ، ومن فيه فى فمه فيصير فى فم القبطى دما ، وكذا المرأة والنيل يسقى الزرع والشجر على حاله ، واعتـرى فرعون العطش ، فكان يمص الأشجار فيصير ماؤها ، فى فمه دما ، وقيل ملحا أجاجا ، وقال زيد بن أسلم : الدم الذى سلط عليهم هو الرعاف ، وكانوا فى ذلك سبعة أيام من سبت لسبت ، وقيل ثمانية ، فضجوا إلى موسى أو لفرعون ، فأرسل إلى موسى كمـا مر ، فدعا فكشـف عنهم ونقضوا ، قال كعب : لبث موسى فى آل فرعون سنة بعد ما غلب السحرة يريهم الآيات : الطوفان وما بعده آية بعد أخرى كما قال الله سبحانه :

( آياتٍ ) حال من الطوفان وما بعده ( مُفَصَّلاتٍ ) واحدة بعد أخرى ، يقومون فى كل واحدة سبعة أيام ، وبينها وبين الأخرى شهر ، وقيل ثمانية أيام أو غير ذلك مما مر ، وقد قيل قعد فيهم يريهم الآيات عشرين سنة بعد ما أمر السحرة ، ووجه الفصل بينهن بالزمان امتحان أحوالهم أيفون أم ينقضون ، أو معنى مفصلات مبينات لا يشك عاقل فيهـا .

( فاسْتَكْبَرُوا ) عن الإيمان ( وكانُوا قَوماً مُجْرِمين ※ ولما

وَقَعَ عَلَيهم الرِّجْز ) هو العذاب بتلك الآيات ، فكأنه قيل : لما وقعت تلك الآيات ، وهذا لا يلزم منه أنهم لم يطلبوا الكشف إلا بعد وقوعها كلها ، ولكنه أخبر عن نقض العهد الذى هو آخر يترتب عليه إغراقهم ، وهذا كما تقول : جاء زيد وقت العصر مع أنه قد جاء وقت الظهر أيضا ، ورجع وقرأ ابن محيصن ، ومجاهد ، وابن جبير : الرجز بضم الراء فى جميع القرآن إلا « رجز الشيطان » « والرجز فاهجر » فكسرهما ابن محيصن ، قال أبو حاتم : رآهما بمثابة النتن الذى يجب التطهر منه ، وقال قوم منهم سعيد بن جبير : الرجز الطاعون ، وأنه عذاب سادس بعد الخمس ، مات به منهم فى اليوم الواحد سبعون ألفا ، وروى فى ليلة واحدة ، ويجمع بينهما بأن مراد من عبر باليوم هو اليوم العام لليل والنهار ، فلم يستطيعوا التدافن .

وروى أن موسى أمر بنى إسرائيل أن يذبحوا كبشا كبشا ، ويضمخوا أبوابهم بالدم فرقا بينهم وبين القبط فى نزول العذاب ، قال عياض : وهذا ضعيف ، وهذه الأخبار وماشاكلها إنما تؤخذ من كتب بنى إسرائيل ، فلذلك ضعف ، وفى اختصاص هذه الآيات بالقبط مع اختلاط إسرائيليين بهم معجزة عظيمة ، وفى توالى هذه المعجزات مع علم الله أنهم لا يؤمنون تقوية العذاب عليهم فى الآخرة حيث لم يؤمنوا بواحدة منهن مع كثرتهن ووضوحهن ، وحيث ازدادوا كفرا عند كل واحدة ، هذا هو الحق ، وزعم بعض أهل السنة أن الجواب فى تواليها ، أن الله يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل ، وكونه يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل حق ، لكن الجواب به فيه ضعف وقصور ، قال ذلك البعض ، وأما على قول المعتزلة فى رعاية المصلحة فلعله تعالى علم من قوم فرعون أن بعضهم كان يؤمن بتواليها .

( قالُوا يا موسَى ادْعُ لنا ربَّكَ بما عَهِدَ عِنْدكَ ) ما مصدرية أو اسم موصول ، أى بعهده عندك ، أو بالذى عهد عندك ، وكل من العهد أو الذى عهده النبوة ، أو دعاء عهد أن يجيبه إذا دعا به كما أجاب فى مجىء الآيات ، أو جمع ما يتوسل به من طاعة ونعمة من الله ، أو ما أوصاك أن تدعو به ، قال شيخ الإسلام : سميت النبوة عهدا لأن الله عهد أن يكرم النبى وهو عهد أن يستقل باعبائها أو لأن فيها كلفه واختصاصا ، كما بين المتعاهدين أو لأن لها حقوقا تحفظ كما يحفظ العهد ، أو لأنها كعهد ومنشور يكتب للولاة اه • والباء متعلق بادع ، وبمحذوف حال من ضمير ادع ، أى متوسلا أو مأتيا بما عهد عندك وجملة : ( لئِن كشفْتَ عنَّا الرِّجْز لنُؤْمننَّ لكَ ) ننقاد لك مقدر قبلها قسم ، ويجوز جعل الباء للقسم ، فجوابها فى تلك الجملة •

( فلمَّا كشفْنا عَنْهم الرِّجْز إلى أجلٍ ) وجملة ( هُم بَالغُوهُ ) نعت أجل ، وهو وقت الغرق أو موت كل أحد منهم ممن مات قبل الغرق وبالغرق ، والأول قول يحيى بن سلام ، وعلى كل حال فليسوا عالمين بالأجل ، ولا بأن العذاب مزاح عنهم إليه ، بل هذا كلام من الله أخبر به ، وقيل : إلى أجل عينوه لإيمانهم فهم عالمون به ، ويحتمل أن يراد بالرجز المؤجل إلى أجل هم بالغوه ، والقول الأول لا يشتمل ممن بقى بمصر حيا بعد الغرق •

( إذا هُم يَنْكثُون ) جواب لما ، أى فاجئوه بالنقض من غير توقف ، أو جوابها محذوف أى نسوا الشدة التى كانوا فيها ، وقرأ أبو البرهسم وأبو حيوة بكسر الكاف ، وروى أنه لما انكشف العذاب قال فرعون لموسى : اذهب ببنى إسرائيل حيث شئت ، فخالفه بعض

الملأ فرجع ، وأن هذا النكث نكث ما قال لموسى ، وهو أيضا نكث لعهدهم السابق .

( فانتقمنا منهم ) أى أردنا الانتقام منهم ، ( فأغرقناهم ) وإنما أولت الانتقام بإرادته لأنه بالإغراق ، ويجوز أن يترك على حاله ، فالفاء بعده لتفصيل مجمل ، وقد ذكر النحاة مثل هذا ( فى اليم ) البحر بحر القلزم ، وقيل : بحر النيل ، وعن بعضهم اليم البحر الذى لا يدرك قعره ، وقيل اليم لجة البحر ، ومعظم مائه وهو من التيمم بمعنى القصد ، فإن المستنفعين به يقصدونه ، وزعم بعض أن قوله تعالى : « واقذفيه فى اليم » يدل على أن اليم هنا بحرالنيل ومعظم مائه .

( بأنهم كذبوا ) التاء للسببية ( بآياتنا وكانوا ) عطف على كذبوا ، أى بتكذيبهم بآياتنا ، وكونهم ( عنها ) أى عن آياتنا ( غافلين ) معرضين غير متفكرين فيها ، كمن غفل عن شىء ولم يحضر فى قلبه ، أكان أم لا ، وإلا فالغفلة من الأمور الضرورية ، ليست باكتساب ، فضلا عن أن يكون سببا للإهلاك ، وادعى بعضهم أن الضمير فى عنها للنقمة المدلول عليها بانتقمنا .

( وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ) يطلب ضعفهم ويسعى فيه باستبعادهم ، وقتل أبنائهم ، فالسين المطلب على أصلها ، ويبالغون فى تضعيفهم ، فالسين للتأكيد وهم بنو إسرائيل ( مشارق ) مفعول ثان لأورثنا ( الأرض ومغاربها التى ) نعت مشارق ومغارب ، وقال الفراء : مشارق ومغارب ظرفان ليستضعفون ، والتى مفعول ثان لأورثنا وهو ضعيف ( باركنا فيها ) وهى أرض الشام ومصر ، ومشارقها ومغاربها نواحيها ، ملكوها بعد فرعون والعمالقة .

وقال الحسن وقتادة : أرض الشام وهو أولى للوصف بالبركة ، فإنها مبارك فيها بالخصب وسعة الرزق ، وبالأنبياء الكثيرة ، وقيل أرض مصر وعزاه النقاش للحسن ، وقالت فرقة : يريد الأرض كلها تجوزاً لأنه ملكهم بلاداً كثيرة ، أو حقيقة لأنه مَلَّكَ سليمان الأرض كلها وهو منهم ، والظاهر غيره ، لأن لفظ الآية يعطى أنك ملك المستضعفين لا من يأتى بعدهم ، وعلى كل قول من هذه الأقوال ، فالمراد بالمشارق والمغارب التعميم لا أرض مخصوصة ، أو للأرض كلها لا شرقها وغربها فقط ، تقول ملكت مشرق هذا الجنان ومغربه ، تريد أنك ملكته كله بما ردت الجهتان ، وقال الكلبى أراد بالأرض الشام ، وبمشارقها فلسطين ، ومغاربها الأردن ، وأنهم ملكوهما فقط .

( وتمَّت ) وقعت ( كلمةُ ربِّكَ الحُسْنى ) هى ما قضى به فى علمه ووعده من النصر والظفر ، كذا يظهر لى ، ثم رأيته لمجاهد ، وقيل : الوعد بالجنة ، وقال المهدوى : ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا الخ ، وقيل : عسى ربكم أن يهلك عدوكم الآية ، وفى رواية عن أبى عمرو : كلمات بالجمع لتعدد المواعيد ، وكذا قرأ عاصم ، والحُسنى مؤنث الأحسن فهو دال على التفضيل ، كما يدل عليه الأحسن ( عَلَى بنى إسْرائيلَ ) عبر بعلى دلالة على أن تلك الكلمة غمرتهم وغطتهم نعمتها ( بما صَبَرُوا ) ما مصدرية ، أى بصبرهم على أذى فرعون وقومه ، وقيل : على دين الله .

وفى الآية حث على الصبر ، ولا أجلب للفرج منه ، قال الحسن البصرى : إذا قابل الناس البلاء بمثله ، وكلهم الله إليه ، وإذا قابلوه بالصبر وانتظار الفرج ، أتى الله بالفرج وقال أيضا : عجبت ممن خف

أى طاش جزعا كيف خف ، وقد سمع قول الله تعالى : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا » .

وقال أيضا : إن الآية دليل على أنه ينبغى أن لا يخرج على ملوك السوء ، وإنما ينبغى أن يصبر عليهم ، فإن الله تبارك وتعالى يدمرهم ، وأقول : لا دليل فى الآية على ذلك ، لأنهم لم يخرجوا عن فرعون لعدم استطاعتهم الخروج عنه ، فإنهم عبيد بين يديه ، وإنما أثنى الله عليهم بمجرد الصبر .

وخلاصة القول فى ذلك عندنا معشر الأباضية : أنه يجوز القعود تحت السلطان الجائر الموحد ، ويأمر القاعد بالمعروف ، وينهى عن المنكر إن استطاع وإن لم يستطع ذهب عن الموضع الذى فيه المنكر فى حينه ، وكذا إن نهى ولم ينتهوا ، وإن لم يستطع الذهاب عنه قعد واقتصر على الإنكار فى قلبه إلا المسجد والسوق ، فيجوز له القعود فيهما مادامت له حاجة فيهما ، ولو نهى ولم ينتهوا ، وقدر على الخروج أو لم يقدر على النهى أصلا ، وإن أدى نهيه إلى قتله أو الإضرار به ، وفيه منفعة ، جاز له النهى والترك ، ويجوز أن يخرج عنه مع غيره شراة إن كانوا أربعين ، وتقييدى بالأربعين تقليد لمن تقدم لا شرط عندى ، كيف لا يجوز الخروج عنه وهو ظالم لنفسه والمؤمنين ودين الله ، بل أقول الخروج عنه واجب إن كانت فيه منفعة للإسلام .

( ودمَّرنا ما كانَ ) اسمها ضمير الشأن أو هى زائدة ( يصْنَع فرعَونُ ) خبر كان على الأول ، وصلة ما على الثانى ، أو فرعون اسم كان ، وعليه ففى يصنع ضمير فرعون لأنه فى نية التقديم ، وإنما جاز تقديم خبرها الفعلى على اسمها لأمن اللبس لاحتياجها إلى الاسم

( وقَوْمُه ) أى خربنا ما صنعوا من قصور وعمارات وبناء ( وما كانُوا يَعْرِشُون ) يرفعون من الأعناب والأشجار ، أو من الأبنية كمساكن فرعون والصرح الذى يناله هامان وغيرهما مما بالغوا فى رفعه ، أو ما كانوا يجعلونه عرشا أى سقفا ، وعرش البيت سقفه ، وقرأ عاصم فى رواية ، وابن عامر ، والحسن ، وأبو رجاء ، ومجاهد : بضم الراء وهو رواية عن أبى بكر وابن كثير ، وكذا فى النمل ، قال يزيدى : والكسر أفصح ، وقرأ ابن أبى عبلة بضم الياء وفتح العين وكسر الراء مشددة للمبالغة ، وقرأ بعض الناس يغرسون بالغين المعجمة والسين المهملة من غرس الشجر ، قال جار الله : وما أحسبه إلا تصحيفا •

( وَجاوَزْنا ) قطعنا ( بِبَنِى ) هذه الباء هى المعاقبة لهمزة التعدية ( إسْرائيلَ ) هو يعقوب ، وقرىء وجوزنا بتشديد المبالغة ، وقيل : هو موافق لجاوزنا ، وبالتشديد قرأ الحسن ، ويجوز أن يكون التشديد للتعدية لاثنين ، فالباء زائدة فى المعمول الأول ( البَحْرَ ) بحر القلزم على الصحيح ، جاوزوه عرضا على المشهور ، وقيل طولا من ضفة إلى موضع آخر من تلك الضفة بقدر ما يكفى فرعون وقومه ، وذلك بوحى من الله ، يضرب البحر بعصاه فسلكوا حيث كانت الطرق بالضرب ، والظاهر أن ضربه على العرض أو الطول بالوحى أيضا ، وأجاز بعضهم أن يكون باجتهاد موسى أن يكون فى الموضع الذى لم يضرب عليه من عرض أو طول أو عار •

وقيل : بحر النيل ، قال بعض : وهو خطأ ، قيل قطع بهم البحر يوم عاشوراء ، وأغرق عدوهم فصاموا بقيته شكرا لله ، وإن كان القطع ليلا فهم أصبحوا صائمين له ، وبالأول قال الكلبى ، وعن الحسن :

لما جاوزوا البحر خرجوا إلى أرض بيضاء ليس معهم فيها طعام ولا شراب ولابناء ، فظلل الله عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى .

( فأتَوْا ) مرّوا ( عَلى قوم ) من العماقلة الذين أمر موسى بقتالهم ، وكانوا على ساحل البحر ، وقيل : من الكنعانيين الذين أمر بقتالهم ، وبه قال قتادة ، وقال أبو عمران ، الجونى : من لخم وجذام ، وقيل : من لخم ، ومنهم كانت ملوك العرب فى الجاهلية ، ويأتى كلام فى لفظ قوم فى الحجرات إن شاء الله .

( يعكُفُون ) يقيمون ويواظبون ، وقرأ حمزة والكسائى بكسر الكاف ، وكذا أبو عمرو فى رواية عبد الوارث ، وقرأ ابن أبى عبلة بضم الياء وفتح العين وتشديد الكاف مكسورة ، وذلك مبالغة ( عَلَى ) عبادة ( أصْنامٍ ) وقوله : ( لَهم ) نعت أصنام ، وكانت على صور البقر فيما قال ابن جريج ، وذلك أول شأن العجل ، وكانت من حجر وعيدان وغيرها ، وقيل : كانت بقرا حقيقة يعبدونها .

( قالُوا يا مُوسَى اجْعَل لَنا إلهاً ) نعكف على عبادته تقربا به إلى الله ، ظنوا أن هذا لا يضر الديانة ، فأرادوا — لما استحسنوا ذلك من القوم — أن يكون فى شرع موسى ولم يكن ذلك شكا من بنى إسرائيل فى وحدانية الله تعالى ، وقيل : قصدوا بذلك الكفر ، ويبعد أن يقولوا لموسى : اجعل لنا إلهاً نفرده بالعبادة ونكفر بربك ، وذلك نص فى غباوة وجهالة بنى إسرائيل ، إذ توهموا أنه تجوز عبادة غير الله مع ما رأوا من الآيات الدالة على الوحدانية ، وهذه حال الإنسان أنه : ظلوم ا كفار ، جهول ، كنود ، إلا من عصم ، وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما رأى من بنى إسرائيل بالمدينة .

وقال يهودى لعلى بن أبى طالب : ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتم ؟ فقال على ، ولله دره مجيبا : ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ؟ وقيل : قال اليهودى اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه ؟ فقال على : ما اختلفنا فيه ، ولكن اختلفنا عنه ، وأنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم اجعل لنا إلهاً .

( كما لَهم آلهة ) ما مصدرية عند مجيز دخولها على الجملة الاسمية مطلقا أو كافة وهو أولى ( قالَ إنَّكم قوم تَجْهلونَ ) عظمة الله ، وأنه مخصوص بالعبادة ، لأنه خالق الآيات والنعم التى رأيتم ، أو من عادتكم الجهل المتكرر العام حيث قلتم ذلك إثر آيات عظام شاهدتموها ، وهذا عجيب ، فإن جعل الصنم لو كان فى نفسه جائزا لمن يقربا لله لتطرق إليه التحريم من حيث إنه يجر إلى إفراد الأصنام بالعبادة ، كيف وهو فى نفسه إشراك بالله ، ومر أبو واقد الليثى فى خروجهم إلى غزوة حنين على سدرة عظيمة خضراء ، فقال : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كمالهم ذات أنواط ، شجرة لبعض المشركين يعلقون بها أسلحتهم ، ولها يوم يجتمعون إليها فيه ، وأنكر عليه ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآه ذريعة إلى عبادة الشجرة وقال : « الله أكبر قلتم والله كما قال بنو إسرائيل : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة والذى نفسى بيده لتتبعن سنن من قبلكم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ولم يقصد أبو واقد بذلك فسادا .

( إنَّ هؤلاءِ متبَّرٌ ) مهلك ومدمر ومكسور ، ويقال إناء متبر أى مفرق قطعا ، ويقال لكسار الذهب تبر ( ما هُم فيهِ ) من اتخاذ الأصنام والعكوف عليها ، يبطل الله ذلك ويكسرها على يدك قطعا ، ولو قصدوا

بهـا التقرب إلى الله زلفى ( وباطِل" ) غير جـالب نفع ولا دافع ضر ( ما كانـُوا يعـْمـَلون َ ) من عبادتها وغيرها مما يحسبونه نافعا ، لما كان ما قالوا أثر الآيات بعيدا عن العقل ، وصفهم بالجهل ، وأكده بأن وأشار إليهم بإشارة البعد لبعدهم عن مقام الخير والمجلس المعتبر ، وأكد تبار ما هم فيه وبطلان ما يعملون بأن كان باطل ما كانوا يعملون معطوف على خبر إن ، ووصف ذلك بالتبار والبطلان ، وقدم الحكم بهما ، سواء جعلنا متبر خبرا لإن وما نائبه ، وباطل معطوفا على متبر وما فاعلا لباطل ، حيث لم يقل ما هم فيه متبر وما كانوا يعملون باطل ، فيكون ذلك جملتين مؤخرا فيهما الحكم ، أو جعلنا متبر وباطل خبرين لما بعدهما ، فيكون ذلك جملتين مخبر بهما لإن والثانية بالعطف ، وكل ذلك تنبيه على لحوق الدمار والإحباط لهم وتنفير عن مثله •

( قال َ أغَيرَ اللهِ أبغـْيكـُم إلهاً ) الاستفهام إنكار عليهم أو توبيخ أو تعجب ، أو لذلك كله استعمالا للكلمة فى معان ، أو فى معنى واحد دال على الباقى وغير مفعول لأبغى ، وقدم زيادة للتقبيح حيث جعل ثانيا للكلمة المذكورة ، والكاف منصوب المحل على نزع الخافض ، أى أبغى لكم أى أطلب ، وإلها حال من غير ، ولو كان غير نكرة لا تعرف بالإضافة ولا تخصص بها ، ولا بنحو الاستفهام ، لأنه قد يجىء الحال من النكرة بلا مسوغ ، وقيل : تتعرف أو تتخصص ، ويجوز كون إلهاً مفعولا به ، وغير حال منه إن قلنا بتنكيره ، ولو كان إله نكرة لتقدم الحال عليه ، ولتقدم الاستفهام ، وادعى بعض أن غير مفعول لمحذوف كيف أطلب لكم إلهاً غير الله •

( وهـُو فـَضـَّلـَكـُم عـَلى العـَالمين َ ) وغمركم فى النعم ، ونجاكم من عدوكم من عدوكم وأهلكه ، فما أسوأ ما طلبتم ، حيث قابلتم مـا

تفضل الله به عليكم خاصة بإشراك أخس مخلوقاته به ، والجملة حال ، والمراد بالعالمين من عدى هذه الأمة ، أو عالموا زمانهم ، فإن هذه الأمة أفضل الأمم بالإجماع ، أو المراد بالتفضيل بتلك الآيات وكثرة الأنبياء .

( وإذْ أنْجيناكُم ) أى قال الله لهم : واذكروا إذ أنجيناكم ، ويجوز أن يكون هذا من جملة كلام موسى ، فيكون ضمير المتكلم له ، وإنما أسند الإنجاء إلى نفسه لوقوعه على يده وبسببه ، وهذا أولى من الوجه الأول ، فليس قوله : « من ربكم » التفاتا بخلافه على الوجه الأول ، ففيه التفات من تكلم لغيبة ، ويقوى هذا الوجه الأخير قراءة ابن عامر : وإذ أنجاكم ، أى الله ، ولو كانت تحتمل الأول بأن يكون المعنى قال الله : واذكروا إذ أنجاكم الله ، والذى فى صحف الشام قراءة ابن عامر ، وقرىء وإذ نجيناكم بالتشديد .

( مِنْ آلِ ) قوم ( فِرْعَوْنَ ) وجملة ( يسُومُونكم ) حال من الكاف ، أو من آل ، أو منها أو مستأنفة لبيان ما منهم منه الانجاء ، أو المصدر منها بدل اشتمال من آل ، فتكون إن محذوفة رفع الفعل بعد حذفها وما مر أولى ، والسوم الطلب ، سام السلعة طلبها ، والكاف على تقدير اللام فقوله :

( سُوءَ العَذابِ ) مفعول به ، أى يطلبون لكم سوء العذاب ، أو يسومونكم بمعنى يذوقونكم أو يكلفونكم ، فسوء مفعول ثان ، ومنه سوم السلعة أيضا ، فإن مساومها يكلف صاحبها وقوع البيع وإرادته أو بمعنى يعذبونكم ، فسوء مفعول مطلق ، وسوء العذاب هو ما لا يحتمل ، وجملة ( يُقتِّلونَ ) بالتخفيف عند نافع ( أبْناءَكُم ) بدل مطابق بالنظر إلى الجملة المعطوفة عليها ، وهى قوله : ( ويسْتَحيُونَ نِساءَكُم )

يتركونهم أحياء ، وفيه بيان لذلك السوم ، وتشديد يقتّلون فى قراءة ابن عامر وغيره للمبالغة .

( وفى ذَلكُم ) الإشارة إلى سوء العذاب ( بلاءٌ ) امتحان ( مِنْ ربّكم عَظيمٌ ) أو إلى الإنجاء ، أى وفى إنجائكم امتحان عظيم لكم ، هل تشكرون الله عليه ؟ وقيل : إذا جعلنا الإشارة إلى الإنجاء فالبلاء بمعنى النعمة ، وما ذكرته أولى ، وقال الطبرى قوله : « وإذ أنجيناكم إلى « عظيم » خوطب به من كان من بنى إسرائيل على عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تقريعا لهم بما فعل بأوائلهم ، وما ذكرته بوجهيه أولى .

( وَوَاعَدْنا ) المفاعلة لأن موسى لما وعده ربه أقبل على الوعد والتزمه ، وقرأ أبو عمرو ، ويعقوب ، وأبىّ بن كعب ، وأبو رجاء ، وأبو جعفر : ووعدنا بإسقاط الألف بين الواو والعين ( مُوسَى ثَلاثِينَ لَيلةً ) ذا العقدة يصومه ويعتزل فيه ، ويجتهد فى العبادة ، فلننزل عليه الكتاب فيه ، ما يؤتون وما يتقون ، ولا علم لـه بذلك .

وروى أنه وعد قومه بذلك الكتاب بعد هلاك فرعون ، فسأل ربه فأمره بصوم ذلك ، ففعل ، فلما تم أنكر خلوف فمه ، فتسوك بعود خرنوب ، وروى بعود خروب ، وقيل : أكل من ورق الشجر ، وقيل : مص من لحى الشجرة ، فقالت الملائكة : كنا نشتم من فيك أطيب من ريح المسك ، فأفسدته بالسوا ك، وأوحى الله إليه : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، فأمره الله أن يزيد عليها عشرة ليختم بالخلوف كما قال :

( وأتممناها ) وقرأ أبى وتممناها بالتشديد ( بعَشْرٍ ) من ذى الحجة ، وأنزل عليه التوراة بعدها ، وقيل : أنزلها وكلمه فيها ، ونصب ثلاثين على المفعولية لواعدنا ، لأنه بمعنى أجلناه ثلاثين ، أو يقدر مضاف ، أى وواعدنا موسى مناجاة ثلاثين ليلة لا على الظرفية ، لأن المواعدة ليست فى الثلاثين ، وقيل : واعده فى أول مرة أربعين ليلة للمناجاة ، وقيل ثلاثين للخلى للعبادة باجتهاد ، وبعشر للمناجاة ، وعليهما يكون قوله :

( فتمَّ مِيقاتُ ربِّه أربعِينَ ليلةً ) مثل قوله : « فتلك عشرة كاملة » بعد قوله : « وسبعة إذا رجعتم » والميقات ما قدر وحدد ، وأربعين حال من ميقات ، وأجاز بعضهم أن يكون ظرفا ، لأنه واقع على الزمان ، ويرده أن التمام بالأربعين لا فيها ، ويجوز كونه مفعولا لحال محذوف من الميقات ، أى بالغا أربعين لا من الهاء على الصحيح لعدم شرط مجىء الحال من المضاف إليه ، وليلة تمييز مؤكد لأنه معلوم من السياق أن المعدود ليال ، وليس مؤكدا لعامله الذى هو أربعين ، فإن مجرد أربعين ليس نصا فى الليالى ، والتمييز لا يؤكد عامله كما قال ابن هشام .

( وقالَ مُوسَى لأخِيهِ هارُونَ ) بدل أو بيان ، وقرىء بالضم على النداء ( اخْلُفْنِى فى قَوْمِى ) كن خليفتى فى قومى ، أى حتى أرجع ، ومعلوم أن استخلاف الحى فى حياته منته بوقت لا متصل بعد موته ، والدليل على ذلك الوقت قرائن الأحوال ، فإذا قال مريد السفر : أنت خليفتى ، فوقت انتهاء الخلافة رجوعه من السفر ، وإن مات فيه انقطعت بموته ، وهذا متقرر عقلا من العادة ، فبطل ما تعلق به بعض الفرق من أن قوله صلى الله عليه وسلم لعلى : « أنت منى بمنزلة هارون

من موسى » دليل على أن عليا أولى بالإمامة بعده ، وأن الأمة أخطأت فى استخلاف الثلاثة قبله ، ولقد أخطأت تلك الفرقة ، وأصابت الأمة ، فإن خلافة هارون مؤقتة برجوع موسى من المناجاة .

( وأصْلِحْ ) ما فسد من أمرهم ، أو كن عاملا بالصالحات مطلقا . قال ابن جريج : كان من الإصلاح أن يزجر السامرى ويغير عليه اه ، وقد زجر وغير ولم يسمع له ، وإن لم يفعل فلعدم قدرته ، ونهى قوم السامرى باتفاق كما فى سورة طه .

( ولا تتَّبِعْ سَبيلَ المفْسِدينَ ) أى لا تتحول عما أنت عليه من عدم اتباعهم ، قال فى عرائس القرآن : قالت بنو إسرائيل بعد خروجهم من البحر : ائتنا بالكتاب الذى وعدتنا ، فسأل ربه فأمره بصوم ثلاثين يوما ثم يتطهر ويطهر ثيابه ويأتى طور سيناء ليكلمه ويطيه الكتاب ففعل ، فلما صعد الجبل أنكر خلوف فيه فتسوك ، فذهب خلوف فمه ، فأوحى الله إليه أن صم عشرة أيام فصامها ، فتطهر وطهر ثيابه ، فصعد الجبل فكلمه ربه .

ثم بعث الله جبريل إلى جنة عدن فقطع منها شجرة ، واتخذ منها سبعة ألواح ، طول كل لوح عشرة أذرع بذراع موسى ، وكذا عرضه ، وكانت الشجرة التى اتخذ منها الألواح من زمرد أخضر ، ثم أمر جبريل أن يأتيه بسبعة أغصان من سدرة المنتهى ، فجاء بها فصارت نورا بين السماء والأرض ، فكتبت الملائكة أو القلم وحده بأمر الله التوراة فى الألواح ، وموسى يسمع صرير القلم ، وذلك يوم الجمعة ، فأشرقت الأرض بالنور ، ولم تطق السماء حمل الألواح لثقلها بالعهود المكتوبة فيها ، وأمر جبريل بحملها لموسى ، فلم يستطع وقال : يا رب من يقدر

على حملها ، وهل خلقت خلقا يطيق حملها ؟ فأرسل الله ملائكة بعدد كل حرف فحملوها لموسى ، فوضعوها على الجبل فانصدع الجبل ، وانخشع وقال : يا رب من يطيقها بما فيها ، كما قال الله فى شأن القرآن : « لـو أنزلنا هذا القرآن » الخ وذلك عند صلاة العصر ، فقبض موسى على الألواح فلم يطق حملها ، ومازال يدعو حتى حملها .

( ولمَّا جاء مُوسَى لميقَاتِنا ) للوقت الذى وقتنا له ، وهذه لام التوقيت كقولك : جاء لصلاة الظهر إذا أردت أنه جاء عندها ، وقولك : كتبته لسبع مضين من المحرم ، وسماها جار الله لام الاختصاص ، أى خص مجيئه ميقاتنا ، وابن حكام يفسرها بمعنى عند ، والميقات اسم زمان على غير قياس ، وياؤه عن واو .

( وكلَّمه ربُّه ) خلق له الكلام فى بعض الأجرام ، أو فى الهواء ، والله على كل شىء قدير كما خلقه مخطوطا فى اللوح المحفوظ ، وكتبه القلم فيه بلا كتاب ، وعن ابن عباس : كلمه أربعين يوما وأربعين ليلة ، وكتب له الألواح ، وقيل : كلمه أول الأربعين ، وإن قلت : إذا كان كلامه مخلوقا فى بعض الأجرام فكيف يتم لذلك الجرم أن يقول : « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى » وغير ذلك مما يشرك قائله ؟ قلت : يتم له حكاية عن الله كما يقول جبريل ذلك عن الله ، هذا مذهبنا ومذهب المعتزلة ، وهذا الكلام الذى تكلمت به الشجرة ، أو خلق فى الهواء حروفا وأصـواتا مقطعة سمعها موسى من كل جهة .

وزعم الحنابلة أن كلام الله مطلقا حروف وأصوات مقطعة قديم ، ويرده أنه إن كانت إلى الآن يصوت بها متكررة أو غير متكررة ، فهذا عين الحدوث ، وإن انقطع التصويت بها فقد فنيت ، وما فنى فحادث

وهذا الصوت إن كان الله حاشاه فقد جعلوه محلا يخرج منه الصوت ، وإن كان غيره فالكلام لغيره لا له .

وقال جمهور المتكلمين : كلام الله صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات ، وتلك الصفة قديمة أزلية ، فقالوا : إن الله قدير أن يسمع موسى تلك الصفة ، مع أنها غير حرف وغير صوت ، كما قدر أن يخلق فى الجارحة ما ليس من طبعها ، مثل أن يجعل الأذن مبصرة ، والعين سامعة ، وقلنا معشر الأباضية : إن كلام الله قسمان :

الأول : خلق الأصوات فى جسم أو عرض .

والثانى : نفى الخرس ، يقول : الله مكلِّم تريد أنه لا يجوز وصفه بالخرس .

وزعم أهل السنة وجمهور السلف والخلف من غيرنا : أن كلامه قديم أزلى ، وسكتوا عن الخوض فى حقيقته ، قال وهب بن منبه : كلم الله موسى فى ألف مقام كان يرى كلامه نورا على وجهه ثلاثة أيام أثر كل مقام ، وما أظنه صحيحا ، وما قرب موسى النساء منذ كلمه الله فيما قيل ، والواو فى كلمه عاطفة على جاء موسى أو واو الحال بلا تقدير قد عند مجيز مجىء الحال جملة ماضوية مجردة ، من قد مقرونة بالواو مثبتة ، وبتقديرها عند مانع ذلك والعطف أولى .

( قالَ ربِّ أرنى أنْظُرْ إليْكَ ) الرؤية بصرية متعدية إلى اثنين بالهمزة ، والثانى محذوف أى أرنى نفسك ، وقرأ عمرو وابن كثير فى رواية عنهما : أرنى بإسكان الراء تخفيفا أو إلغاء للمحذوف الذى بنيت الكلمة على حذفه ، ونظيره إعراب بعض الكلمات على عين مثل : « وله

الجوار » بضم الراء فى بعض القراءات ، ومعنى أرنى على القراءتين اجعلنى متمكنا من رؤيتك بأن تكشف عن بصرى ، أو بأن تتجلى لى كما يتجلى مخلوق لمخلوق .

(قالَ لَنْ تَرانى) أى لن يتصل بى بصر عينيك ، ولن تدركنى ، ولكون المعنى هكذا لم يقل لن تنظر إلىَّ مع أنه أنسب لقوله : « أنظر إليك » وذلك أن النظر توجيه البصر إلى شىء يدرك به ، سواء أدركه أم لا ، وليس مطلوبه به مجرد التوجيه ، بل التوجيه لأجل الإدراك ، فنفى الله سبحانه الإدراك ، لأنه محال من حيث إن ما تراه العين لون ، والله منزه عن اللون ومحدود بالجهات ، وحال فى مكان أو فى الهواء ، والله منزه عن ذلك ، فإنه يلزم من رؤية الله حاشاه أن يكون على لون من الألوان ، وأن يكون فى جهة ، وأن يكون له الجهات والحدود ، وأن يحل فى مكان ، أو فى هواء ، وأن يكون جسما أو عرضا ، وأن تخلو عنه الأمكان التى ليس فيها عند رؤية الرائى ، وذلك تشبيه بالخلق ، ومستلزم للحدوث ، فإنه يكون بين الحادثين ، وعلى الحادث من هو حادث ومستلزم للتركيب ، والتركيب مستلزم للحدوث وللجهل ، يحل الأشياء ، وإن قيل : يدرك بغير اتصال شعاع العين به ؟

قلنا : هذا نفى لرؤيته بالعين كما قلنا ، وإثبات للعلم بحقيقته كما قال الغزالى والفخر وغيرهما من المحققين : إن رؤيته أن يحصل للبشر إدراك بالنسبة إلى ذات الله تعالى ، كنسبة الإبصار إلى المبصرات فى قوة الظهور ، وللمنقول محلها العين ولا غير العين .

قال الغزالى : إنما أنكر الخصم الرؤية لأنه لم يفهم ما نريد بها ، وظن أنا نريد بها حالة تساوى الحالة التى يدركها الرائى عند النظر

إلى الأجسام ، والألوان ، هيهات نحن نعترف باستحالة ذلك فى حق الله تعالى اهـ •

وهذا أيضا لا نقبله عنه ، فإن ذات الله أعظم من أن تدركها عقول البشر ولا غيرها ، أو تحيط به ، وليس عند البشر معرفة كنه الله ، وما عرفنا بالأدلة إلا أنه موجود عالم ، قادر حى ، مريد قديم ، باق لا جسم ولا عرض ، وغير ذلك من الصفات ، ولو جازت عليه الرؤية بالعين لجاز عليه اللمس والذوق والشم والسمع ، تعالى الله عن ذلك •

وأجاز عليه بعض السنية ذلك كله ، لأن علته الوجود فلزمه ما لزم على الرؤية من التحييز والحلول والحدوث ، فإن الجسم والعرض مخلوقان ، وليست العلة الحدوث ، فإنه الوجود بعد العدم ، والقيد العدمى لا يصلح علة للموجود ، وإن قيل : إنما لزم ما كرهتم على رؤيته بقياس الله على ما شاهدتم من خلقه ، ولا يقاس غير المشاهد على المشاهد ، قلت ذلك الذى هو محذور ومكروه ومحرم ، من نحو الحدوث والتخيير ، لازم على مجرد إثبات الرؤية ولو مع قطع النظر عن القياس المذكور ، وإن التزمنا أن ذلك بالقياس ، وأن ذلك القياس غير جائز ، فما أثبتم من رؤيته قياس على الخلق وهو باطل ، وإلا كان جوهرا أو عرضا ، وكان محلا للحوادث حاشاه •

وإن قيل : أثبتنا رؤيته للأحاديث والقرآن •

قلنا : الأحاديث موضوعة مفتراة لمنافاتها القرآن ، وقابلة للتأويل ، والقرآن يصدق بعضه بعضا ، والمصير إلى المتبادر أولى ، ولا دليل أشد مبادرة فى نفى الرؤية من قوله سبحانه : « لا تدركه الأبصار » على ما مر من البحث فيه ، فيحال عليه قوله : « إلى ربها ناظرة » كما يأتى إن شاء الله •

مطابق الابد ، ومعنى تضمنى للن لأن معناها المطابق مجمـوع التأبيد والنفى المؤكد والاستقبال •

قال السعد : العقل إذا خلى ونفسه لم يحكم بامتناع رؤيته ما لم يقم له برهان على ذلك ، مع أن الأصل عدمه ، ومن ادعى الامتنـاع فعليه البيان ، قلنا : لا يحكم العقل بجواز الرؤية فإنها مشروطة بكون المرئى فى مكان وجهة ومقابلة من الرأى ، وثبوت مسافة بينهما بحيث لا يكون فى غاية من القرب ، ولا فى غاية البعد ، واتصال شعاع مـن الباصرة بالمرئى ، وكل ذلك مع ما يلزم عليه مما مر حال فى حق الله ، وإن قيل : يرى لا فى مكان ولا وجهة من مقابلة واتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائى والله تعالى •

قلنا : هذا إما مناقض لإثبات الرؤيـة ، وإما تحول إلى الرؤيـة العلمية ، أما العلم بحقيقته فليس فى طاقة الخلق ، وأما بوجوده وبسائر صفاته فمسلم صحيح ، وإن قالوا : إنا قاطعون برؤية الأعيان والأعراض ضرورة أنا نفرق بالبصر بين جسم وجسم ، وعرض وعرض ، ولا بد للحكم المشترك من علة مشـتركة وهى إمـا الوجود أو الحـدوث أو الإمكان ، إذ لا رابع مشترك بينهما ، والحدوث عبارة عن الوجود بعد العدم والإمكان عن عدم ضرورة الوجود والعدم ، ولا مدخل للعدم فى العلية ، فتعين الوجود وهو مشترك بين الصانع وغيره ، فيصح أن يرى من حيث تحقق علة الصحة وهى الوجود •

قلنا : إن أريد الفرق برؤية البصر فمصادرة ، أو باستعمال البصر فلا يفيد ، لأنا نفرق مثلا بين الأعمى والأقطع بالبصر ، والفرق بمدخل من البصر لا يقتضى كون المغروق مبصرا ، ولا نسلم أيضا أنه لا رابع

مشترك بينهما ، فإن وجوب الوجود بالغير والمقابلة ، بل الأمور العامة كالماهية والمعلومية والمذكورية أمور مشتركة بينهما ، ولا يقال : الأمور العامة تستلزم صحة رؤية الواجب ، ولا ضرر فى النقص بها على أنها تقتضى صحة رؤية المعدوم ، لأنا نقول : يجوز أن تشترط بشىء من خواص الموجود الممكن ، ولا نسلم أن الوجود علة الرؤية كما مرّ سلمناه ، لكن فيما نشاهد من جسم وعرض ، ولا نقيس عليهما ما ليس جسما ولا عرضا ، ويلزم رؤية كل موجود كالكلام والشم كما مر .

وإن قيل : إنما لم ير الكلام والشم ونحوهما ، لأن الله سبحانه لم يخلق فى العبد رؤيتها ، لا لامتناع رؤيتها قلنا : هى أعراض خلقها الله على كيفية لا ترى لا على كيفية ترى ، ومنعها عن أن ترى أو منع الأبصار عن أن تراها ، وعلى كل حال فليست رؤيته ممكنة لآدائها إلى محال وهو تحيزه ، وما يؤدى إلى محال ، فالتحيز استحالته عن واجب الوجود ، مانعة عن رؤيته ، وأيضا الصحة عدمية فلا تستدعى علة ، ولو سلم فالواحد النوعى قد يعلل بالمختلفات ، وكالحرارة بالشمس والنار ، فلا يستدعى علة مشتركة ولو سلم ، فالعدمى يصلح علة للعدمى ولو سلم ، فلا نسلم اشتراك الوجود .

وإن قيل : المراد بالعلة متعلق الرؤية ، والقابل لها ، وهو وجودى تعالى .

قلنا : ليس يقابل لها لأدائها إلى التحيز المستحيل ، وإلى الجسمية والعرضية ، وإن قيل لا تلزمان لأنا أول ما نرى شبحا من بعيد ، إنما ندرك منه هوية ما دون خصوصية جسمية أو عرضية أو إنسان أو فرسية ونحو ذلك ، وبعد رؤيته برؤية واحدة متعلقة بهويته ، قد تقدر على

تفصيله إلى ما فيه من جواهر وأعراض ، وقد لا نقدر ، فمتعلق الرؤية هو كون الشيء له هوية ما ، وهو المعنى بالوجود ، واشتراكه ضروري •

قلنا : حاصل هذا الكلام هو أن متعلق الرؤية أمر مشترك في الواقع ، وهو لا يدفع الاعتراض ، ويستلزم استدراك التعرض لأجل رؤية الجسم والعرض ، ولاشتراك الصحة بينهما ، والاشتراك في المعلوم لا يستلزم الاشتراك في العلة ، وأيضا إذا رأيت شبحا من بعيد أيقنت أنه إما جسم أو عرض ، ونفي هذا مكابرة ، وأيضا مفهوم الهوية المطلقة أمر اعتباري ، كيف تتعلق بها الرؤية ، بل المرئي خصوصية الموجود ، فلعل تلك الخصوصية لا مدخل لها في تعلق الرؤية ، وأيضا ذلك الدليل منقوض بصحة الملموس ، وأيضا يجوز أن يكون متعلق هو الجسمية وما يتبعها من الأعراض من غير اعتبار خصوصية ، تعالى الله عن الجسمية والعرضية ، وقد علق الله رؤيته باستقرار الجبل ، واستقراره ولو كان ممكنا في الجملة ويطمع فيه إنسان لكن بعد إخبار الله أنه جُعِل دكا كان محالا ، وما علق بالحال محال ، وذلك كحياة زيد غدا فإنها ممكنة ، وإن جاء الوحي بأنه يموت قبل الغد علمناها محالا ، ولسنا نحتاج إلى أن نقول المعلق عليه استقرار الجبل حال تحركه وهو محال ، فضلا عن أن يرد علينا أن ذلك خلاف الظاهر •

وكون قوم موسى مذبذبين لم يكتفوا بمنع موسى الرؤية ، فاحتاج إلى أن سألها ليجاب بالمنع ، فاتضح بطلان قول السعد إنهم إن كانوا مؤمنين كفاهم منع موسى ، أو مشركين لم يكونوا مصدقين في حكم الله بالامتناع ، وذلك أنهم كانوا مذبذبين كما مر ، أو مثبتين لله منازعين في رسالة موسى •

وقول القاضي إنه قال : « لن ترانى » دون لن أرى ، ودون لن تنظر إلىّ تنبيها على أنه قاصر عن رؤية لتوقفها على المعنى معد فى الرائى لم يوجد فيه بعد هو ادعاء محض ، لا دليل عليه مسلم ، وكما يفيد قولك لن أرى عدم الرؤية على الإطلاق يفيدها : « لن ترانى » من حيث إنه إذا كان لا يراه موسى فغيره أولى بأن لا يراه ، سلمنا أن هذا دون ذلك فى حد ذاته ، لكن باعتبار ما يلزم على الرؤية ، مما مر يتبين أن المراد بهما سواء ، لكن عبر بهذا ليعقبه بقوله : « ولكن انظر » الخ .

وأما لن تنظر إلىّ فلا يصح ، لأن النظر توجيه البصر نحو الشىء ، سواء أبصره أم لم يبصره ، والإخبار عن عدم رؤيته دليل على أن لا يراه موسى أبدا ، لأن النفى بلن وهى للتأبيد على البحث السابق ، وأما أن لا يراه غيره فالدليل عليه أنه إذا لم يره موسى لم يره غيره ، ولتعليقها بالمحال ، وذلك المحال بالنظر إلى موسى محال بالنظر إلى غيره ، وما تعلق بمحال حال ، وذلك كله فى الآية بمعونة أن رؤيته تؤدى إلى التحيز وغيره مما لا يجوز على الله ، فبطل قول القاضي أن الاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ الخ .

وقد مرّ ردّ ما بقى من كلامه ، وأشار بقوله : لم يوجد فيه بعد إلى أنه سيوجد فى الآخرة معنى معد فى الرأى فيراه ، وهذه الرؤية بالمعنى المعد إما بالعين وإما بالعلم ، وكلتاهما باطلة لما مر ، وأيضا هذا المعنى إما تغير الله إلى ما طبع العين على إدراكه ، أو الله سبحانه لا لا يتغير ، وإما نقل العين إلى الإدراك بالدليل ، فذلك علم لا رؤية ، وتقرر ضرورة أن ما امتنع لذاته لا يدرك إلا بتحويل المدرِك أو المدرَك ، وقد قال أبو حنيفة : يرى بحاسة سادسة وهى العقل ، وهذا رجوع إلى رؤية العلم ،

ومر ما فيها ، وذكر السعد أن الأمة مجمعون قبل ظهور البدع على أنه يرى فى الآخرة وهو خطأ ، وقد قال ابن عباس وغيره : لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فانظر ما يأتى فى سورة القيامة ، فبطل زعمه أنهم مجمعون قبل البدع على أن الآيات الواردة فى ذلك على ظاهرها ، وأيضا فليحمل لا تدركه الأبصار على ظاهره .

( ولكنِ انْظُرْ إلى الجَبَلِ ) الذى هو أقوى منك ، إنما صح استدراكا لما قبله على أن معنى النظر إلىَّ لا يمكن لأنى لست فى جهة دون أخرى فلا تطلبه ، ولكن ( فإنِ استقرَّ مكانَه فَسَوفَ تَرانى ) وليس بمستقر ، فلست ترانى ، وذلك الجبل الطور ، وقيل زبير بفتح الزاى ، وقيل زبير والطور اسمان لجبل واحد .

( فلمَّا تجلَّى ربُّهُ ) أى آية ربه ، وقدرته وعظم شأنه ( للجبل جعله دكًّا ) مصدر بمعنى اسم مفعول أى مدكوكاً أى مدقوقا ، والدكّ والدق أخوان كالشك والشق ، وقرأ حمزة ، والكسائى ، وابن عباس ، والربيع بن خيثم : دكاء بالمد والتشديد ، أى رأيته مرتفعة كرابية التراب ، أو أرضا مستوية ، يقال : ناقة دكاء أى متواضعة السنام ، وقرأ يحيى ابن وثاب : دُكا بضم الدال وتنوين الكاف جمع دكاء بالفتح والمد أى قطعا .

( وخَرَّ موسَى صَعِقاً ) وقع بسرعة مغشيا عليه غشية كالموت من هول ما رأى ، كما كان الجبل دكا لذلك ، ولطلب الرؤية ، وقد خلق له تمييزا فيما قال بعض ، والصعق صفة مشبهة من الثلاثى المكسور اللازم المطاع للثلاثى المفتوح المتعدى ، يقال : صعقه فصعق ، وذلك مأخوذ من الصاعقة ، ويقال أيضا الصاعقة من صفة إذا ضربه على رأسه . وقال قتادة : الصعق الميت ولا يناسبه لفظ الإفاقه .

( فَلَمَّا أفاقَ ) من غشيته ( قالَ سُبْحانك ) عن الرؤية وغيرها مما لا يليق ( تُبتُ إليكَ ) من جريان طلب الرؤية على لسانى من غير أن تأذن لى فيه ، وقد كان الأولى إذا طلبها قومه وهى أمر لا يجترأ عليه أن يقول : اللهم إن قومى طلبوا الرؤية وأنت أعلم ، فمرنى بأمرك • ويجوز أن يكون معنى أرنى أنظر إليك عرفنى نفسك تعريفا واضحا جليا ، كمن شاهد شيئا ، ومعنى « لن ترانى » لن تطيق ذلك ، فانظر إلى الجبل فى قوته فإنى أخلق له تمييزا ، فإن أطاقها أطقتها ، وليس بمطيق ( وأنا أوّلُ المؤمنينَ ) من بنى إسرائيل عند ابن عباس ومجاهد ، أو من أهل زمانه إن كان الكفر قد طبق الآفاق ، أو أول المصدقين بأنك لا ترى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا تدرك بحاسة من الحواس ، ففيه إيماء بأن مثبت رؤيته غير مؤمن بل منافق إن أثبتها فى الآخرة ، ومشرك إن أثبتها فى الدنيا كما نص عليه أصحابنا ، ونص الشيخ هود أنه قد آمن الناس قبله ، فالأولية بالنظر إلى أمر الرؤية أو إلى قوم مخصوصين •

قال صاحب عرائس القرآن وغيره : لما مضت أربعون يوما تطهر وطهر ثيابه ، وأتى طور سينين ، وكلمه ربه وقربه ، قال وهب : كان بين الله وموسى سبعون حجابا ، فرفعها كلها إلا حجابا واحدا ، وهذا خطأ فاحش ، فإن الحجاب مؤد إلى التحيز والجهات ، وإثبات لإدراكه فى الدنيا ، فإن الحجاب لو ثبت كان مقابلا له ، ولا فرق بينك يا أيها الإنسان وبين الحجاب ، كلا كما مخلوق •

وقال سهل بن سعد الساعدى : بينهما سبعون ألف حجاب ، وفيه ما فى قول وهب ، وذلك إثبات رؤيته ، وإن قالوا ذلك الحجاب لم تخلق فيه رؤية بقى عليهم التحيز وإثبات إمكان الرؤية ، فإن من لولا الحجاب لكان مرئيا معدودا فى جملة من يرى •

وقد زعمت جماعة أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة الإسراء ، وأن موسى قال : سبحانك تبت إليك لعلمه أن الرؤية فى الدنيا مختصة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قالت عائشة : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

وكان أحمد بن حنبل يقول : رآه بعين رأسه ، وكرر ذلك يوما حتى انقطع نفسه توكيدا للرؤية ، وزعم القاضى أبو بكر أن موسى رآه ولذا صعق ، وأن الجبل رآه ولذا اندك ، ولما كلم موسى عليه السلام استحلى كلامه واشتاق قيل إلى الرؤية وطمع فيها وقال : « يا رب أرنى انظر إليك » .

قال السدى : لما كلم الله تعالى موسى غاص إبليس حتى خرج من بين قدمى موسى ، فوسوس إليه فى قلبه أن مكلمك شيطان ، فسأل الرؤية ، وقد روى أن الله سبحانه أنزل ظلمة تغشت الجبل على أربع فراسخ من كل ناحية ، وطرد عنه الشياطين وهوام الأرض ، وكشط له السماء ، ورأى الملائكة قياما فى الهواء ، وبرز له العرش ، وقربه حتى سمع صرير الأقلام على الألواح .

قال السدى : فقال له : لن ترانى ، وليس يطيق البشر النظر إلىّ فى الدنيا ، من ينظر إلىّ مات ، قال : إلهى سمعت كلامك فاشتقت إلى رؤيتك ولأن أنظر إليك ثم أموت أحبّ إلىّ من أن أعيش ولا أراك ، فقال له : انظر إلى الجبل وهو أعظم جبل بمدين يقال له زبير ، وذلك أن الجبال لما أعلمت أن الله يريد أن يتجلى لجبل منها ترافعت رجاء أن يتجلى عليها ، وجعل زبير يتواضع ، فتجلى عليه قال ابن عباس : بنور ظهر للجبل فصار ترابا .

قال الضحاك : أظهر الله من النور مثل منخر الثور ، وعبد الله بن سلام وكعب : مثل سم الخياط ، والسدى : قدر الخنصر .

وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الآية وقال : « هكذا » فوضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل أى غار ، وفى رواية بطرف إبهامه على أنملة الخنصر من اليد اليمنى ، وقال سهل ابن سعد : قدر الدرهم ، فجعل الجبل دكا أى متسويا بالأرض ، وعن السدى : قدر جناح البعوضة ، وعن الحسن : أوحى الله إلى الجبل هل تطيق رؤيتى ؟ فغار وساخ فى الأرض وموسى ينظر حتى ذهب أجمع ، فذلك التجلى ، وعن بعض : تجلى الله للجبل وأشغل موسى بالنظر إلى الجبل ، ولولا ذلك لمات .

قال أبو بكر محمد بن عمرو الوراق : عذُبَ إذ ذاك كل ماء ، وآفاق كل مجنون ، وبرؤكل مريض ، وأزال الشوك عن الأشجار ، واخضرت الأرض ، وأزهر النبـات ، وأخمدت نيران المجوس ، وخرت الأصـنام على وجهها .

قال سفيان : ساخ الجبل حتى وقع فى البحر وهو يظهر فيه ، وقال عطية العوفى : صار رملا هائلا ، وقال الكلبى : كسر جبالا صغارا ، وفى الحديث عن أنس : « أنه صار ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة : أحد وورقان ورضوى ، وثلاثة بمكة : ثور وثبير وحـراء » وقيل : فنى بجملته ، قيل : ذهب أعلاه وبقى أكثره ، وقيل تفتت وصار غبارا تذروه الرياح .

وعن سفيان : ساخ وأفضى إلى البحر الذى تحت الأرضين ، قال

ابن الكلبى : فهو يهودى إلى يوم القيامة ، وقال أبو بكر الهذلى : ساخ فى الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة ، قال الكلبى : صعق موسى يـوم الخميس يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر •

قال الواقدى : لما خر موسى صعقا قالت الملائكة : ما لابن عمران وسؤال الرؤية ؟ قال جار الله : وروى أن الملائكة مرت عليه وهو مغشى عليه ، فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون : يا ابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة •

قال وهب : لما سأل موسى الرؤية أرسل الله سبحانه الضـباب والصواعق والظلمة ، والرعد والبرق ، فأحاطت بالجبل الذى عليه موسى ، وأمر الله ملائكة السموات يتعرضوا على موسى أربع فراسخ من كل نـاحية •

قال السدى : حف حول الجبل بالملائكة ، وحف حول الملائكة بالنار ، وحف حول النار بملائكة ، وحف حول الملائكة بالنار ، ثم تجلى للجبل •

وعن وهب : مرت به ملائكة السماء الدنيا بتسبيح وتقديس كثيرين كصوت الرعد الشديد ، فقال : يا رب إنى كنت عن هذا غنيا •

ثم ملائكة الثـانية كالأسود بتسبيح وتقديس بصوت أشد مـن الأول ، واقشعرت كل شعرة فى رأسه وبدنه وقال : لقد ندمت عـلى مسألتى فهل ينجينى من مكانى الذى أنا فيه شىء ؟ فقال له جبريل : اصبر لما رأيت ، فقليلا من كثير رأيت •

ثم ملائكة الثالثة كالنسور ، وألوانهم كالنار بتسبيح وتقديس

أعظم مما قبل ، فاشتد فزعه وأيس من الحياة ، فقال له : مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا صبر لك عليه .

ثم ملائكة الرابعة كالثلج بصوت تسبيح وتقديس أشد مما قبل ، فاصطكت ركبتاه ، وأرعد قلبه ، واشتد بكاؤه فقال له : اصبر فقليل من كثير ما رأيت .

ثم ملائكة الخامسة فى سبعة ألوان ، ولم يستطع نظرهم ولا سماع صوتهم ، وامتلأ رعبا وحزنا ، وكثر بكاؤه فقال : يا ابن عمران مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه .

ثم ملائكة السادسة فى يد كل واحد حربة كالنخلة العظيمة أشد ضوءًا من الشمس ، لباسهم كلهب النار إذا سبحوا سبح من كان قبلهم يقولون بشديد صوت : سبوح قدوس رب العزة أبدا لا يموت ، فى رأس كل واحد أربعة أوجه ، ولما رآهم رفع صوته فسبح باكيا ويقول : رب اذكرنى ولا تنس عبدك ، لا أدرى هل أتخلص مما أنا فيه أم لا ؟ إن خرجت احترقت ، وإن مكثت مت فقال له : قد أوشك يا ابن عمران أن يشتد خوفك ، وينخلع قلبك .

وأمر الله ملائكة السابعة أن يحملوا العرش ، ولما بدا شىء من نور العرش اندك الجبل ، وكل شجرة فيه ، ورفعت الملائكة كلهم أصواتهم بالتسبيح فخر صعقا على وجهه بلا روح ، ثم ردها الله إليه فقلبت عليه الحجر الذى كان عليه ، فصار كالقبة عليه لئلا يحترق ، ثم أفاق فقال : « سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » وقال : آمنت أنك ربى ، وصدقت أنك لا يراك أحد فيحيا ، ومن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه ،

فما أعظمك وأعظم ملائكتك ، أنت رب الأرباب ، وإله الآلهة ، وملك الملوك ، والإله العظيم الذى لا يقوم لبطشته شىء ، ولا يعدله شىء ، ربٌ تبت إليك ، والحمد لك ، لا شريك لك ، ما أعظمك وما أجلك يا رب العالمين •

هذا ما رواه المخالفون ، ونص أصحابنا أنه لا يقال : ما أعظم الله ، ولا أعلمه ولا ما أكرمه ونحو ذلك ، وأجازه بعضهم فى الأفعال لا فى الصفات ، نحو : ما أحسن صنع الله لا ما أعلمه وأبصره وأقدره ونحو ذلك ، قيل : كانت الجبال قبل أن يتجلى الله صما ملسا وصارت الجبال بعد ذلك شقوقا وغبراناً •

( قـال يا مُوسَى إنـِّى ) وفتح اليـاء ابن كثير وأبـو عمرو ( اصْطفيتُكَ ) اخترتك ، وإنما يستعمل فى الخير ، لا يقال اصطفاه لشر ، وطاؤه عن تاء للصاد قبلها ( علَى النـَّاسِ ) الذين ليسوا رسلا ( بِرِسَالاتى وبكلامى ) بلا واسطة ناطق به ، بل مخلوقا فى الهواء ، أو فى جرم ، وأما الرسل فمصطفى عليهم بالكلام المذكور فقط ، وأما آدم فإنه ، ولو كلم له ، ففى الجنة أو كلامه له بمواسطة ملك ، وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه ولو كلمه لكن ليلة الإسراء ، فإما فى سماء وإما فى منام ، وقيل : بواسطة ملك وليس ذلك تفضيلا لموسى على محمد صلى الله على سيدنا محمد وموسى وسـلم ، وكم من مفضـول خص بما ليس لفاضل ، وكثيرا ما تجد عند أحد من الرعية ما ليس للملك ، فمعنى اختيار موسى بذلك اختصاصه به ، بل كما تعطى عبدك العظيم شيئا عظيما فى بعض الأوقات ، لم تعطه لعبدك الأعظم ، بل يقال : الكلام ليلة الإسراء فى سماء بلا واسطة أفضل •

وعلى هذا ، فالمراد بالناس من فى زمانه كما فضل قومه على عالمى زمانه ، وهارون ولو كان نبيا رسولا لكن مأمور باتباع موسى ، وليس أصيلا فى حمل الرسالة ، ولا كليما ، وقد يقال : الاصطفاء بمجموع الرسالة والكلام ، لكن هذا لا يكفى فإن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول مكلم ، إلا إن قيل : كلم بواسطة أو فى يوم أو البحث فى الكلام فى الأرض ، والذى اختاره بعض أن المراد بالناس من فى زمانه .

( فخُذْ ما آتيتكَ ) أخذ من يأخذ شيئا متبجحا ومغتبطا ، والمراد الرسالة والكلام والمعجزات ( وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ ) الله على الإنعام وقرأ غير نافع وابن كثير برسالاتى بالجمع ، لأنه أرسل بضروب وأرسل إليه فى أوقات ، ووجه الإفراد أن المصدر صالح للكثير ، وقرأ أبو رجاء برسالتى بالإفراد ، وبكلمى بالجمع ، وقرأ الأعمش برسالاتى وبكلمى بجمعهما .

وحى عنه المهدوى وبتكليمى وهو المراد بكلامى ، وذلك مجرد تعديد للنعم ، وقيل تسلية له عما فاته من الرؤية وهو باطل ، فإنه منكر لها ، وإنما سألها ليزجر قومه بمنعها بأن يسمعوا المنع بالوحى .

وقال كعب : نظر موسى فى التوراة فقال : يا رب إنى أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالكتاب الأول والآخر ، ويسارعون فى الطاعة ، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال ؟ رب اجعلهم أمتى قال : هى أمة محمد ، وفى رواية جعل مسألة القتال والإيمان بالكتاب الأول والآخر مسألة على حدة مجابا عنها بما ذكر من أنهم أمة محمد .

وقال يا رب : إنى أجد فى الألواح أمة هم الأولون ، أى دخولا الجنة ، والآخرون أى زمانا ؟ قال : هم أمة محمد ، فقال : يا رب إنى لأجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمرا قالوا : نفعل إن شاء الله ، فاجعلهم أمتى ؟ قال : هى أمة محمد ، قال : يا رب إنى أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم ومال المشركين ، وكان الأولون يحرقون صدقاتهم وغنائمهم بالنار ، أو تنزل من السماء نار أو مثلها فتحرق غير أن موسى كان يجمع صدقات بنى إسرائيل والغنائم ، ولا يجد إنسانا مملوكا إلا اشتراه ثم أعتقه ، وما فضل منها يحفر له حفرة عميقة ، ويلقيه فيها كى لا يرجعوا فيها وهم المستجيبون ، والمستجاب لهم وهم الشافعون والمشفعون ، يا رب اجعلهم أمتى ؟ قال هم أمة محمد .

قال : يا رب إنى أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله ، وإذا هبط حمده ، الصعيد لهم طهور ، والأرض مسجد غر محجلون من أثر الوضوء فاجعلهم أمتى ؟ قال : هم أمة محمد ، قال : يا رب إنى أجد أمة إذا هَمَّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كتب له حسنة ، وإن عملها ضوعفت له عشراً إلى سبعمائة ، وإذا هَمَّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه ، وإن عملها كتبت له واحدة ، فاجعلهم أمتى ؟ قال : هم أمة محمد .

قال : يا رب إنى أجد أمة مرحومة ضعفاء ، يؤتون الزكاة ويرثون الكتاب ، واصطفاهم الله ، ومنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، وكل أولئك يدخلون الجنة فاجعلهم أمتى ؟ قال هم أمة محمد ، قال : يا رب إنى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم ، يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة ، ويصطفّون فى صلاتهم كصفوف الملائكة ، أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل ، لا يدخل أحد منهم النار إلا مثل ما يرى الحجر من وراء البحر . ويأتى تفسير هذا إن شاء الله — فاجعلهم

أمتى ؟ قال : هم أمة محمد ، فقال : ياليتنى من أمة محمد ، وقيل : قال : اللهم اجعلنى منهم ، فأوحى الله إليه يرضيه : يا موسى إنى اصطفيك إلى دار الفاسقين ، وأوحى إليه : « ومن قوم موسى أمة » إلى « يعدلون » فرضى كل الرضا .

ولم يعط الله لأمة ما أعطى هذه من الحفظ ، وروى أن كعبا رضى الله عنه رأى حبرا يبكى فقال : ما يكبيك ؟ قال : ذكرت بعض الأمر ، فقال كعب : أنشدتك الله إن أخبرتك بما أبكاك تصدقنى ؟ قال : نعم ، فذكر له ما مر عن التوراة وكلام موسى فى الأمة أنشدك الله ، هل تجد فى كتاب الله المنزل كذا ؟ أنشدك الله هل تجد كذا إلى آخر ما مر قطعة قطعة كما مر .

( وكَتَبْنا لهُ فى الألواحِ ) وهى عشر عند وهب ، طول كل واحد عشرة ، وكذا عرضه ، وهى من زمرد من الجنة عند ابن جريج بضم الزاى والميم والراء المشددة وبفتحها وإعجام الدال ، وقال ابن عباس : سبعة ألواح ، وقال الفراء : لوحان إطلاقا للجمع على اثنين ، وقال أبو العالية : هى من زبرجد أخضر ، وروى هذا حديثا ، وعن أبى العالية : من برد ، وقال ابن جبير : من ياقوت أحمر ، وقال وهب : من صخرة لينها الله لموسى فصنعها منها بأصابعه .

وعن الحسن : كانت من خشب نزلت من السماء ، والمكتوب فيها التوراة ، وقيل : غيرها ، وقيل : من سدر الجنة ، والطول اثنا عشر ذراعا ، وروى هذا حديثا ، وقال مقاتل : الألواح تسعة ، وعن الربيع ابن أنس : نزلت التوراة وِقْرَ سبعين بعيرا ، يقرأ الجزء فى سنة ، ولم يحفظها إلا موسى ويوشع وعزير وعيسى عليه السلام ، وهو قول ضعيف

مفرط ، وعن الحسن : هذه الآية فى التوراة بألف آية يعنى « وكتبنا له فى الألواح » الخ .

( مِنْ كلِّ شَىءٍ موعِظَةً وتفْصِيلا لِكلِّ شَىءٍ ) الذى يظهر أن المعنى جمعنا له فى الألواح ما يحتاجون إليه من كل نوع من أمر الدين لأجل الوعظ ، والتفصيل لكل شىء ، احتاجوا إليه من الأحكام من حلال وحرام ، فإن الكتابة فيها معنى الجمع ، وموعظة مفعول لأجله ، ومفعول كتبنا محذوف كما رأيت أو موعظة مفعول به ، أى جمعنا له فيها موعظة وتفصيلا لكل فرد من أفراد الأحكام من كل نوع ، وعلى كل حال ، فمن متعلق بكتبا ، وذكر بعضهم أن من كل شىء مستغنى به عن المفعول ، وموعظة بدل منه ، أو من محل المجرور بناء على أن محل النصب للمجرور وحده ، ومن أجاز زيادة من فى الإثبات أجاز كون من صلة ، وكل مفعولا وموعظة بدل منه أو مفعول لأجله .

( فخُذْها ) العطف على كتبنا ، والمعطوف محذوف أى فقلنا له خذها ( بقوَّةٍ ) إلخ، ويجوز أن يكون فخذها بقوة الخ بدلا من قوله : « فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » فلا يقدر القول ، وإنما صح إبدال جملة مقرونة بالفاء ، لأن المراد اللفظ فهى مفرد لتقدم القول ، والضمير فى خذها للألواح فيما يظهر ، وأجيز عوده للرسالة لكل شىء ، لأنه بمعنى الأشياء قيل أو للتوراة ، والقوة الاجتهاد والعزيمة والصبر ، واحتمال مؤنتها ، وعدم الفتور ، قاله ابن عباس والسدى ، وقال الربيع ابن أنس : القوة الطاعة ، وعن ابن عباس : أمر موسى أن يأخذ بأشد ما فيها .

( وَأمُرْ قَوْمَكَ يأخذُوا ) إن قلت : جزم يأخذ والشرط مقدر

عند الجمهور إن أمرتهم يأخذوا ، وبالطلب لنيابته مناب الجازم المقدر عند السيرافى والفارسى ، وبه لتضمنه معنى ذلك الجازم عند الخليل وسيبويه ، ومعنى إن الشرطية على كل حال مرعى ، وذلك يستلزم أن لا يتخلف أحد عن الأخذ ، والتخلف واقع ؟

قلت : الحكم فى قوله : « يأخذوا » على المجموع ويقدر مضاف أى يأخذ بعضهم .

( بأحسَنها ) ويترك الحسن فيأخذوا بالعفو ، ويتركوا الاقتصاص ، وبالصبر ويتركوا الانتصار ونحو ذلك ، مما هو داخل فى الثواب ، ومما قيل : من أن القصاص مكتوب على بنى إسرائيل قطعا لم يثبت ، بل يجوز لهم العفو ، فالأمر للندب سلمنا أنه مكتوب عليهم قطعا فنقول : الاقتصاص أحسن ، والعفو حسن فى الجملة ، وقيل : الأحسن الواجب والندب والحسن هو المباح الجائز الأخذ والترك ، أو الأحسن هو المتوسط شدة وسهولة ، فإنه أحسن من الأشد باعتبار الطبيعة ، وباعتبار الدوام عليه ، فالحسن هو الأشد أو الأحسن هو السهل ، والحسن هو الشديد ، أو الأحسن المأمور به ، والتفضيل على حده فى قولك : العسل أحلى من الخل ، أى العسل فى حلاوته أشد من الخل فى حموضته ، والمأمور به أبلغ فى الحسن من المنهى عنه فى القبح .

أو المراد بالأحسن الحسن ، وكلها حسن ، فعلى هذا فاسم التفضيل خارج عن بابه ، فيكون لم يقل يأخذوا بها مع أنه المراد من حيث إنها كلها حسنة تصريحا بحسنها ، وترغيبا فيها ، قال فى عرائس القرآن : معظم التوراة عشر كلمات ، عليها مدار كل شريعة ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله العزيز الجبار القهار ، لعبده ورسوله موسى بن عمران سبّحنى وقدّسْنى ، لا إلـه إلا أنـا فاعبدنى ، ولا تشرك بى شيئا من أهل السماء والأرض ، فكلهم خلقى ، واشكر لى ولوالديك إلىّ المصير أحيك حياة طيبة ، ولا تقتل النفس التى حرم الله عليك فتضيق السماء عليك بأقطارها ، والأرض برحبها ، ولا تحلف باسمى كاذبا ، فإنى لا أطهر ولا أزكى من لم يعظم اسمى ، ولا تشهد بما لا يعى سمعك ، ولا تحفظ عيناك ، ولم يقف قلبك عليه ، فإنى أوقف أهل الشهادة على شهادتهم يوم القيامة فأسائلهم عنها ، ولا تحسد الناس على ما أتيتهم من فضلى ورزقى ، فإن الحاسد عدوّ نعمتى ساخط لقسمى ، ولا تزن ، ولا تسرق ، فأحجب عنك وجهى ، وأغلق دون دعوتك أبواب السموات ، ولا تذبح لغيرى ، فإنه لا يصعد إلىّ من قربان الأرض إلا ما ذكر عليه اسمى ولا تغدرنّ بحليلة جارك ، فإنه أكبر مقتا عندى ، وأحبب للناس ما تحب لنفسك ، واكره لهم مـا تكره لنفسك •

قال ابن عباس : لما سار إلى الميقات قال له ربه : ما تبتغى ؟ قال : جئتك أبتغى الهدى ، قال هديتك يا موسى ، قال : يا رب أى عبادك أحب إليك ؟ قال : الذى يذكرنى ولا ينسانى ، قال : وأى عبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : فأى عبادك أعلم ؟ قال : الذى يزيد علم الناس إلى علمه ، فيسمع الكلمة تهديه إلى هدىٍ أو ترده عن ردىء •

وعن ابن مسعود : لما قرب الله موسى بالطور رأى عبدا فى ظل العرش جالسا قال : رب من هذا ؟ قال : هذا عبد لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، بر بوالديه ، لا يمشى بين الناس بالنميمة ، فقال

موسى : يا رب اغفر لى ما جرى من أمرى وما غَبَرَ ، وما بين ذلك وما أنت أعلم به منى ، أعوذ بك من وسوسة نفسى ، وأعوذ بك من سوء عملى ، قال : كفيت ذلك يا موسى ، قال يا رب أى الأعمال أحب إليك أن أعمل به ؟ قال : تذكرنى ولا تنسانى ، قال : أى عبادك خير عملا ؟ قال : من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزنى فرجه ، مؤمن فى خُلُق حسن ، قال : وأى عبادك شر عملا ؟ قال : فاجر فى خُلُق سيىء ، جيفة فى الليل بطل فى النهار .

قال الحسن : مكث موسى بعد ما تغشاه النور فى الجبل أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات ، فاتخذ برقعا ستر به وجهه ، وقيل : اتخذه من أول أمره ، وقالت له زوجته : اشتقت إلى رؤيتك ، فإنى لم أرك منذ كلمك ربك ، فكشف لها عن وجهه وهو كالشمس ، فوضعت يدها على وجهها ، وخرت ساقطة ثم قالت : ادع ربك أن يجعلنى زوجتك فى الجنة ، قال : ذلك إن لم تتزوجى بعدى ، فإن المرأة لآخر أزواجها .

وعن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما كلم الله موسى كان لا تدب النملة فى الليلة الظلماء على الصفا من مسيرة عشرة فراسخ إلا رآها » .

( سأُرِيكُم ) من رؤية البصرية المتعدية إلى اثنين بالهمزة ، فإنه مضارع أرى ، لكنه أشعبت ضمة همزة التكلم تمكينا للصوت فى موضع التغليظ ، أو الواو زائدة فى الخط فقط ، لاحظ لها فى اللسان ، وهو ما للقراء ، والإشباع مروى عن الحسن ، والواو ثابتة فى خط المصحف ، ويحتمل الإشباع أن يكون ذلك مضارع أورى يورى بمعنى بين يبين ، أى سأبين لكم ، قيل : وهى لغة فاشية بالحجاز ، وأصلها أورى الزند أى

أظهر ما فيه أو أنار ، قال أبو حاتم : وقرأ قسامة بن زهير : سأورثكم ، ونسبها المهدوى إلى ابن عباس وهى حسنة يصححها قوله سبحانه : « وأورثنا القوم الذين » الخ وهى بالتخفيف والمثلثة ، وضبطها بعض المغاربة بالتشديد .

( دَارَ الفَاسِقِينَ ) وهم فرعون وقومه ودارهم مصر ، وتقدر حال ، أى أريكموها مقفرة منهم لفسقهم فلا تفسقوا فتهلكوا مثلهم ، أو يقدر مضاف أى إقفار دارهم ، أو يقدر كيف أقفرت منهم ، قال الكلبى : دار الفاسقين دار عاد وثمود والقرون المهلكة لفسقهم ، أى أريكموها فى أسفاركم ، وقيل : دار الفاسقين نار جهنم ، ونسب هذا للحسن ومجاهد وعطاء ، وبالأول قال على ومقاتل وقتادة فى رواية النقاش عنهم ، وقال قتادة فى رواية دار الفاسقين : الشام ، والمراد ما خلا منه لفسق أهله ، وعنه أن دار الفاسقين الشام ، وأن المراد العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم ، ويجوز أن تجعل الرؤية علمية تتعدى لثلاثة بالهمزة ، والثالث محذوف لتبادره وعلمه ، أى سأريكم دار الفاسقين خالية أو مقفرة منهم ، أو سأريكموها مسعرة على أنها جهنم ، ومنع بعضهم ذلك ، ولا يجوز ذلك على الوجه الأخير إلا إن أريد سأريكموها خربة أو خالية أو مقفرة بعد قتالكم .

( سأَصْرِفُ ) أمنع بالطبع على القلوب ( عَنْ آياتى ) كلما يدل على وجود الله ووحدانيته ورسالة رسله ، وسكن بن عامر وحمزة الياء ( الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ ) يدعون أنهم أعظم من غيرهم شأنا وفضلا ( فى الأَرْض بغَيْرِ الحقِّ ) حال من الواو ، أى يتكبرون مبطلين لا محققين وهى مؤسسة باعتبار أن الناس كانوا لا يعرفون أن التكبر الحق مختص بالله ، أو باعتبار أن التكبر قد يكون بحق كالكبر عن

الفساق بفسقهم ، ومؤكدة بقطع النظر عن ذلك إلى أن من يتكبر وحق له التكبر على الإطلاق هو الله ، أو يتعلق بيتكبرون أى يتكبر بما ليس حقا من دينهم الباطل ، وبما لا مدخل له فى الفضل : كمال وولد وجاه ، فإن الفضل بالتقوى ، وذلك التكبر أخذ من قلوبهم مكانه فلم يمكنهم التفكر والاعتبار فى الآيات ، وذلك خذلان من الله عقابا على تكبرهم ، وذلك دليل على أن الضلال من الله باختيار من العبد فى فعل ما يوجبه ، وكذا الهدى .

واعلم أن الانهماك فى الشهوات مشغل عن الآيات ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا عظّمت أمتى الدنيا نـُزعت هيبة الإسلام ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت بركة الوحى » أو سأصرفهم عن إبطال آياتى وان اجتهدوا فيه كما كان أبو جهل يجتهد فى إبطال ما يجىء به سيدنا محمد بنحو تسميته سحرا ، وكما كان فرعون يجتهد فى إبطال آيات موسى التسع فأعلى الله الآيات وأهلكهم ، وقد جمع فرعون السحرة لإبطال آية موسى فانتكس عليه الأمر ، أو سأصرفهم عن الطعن فى الآيات والاستهانة بها ، وتسميتها سحرا بإهلاكهم .

وقال سفيان بن عيينة : سأصرفهم عن فهم القرآن ، وقيل عنه : الآيات آيات كل كتاب ، وعلى كل حال فالآية عامة ، وذلك قول الأكثر ، وقيل : إن ذلك من جملة ما قيل لموسى ، وإن الآيات آياته التسع ، والمتكبرون فرعون وقومه ، وعلى كل قول ففى الآية إنذار للمتكبرين أن يترك التكبر لئلا يسلك بهم ذلك المسلك السيىء .

( وإنْ يـَرَوْا ) وقرأ مالك بن دينار رحمه الله بالبناء للمفعول من أرى الرباعى ، والعطف على يتكبرون ، أى الذى من صفتهم التكبر

وعدم الإيمان بالآيات ، واتخاذ سبيل الغى لا الرشد سبيلا ( كُلَّ آيةٍ ) من آيات كتب الله أو كل معجزة ( لا يؤمنُوا بها ) لعنادهم ، أو لاختلال عقولهم بانهماكهم فى الهوى والتقليد ، وهذا يقوى أن الصرف المذكور الطبع على القلب ٠

( وإنْ يَروْا سَبيلَ الرُّشدِ ) طريق الصواب ، وقرأ ابن عامر فى رواية عنه ، وأبو البرهسم بضم الشين اتباعا للراء أو جمعا للرشد بالإسكان ، أو للرشاد ، وقرأ حمزة والكسائى بفتح الراء والشين ، وقرأ أبو عبد الرحمن فيما ذكر أبو حاتم الرشاد والمعنى واحد ، وقال المعرى : الرشد بضم الراء وإسكان الشين الصلاح فى النظر وبفتحهما أو مع ألف فى الدين ( لا يتَّخذوهُ ) وقرأ ابن أبى عبلة لا يتخذوها ، لأن السبيل يذكر ويؤنث ( سَبيلاً وإنْ يَروْا سَبيلَ الغىِّ ) خلاف الرشد ( يتَّخذوهُ ) وقرأ ابن عبلة يتخذوها ( سَبيلاً ) والسبيلان مستعاران ، أى لما يأخذ به الإنسان فينجوا ويهلك ، والقرينة الرشد والغى ، أو شبه ما ينجو به فى الآخرة ، أو يهلك بما ينجو به فى الأرض ، أو يهلك تشبيها مضمرا فى النفس ٠

وذكر السبيل رمز ، وأولى من ذلك أن يجعل الكلام كله استعارة تمثيلية بأن يشبه ركوب الخطأ فى الديانة ، والإعراض عن الصواب فيها بالإعراض عن الطريق المستقيم فى المفازة ، والأخذ فى غيره المهلك على العمد ، ولا أسفه من فعل ذلك ولا أشد استيلاء من الشيطان عليه منه ٠

( ذَلكَ ) الصرف والمذكور من عدم الإيمان واتخاذ سبيل الغى لا الرشد سبيلا ، مبتدأ وقوله : ( بأنهم ) بسبب أنهم ( كذَّبُوا بآياتنا ) خبره ، أو مفعول لمحذوف أى فعلت ذلك ، لأنهم الخ ، أو مفعول مطلق

لمحذوف ، أى صرفتهم ذلك الصرف ، وإن قلت : كيف يكون صرفهم عن الآيات بسبب تكذيبهم بالآيات ؟

قلت : على أن المراد بآيات الأولى غير المراد بالثانية ، أو على أن المعنى نصرفهم عن الاتعاظ بهـا ، لأنهم كذبوا بهـا ( وكانـُوا عَنـْها غَافلينَ ) غير متوجهين إلى النظر فيها .

( والـَّذينَ كذَّبوا بآياتِنا ولقاءِ الآخِرةِ ) من إضافة المصدر إلى مفعوله ، على أن المراد بالآخرة ما يشاهد من أحوالها ، أو على تقدير مضاف ، أى ولقاء أحوال الآخرة ، أو إلى الظرف ، والمفعول محذوف ، أى ولقاءهم أحوالا فى الآخرة ( فأولئكَ حَبِطتْ ) بطلت ( أعْمالـُهم ) لا يعود لهم منها لشركهم أو لتوفيتها لهم فى الدنيا ، وقد كانوا يرجون نفعها لو كان أمر الآخرة صحيحا ، واستعمل الحبط فى الفساد من أول الأمر ، وقرأ ابن عبـاس وأبو السمال بفتح البـاء .

( هَل يـُجْزونَ ) فى الآخرة ( إلا ما كانـُوا يعْملـُون ) فى الدنيا إلا جزاء عملهم ، أو إلا جزاء ما عملوا ، أو إلا بما عملوه .

( واتـَّخذَ ) قيل هو افتعل من اتخذ ( قـَومُ مُوسَى مِنْ بـَعْده ) أى بعد موسى ، أى بعد انطلاق موسى إلى الجبل ، روى أنهم اتخذوا فى العشرة بعـد الثلاثين ، زادها الله ، وأمره أن يخبرهم بها فنسى ، وإنما نسب الاتخاذ لقوم موسى مع أن متخذه السامرى وحده ، لأنه منهم وفيهم يقال لهم : بنو تميم ، أو فعلوا مع أن القائل أو الفاعل واحد ، ولا إرادتهم لاتخـاذه ورضـاهم ، أو لأن المراد بالاتخـاذ لاتخاذ إلها .

( مِنْ حُلِيِّهِم ) جمع حلى بإسكان اللام ووزنه فعول ، أصله حلوى اجتمعت الواو والياء ، وسكنت السابقة فقلبت الواو ياء وأدغمت ، وقلبت الضمة قبلها كسرة لتناسب الياء ، وقرأ حمزة والكسائى بكسر الحاء تبعا للام ، وكذا قرأ يحيى بن وثاب وطلحة والأعمش ، وقرأ يعقوب بفتح الحاء وإسكان اللام على الإفراد فى معنى الجمع ، أو على أنه جمع حلية كتمرة وتمر ، والحلى ما يتزين به من ذهب وفضة وحجر ، والضمير لفرعون وقومه ، أو لبنى إسرائيل ، لأنه ولو كان لفرعون وقومه لكنه قد كان فى أيدى بنى إسرائيل وتصرفوا فيه ، أو لأن الله ملكهم إياه .

حكى يحيى بن سلام ، عن الحسن : أن بنى إسرائيل استعادوا الحلى من القبط لعيد لهم ، فلما أمر موسى أن يسرى ليلا تعذر عليهم عليهم ردم ، وخشوا أن يفتضح سرهم ثم ملكهم الله إياه ، وروى أنه لما غرقوا بقى فى أيدى بنى إسرائيل فملكوه ، وروى أن الله أمرهم أن يستعيروه فاستعاروه كله ، حتى لم يبق فى خزانة فرعون شىء منه ليأخذوه ، ووصل اتخذ بمن مرتين بلا تبعية ، لأن الأولى لتأكيد الحد وهو التعدية بفتح الباء .

وقال ابن مالك : زائدة ، والثانية قيل : للتبعيض ، وضعف بأن حليهم كلها صارت عجلا ، إلا إن أريد بالضمير القبط ، على أنه بقى فى أيديهم بعض ما أوضح بأن بنى إسرائيل أخفوا بعضا ، والأولى أن تكون للابتداء ، فإن إنشاء العجل إنما هو من الحلى ، ويجوز تعليق الثانية بمحذوف حال من عجلا .

( عِجْلا ) ولد البقرة ، أى صورة مثله ، قال فى عرائس القرآن : قال على بن أبى طالب : سمى العجل عجلا لأنهم تعجلوا إليه قبل رجوع

موسى ، وعن الحسن البصرى : اسمه ميمون ( جَسَداً ) بدل أو نعت بدناً ذا لحم ودم عند بعض ، وضعفه بعضهم بأن موسى بَرَّده بالمبرد ، وأجيب بأنه بعد ظهور الحق على يد موسى رجع إلى أصله ، أو برد عظامه ، وقيل : كان جسداً من الذهب خاليا من الروح ، وزعم بعض أنه كان جسداً بلا رأس ، فإن الجسد لغة ما عدى الرأس .

( لهُ خُوارٌ ) صوت كصوت البقر ، وقرأ على بن أبى طالب : جوأر بالجيم والهمز ، أى صياح ، ويأتى فيه كلام فى طه ، قال فى عرائس القرآن : لما ذهب موسى استخلف هارون ، ولما مضى عشرون يوما قالوا : قد تم أربعون ، وقد عدوا الليلة واليوم يومين ، وقيل : لما مضى ثلاثون يوما قالوا : قد تم ، وقال السامرى : إن موسى احتبس عنكم فينبغى أن نتخذ إلهاً ، وإنما طمع فى ذلك من يوم مروا على العمالقة ، وقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً ، فصاغ العجل من ذلك الحلى .

وقيل : إنه لما انفصل موسى قال السامرى : إن حلى القبط الذى استعرتموه غنيمة لا يحل لكم فاجمعوه جميعا ، واحفروا له حفرة ، وادفنوه حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه ، ففعلوا ذلك ، وجاء بالقبضة التى قبضها من تحت حافر فرس جبريل ، وهى أنثى بلقاء لا تصيب شيئا إلا جبى ، جاء جبريل عليها بعد تمام الثلاثين ، ومر عليهم إلى موسى ، فرأى السامرى أثرها ينبت فى الحين ، وقيل : قبض من أثرها يوم الغرق ، إذ جاء خلف قوم موسى ، وأمام قوم فرعون ، وخطوها قدر مد البصر ، إلا إذا أريد القصر .

وروى أنها مركب الأنبياء ، وأنها شمت خيل فرعون ريحا فخاضت بأثرها ، فقال لهارون : اقذفها ، فقال هارون : أقذفها بظنها حليا

فقذفها فى الحلى ، فصار عجلا بأمر الله ، فقال ابن عباس : أوقد نارا وأمرهم أن يقذفوا فيها ، وكان مطاعا فى بنى إسرائيل فقذفوا ، فقال : كن عجلا جسدا له خوار فكان ، كذلك للبلاء والفتنة .

وروى أنه صاغه عجلا ، فألقى فى فمه القبضة ، وكان صائغاً ، وأنه صاغه فى ثلاثة أيام ، وقيل : إن الذى قال : إن الحلى غنيمة لا تحل لكم هو هارون ورصعه فى صوغه بالياقوت كأحسن ما يكون .

وروى أنه كان من قوم يعبدون البقر ، فأحب عبادة البقر ، وأنه قال : أخلفكم موسى الموعد لتصرفكم فى هذا الحلى الذى فى أيديكم ، وأن إبليس خار فى وسط العجل ، وروى أنه جعل مؤخره إلى حائط وحفر وراءه حفرة أنزل فيها إنسانا ، فوضع فى دبره ، فكان الإنسان يتكلم ، وقال السامرى : هذا إلهكم وإله موسى ، فشبه على عباد بنى إسرائيل وجها لهم فأضلهم ، وقال : إن موسى قد أخطأ ربكم فأتاكم ربكم ، أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه ، وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه إليه ، وكان هنالك ستمائة ألف افتتنوا به وأحبوه حبا شديدا وعبدوه ، إلا اثنى عشر ألفا ، وقيل : إلا هارون قال الله سبحانه :

( أَلَمْ يَرَوْا أَنَّه لا يُكَلِّمهم ) ويرد بهذا قول بعض أن إنسانا يتكلم من دبره ، وقد مر ولو صح لقالوا إنه المتكلم أعنى العجل ، فلا يقول الله ألم يروا أنه لا يكلمهم ( وَلا يَهْدِيهم سَبِيلاً ) فكيف يعبدون من لا يكلم ولا يرشد سبيلا ، وإنما يعبد من كان يتكلم ويرشد ، وخلق الأجسام والقوى والقدر : ولا تنتهى معلوماته وهو الله سبحانه بدلائل ( اتَّخذوهُ وكانُوا ظالِمِينَ ) لأنفسهم ، حيث أشغلوها بما يكون وبالا فى الدنيا والآخرة ، أو واضعين الأشياء فى غير مواضعها على

الإطلاق ، فليس هذا بأول مناكيرهم ، والواو عاطفة أو حالية بتقدير قد أو بدونــه .

( ولما سُقِطَ فى أيدِيهمْ ) حذف الفاعل وهو الأفواه ، وناب عنه الجار والمجرور ، أو المجرور وحده ، والأصـل ولما سـقط أفواههم فى أيديهم ، وذلك كناية عن شدة تحسرهم وندمهم وغمهم ، لأن من كـان كذلك يوقع فمه على يد بعضها ، ويجوز أن يكون الفاعل المحذوف المنوب عنه الندم ، أو التحسر أو الغم أو الخسران ، أو الخيبة أو السـعى أو الصرف أو الدفع أو نحو ذلك كالغلبة ، وإنما صـح أن يقع ذلك فى أيديهم ، مع أن محله القلب تشبيها لما يحصل فى القلب بما يحصـل فى اليد ، ويرى كما يقال : حصل فى يدى مكروه إلا السعى والصرف والدفع ، فتحصل باليد واللسان وغيرهما ، نعم قد تستعار لفعل القلب ، وزعم بعض أنه يجوز أن يكون ذلك من حيث إن المتحسر يضرب فخذه بيده ، فتصير يده ساقطة ، أى نازلة ، ويرده أن اليد فى الآية مسقوط فيها لا ساقطة ، وقرأ ابن أبى عبلة أسقط وهى لغة حكاها الطبرى ، يقال : سقط فى يده وأسقط فيها ، وقرأ ابن السميفع وغيره سقط بالبناء للفاعل وهو ضمير مستتر عائد إلى الندم أو غيره مما ذكر ، ولو لم يذكر لدلالة المقام عليه .

( ورَأوا ) علموا ( أنهم قد ضلُّوا ) عـن الحق باتخـاذ العجل ويجوز أن تكون الرؤية بصرية على سبيل المجاز ، بأن شبه ما عملوه علما واضحا قويا لما يرى بالعين ، أو شبه علمهم القوى حينئذ برؤيتهم بأعينهم .

( قالُوا لئِنْ لَم يرحمْنا ربُّنا ويغْفِر لَنا ) المراد مطلق الرحمة عن النار وغفران الذنب ، وقال القاضى : أراد الرحمة بإنزال التوراة ،

وقرأ حمزة ، والكسائى ، والشعبى ، وابن وثاب والجحدرى ، وطلحة ابن مصرف ، والأعمش : ترحمنا بالفوقية ، ونصب رب على النداء بحرف محذوف ، وتغفر بالفوقية ، وفى مصحف أبى : ربنا لئن لم ترحمنا وتغفر لنا بالنصب والفوقية فى الموضعين ( لنَكونَنَّ من الخاسِرينَ ) بما فعلنا واعتقدنا .

( ولمَّا رجَعَ مُوسى إلى قَوْمِه ) بنى إسرائيل من مناجات ربه ( غَضْبانَ أسِفاً ) حزينا عند ابن عباس والسدى ، وشديد الغضب عند أبى الدرداء ، قيل : إذا جاءك ما تكره ممن تقدر عليه حزنت ، فالغضب هنا على قومه إذا اتخذوا العجل إلهاً ، والحزن من حيث إن الله فتنهم .

( قالَ بئْسَما خَلَفْتُمُونى مِنْ بَعْدى ) ما مصدرية ، أى بئس خلافتكم نكرة موصوفة بخلفتمونى ، واقعة على خلافة ، والرابط محذوف ، أى بئس خلافة خلفتمونيها وهى فاعل ، أو تمييز لفاعل مستتر ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى خلافتكم ، والخطاب لعبدة العجل ، أى بئس مقام أقمتموه من بعد انطلاقى ، أو من بعد إيضاحى لكم الحق وهو التوحيد إذ عبدتموا العجل ، أو لهارون ومن معه من المؤمنين ، أى بئس مقام أقمتموه عنى من بعد انطلاقى أو إيضاحى ، إذ لم تكفوهم عن عبادة غير الله ، أو للكل وهو أفيد ، واختار بعضهم الثانى لقوله تعالى : « واخلفنى فى قومى » وسكن غير نافع وابن كثير وأبى عمر ياء من بعدى .

( أعجِلْتم أمْر ربِّكُم ) منصوب على نزع الخافض ، أى عن أمر ربكم ، أى مأموره أو ضمن عجل معنى سبق فتعدى بنفسه ، أى أسبقتموه مثل من كان مماشيا للشىء ثم سبقه وتركه وراءه ، أو هو من عجل الذى بمعنى سبق لا المتعدى المضمن معنى سبق ، وذلك أنهم

تركوا أمر الله غير تام ، وإتمامه أن يدوموا على العبادة والتوحيد ، أو أن وعد الله على تمام الأربعين فسبقوه بعبادة المعجل ، أو قدروا موت موسى أو ضلاله عن الله ، وغيروا كما تغير الأمم بعد أنبيائها ، روى أن السامرى قال لهم بعد الثلاثين أو العشرين : إن موسى لا يرجع وقد مات ، فأمر الله دينه أو وعده لموسى ، وقيل : سخطه أى أعجلتم إلى سخطه .

( وألْقى الألْواحَ ) طرحها من شدة الغضب والحمية لدين الله ، وشدة ملله منهم ، كان يجتهد فى استقامتهم ، ومازالوا يعوجون فتكسرت بإلقائه ، فرفع من التوراة ستة أسباع ما فيها ، وهى تفصيل كل شىء ، وإخبار الغيب ، وبقى سبع هو المواعظ والأحكام ، والحلال والحرام ، ونفس الألواح باق لقوله : « وأخذ الألواح » وقيل : لم تتكسر ولم يرفع منها شىء ، وقد قيل : إن الألواح سبعة ، وفى ذلك مصداق لشيئين :

الأول : ذم العَجَلة إذ غاب الله عليهم عجلهم أمر ربهم ، أى أعاملتم أمر الله بقبيح وهو العَجَلة ، وهى عمل الشىء قبل وقته ، وليس قول موسى : « وعجلت إليك ربى لترضى » دليلا على حسن العجلة كما قال بعض فإنه لا يخفى أن الوقوف على الشىء فى وقته إذا كان محدودا بوقت أولى ، بل أوجب ، وأما السرعة فغير مذمومة وهى عمل الشىء فى أول وقته .

الثانى : ما يقال من أنه ليس الخبر كالعيان ، فإن موسى قد أخبره بفتنة قومه بالعجل ، فلم يلق الألواح وهو مصدق بأخباره تصديقا راسخا ، فلما شاهد الأمر ألقاها .

وما قيل عن قتادة من أنه ألقى الألواح لما رأى فيها من فضيلة لهذه الأمة ، لا لأمته غير صحيح عنه ، وغير جائز وصف موسى به ، ولو

كان فى خلقه ضيق : ولذلك أخا لى أحب بنى إسرائيل هارون منه ، إذا كان ألين وأسهل عليهما السلام ، وكان هارون حمولا ، وفى عرائس القرآن : ألقى الألواح فتكسرت فصعدت منها ستة أسباعها ، وبقى سبع فى أعيدة له فى لوحين ، وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله أخى موسى ما الخبر كالمعاينة ، لقد أخبره بفتنة قومه فلم يلق الألواح ، ولما عاين الفتنة ألقى الألواح فكسرها ، وعن تميم الدارى قلت : يا رسول الله مررت بمدينة كيت وكيت — قرية من ساحل البحر — قال صلى الله عليه وسلم : « تلك أنطاكية أما إن فى غار من غيرانها رضاضا من ألواح موسى ، وما من سحابة شرقية ولا غربية تمر عليها إلا ألقت عليها مـن بركاتها ، ولكن لا تذهب الليـالى والأيام حتى يغزوها رجل من أهل بيتى يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما » .

( وأخَذَ برأسِ أخِيهِ ) هارون ، أى بشعر رأسه ، قال بعض : وكان ذوائب وذلك بيمين موسى ، وأخذ بلحيته بشماله ( يَجرُّه إليهِ ) يجره موسى إلى نفسه غضبا إذ توهم أنه قصر فى كفهم ، وحق عـلى الخليفة أن يسير بسيرة مستخلفه ، وقيل : فعل ذلك ليدنو منه فيكلمه سرا ، فخشى هارون أن يتوهم الناظر إليهما أن ذلك لغضب ، ولذلك نهاه ورغّب إليه ، وهو ضعيف لقوله : « فرقت بين بنى إسرائيل » كـذا قيل ، وكان هارون أكبر من موسى كما يأتى فى سورة طه إن شاء الله .

( قالَ ابْنَ أمَّ ) منادى بمحذوف وأم مضاف إليه ، والفتحة فيه لمناسبة الألف المحذوفة المبدلة عن يـاء مضـافة ، وقيل : للتركيب تشبيها بخمسة عشر ، ونسب لسيبويه ، وقرأ ابن عـامر وأبو بكر فى رواية حمزة والكسائى بكسر الميم ، قال سيبويه : حذفت الياء تخفيفا كحذفها من لا أبالى ، ولا أدرى ، أو لجعل الاسمين كاسم واحد منادى ،

ثم أضافوه كقولك : يا أحد عشرى اقبلوا ، كما يقال : يا غلام بكسر الميم وهذا أقيس اهـ بزيادة وإيضاح .

وقيل : الفتح تخفيف للطول ، وقرىء بإثبات الياء ، وقرىء بكسر الهمزة والميم وإضافة اللام لأنه كان أخاه لأمه ، وتضمن ذلك استعطافا ، وقيل : كان أخاه لأبيه وأمه ، واقتصر على الأم استعطافا وترقيقا فى اختصار ، فإن الأم أرحم وأعظم حقا ، لأنها التى قاست فيه المخاوف والشدائد ، وذلك أدعى للعطف ، قيل : ولأنها كانت مؤمنة واعتد بنسبها اهـ اعتد بالنسبة إليها .

( إِنَّ الْقَوْمَ ) عبدة العجل ( اسْتَضْعَفُونِى ) اعتقدوا أنى ضعيف ( وكادُوا يقْتلُوننى ) لاجتهادى فى الوعظ والإنذار ، والنهى ولست مقصرا ( فَلاَ تُشْمِتِ ) تُفْرح فإن الشماتة الفرح ببلية العدو ( بِىَ الأعْداءَ ) بفعلك بى ما هو إهانة ومكروه ، وقرأ مجاهد فى حكاية أبى الفتح بفتح التاء والميم فقيل : إن شمت قد يتعدى والأعداء مفعوله ، وقال أبو الفتح : لا تشمت يا رب بى ، وجاز هذا كما قال : « الله يستهزىء بهم » « ويمكر الله » « وهو خادعهم » للمناسبة ، أى أولا تشمت بى يا موسى ، والأعداء مفعول بتشمت بضم التاء وكسر الميم محذوفا متعديا بالهمزة كقراءة الجمهور ، قال عياض : وفى كلام أبى الفتح تكلف ، وقرأ بن محيصن فى رواية المهدوى بفتح التاء وكسر الميم ، والكلام فيه كالكلام فى قرءاة مجاهد المذكورة ، وقرأ مجاهد فى رواية أبى حاتم بفتح التاء والميم ورفع الأعداء ، وكذا قرأ حميد بن قيس فى رواية أبى حاتم ، إلا أنه قرأ بالياء التحتية ، والمعنى عليهما نهى الأعداء عن الشماتة ، والمراد نهيه عن فعل ما يشتمون به ، وهذا كناية بذكر اللازم ، وإرادة الملزوم مثل قولهم : أريتك هاهنا ، والمراد لا تكن هاهنا ، ومنه « فلا يكن فى صدرك حرج منه » .

( ولا تَجْعلنِى مَعَ القَوم الظَّالمينَ ) بعبادة العجل فى عقابهم ، أو فى النسبة إلى الظلم ، فإنهم ظالمون بعبادته ، ولست بظالم بالتقصير ، فإننى لم أقصر فى نهيهم عنها .

( قالَ ربِّ اغْفِر لى ) ما توهمت فى أخى من التقصير ، وإظهار الغضب عليه ، وأخذى برأسه ولحيته ، وإلقاء الألواح ( ولأخِى ) هارون تقصيره إن كان مقصرا تقصيرا ما ، وعن بعض أنه لما تبين له عذر أخيه استغفر لما فعل به ، ولما عساه أن يصدر من أخيه من تقصير لا يخلو عنه البشر ، أو ترك رأى أصوب ، وعلى كل حال ففى ذلك الاستغفار مما صدر منه فى أخيه ، وذلك الاستغفار لأخيه إرضاء له ، ودفع للشماتة عنه .

( وأدْخِلْنا فى رحْمتِكَ ) دنيا وأخرى بإيجاد الإنعام وزيادته ( وأنْتَ أرْحَم الرَّاحمِينَ ) فهو أرحم بنا منا ، ولا مرغبا فى الدعاء مثل هــذا .

* * *

تمت القطعة السادسة من تفسير القرآن العظيم ، من كلام رب العالمين ، ويتلوها القطعة الســابعة التى أولها ( إنَّ الذينَ اتَّخذُوا العِجْل ) من تصنيف الشيخ العالم الفقيه النحرير محمد بن يوسف اليسجنى الأباضى الوهبى المغربى ، أبقاه الله تعالى ، وزاده علما آمين .

وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ،

وكان تمام هذه فى يوم عاشر

من شهر شعبان

من شهور

سنة

١٣٠٦